KHALIL AL-NEIMI

رواية
NOVEL

خليل النعيمي

لو وضعتم الشمس بين يديّ

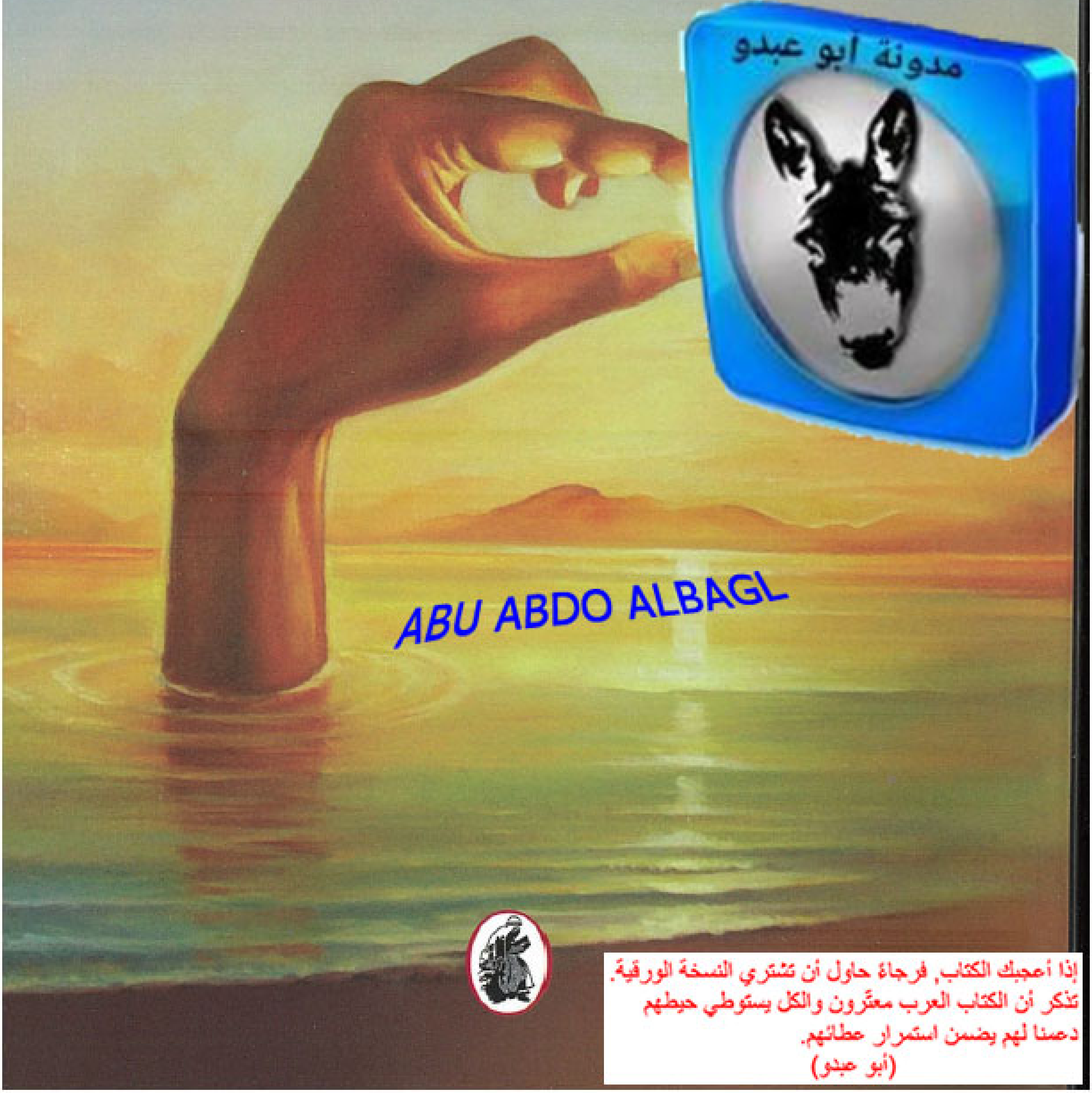
مدونة أبو عبدو

ABU ABDO ALBAGL

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

لو وضعتم الشمس بين يديّ

لو وضعتم الشمس بين يدي / رواية عربيّة

خليل النعيمي / مؤلّف من سوريّة

الطبعة الأولى ، 2011

© حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،

ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،

هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962

E-mail : info@airpbooks.com

موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

® عمّان ☎ 95297109 7 00962

لوحة الغلاف : **سيرجي كوفريغو / روسيا**

التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**

التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-010-4

رواية
NOVEL

خليل النعيمي

لو وضعتم الشمس بين يديّ

-١-

موعدنا في اللوكسمبورغ .

الجو خريفيّ بارد . السماء محجوبة بغيوم خفيفة . الاشجار بدأت تتخلّى عن أوراقها . ورائحة مالحة تنتشر في الفضاء . وجاء الرجل الذي أنتظره . جاء ماشياً ، بهدوء . رأسه مُنَكَّس . منكباه متدليتان . خطواته قصيرة . وثيابه بلا اعتناء . ومنذ أن وصل بدأ يحكي .

- مَنْ أنت؟ سألني بتودد يحمل مسْحَة من النفور .

وعلى الفور صَحَّح ، أريد أن أقول :

- هأنذا جئتُ ، مرة أخرى ، وأنالا زلتُ أجهل عنك كل شيء تقريبًا ، رغم أننا التقينا أكثر من مرة ، من قبل .

وسريعاً أضاف :

- صحيح أن لقاءاتنا كانت ، أحياناً ، خاطفة ، وأحياناً ، مشغولة بأمور أخرى . لكن ذلك ليس عذرًا ليظل أحدنا يجهل الآخر ، أو يكاد .

وبعد أن استقر ، نهائياً ، إلى جانبي ، تابع بلطف :

- مع أن المعرفة ليست أكثر من أكذوبة .

ولما بقيتُ ساكتاً ، أكملَ :

- أكـذوبة تجـعلنا نطمـئن إلى الغـرباء ، أو الـذين نعـتـبـرهم ، تعَسُّفاً ، هكذا . فليس ثمة غريب على وجه الأرض .

ولأني لم أكن أعرف ماذا أقول ، تابع :

- مـاشـيـاً ، كنتُ أتسـاءل : مَنْ أنت ؟ مـسـتـعـيـداً بصـعـوبة ، وجـهكَ ، وهيـئـتكَ ، وألوانكَ ، مع أنني رأيتك مـرات عـديدة . لكنني ، برغم ذلك ، لم أتوصَّلْ إلى معرفـة أكيـدة تجعلني اطمئن إليكَ .

كـان يتكلّم دون أن ينظر إليَّ . فـهـو لا يجلس ، أبداً ، في مواجهتي ، وإنما في صفّي . وحسبْتُ أن الجواب الذي وقف فوق لساني ، ولم أقُلْه ، لا يبدّل ، لو قلته ، في الأمر شيئاً . ودون أن يهتم بملابساتي ، عاد إلى الحديث :

- لدي احتمالات لا نهاية لها حولكَ . أنت تعرف أن الحياة مليئـة بما يسرُّ وما لا يسرُّ . بالحـقيـقيّ وبالمزيّف . وعليَّ أن أوضح ، منذ البدء ، أنني أعتبرهما ، في وضعنا العربيّ الراهن متماثلين ، أو متكاملين ، إذا أحببتَ .

وبعـد أن توقف قليـلاً عن الكلام ، وكـأنه ينتظر مني أن أتَمَثَّل ما يقول ، أضاف دون إلحاح :

- وأنا أكره ما لا أحبّه منها ، من هذه الحياة العربيـة البليدة . وعسى ألاّ تكون أنتَ من هذا الجزء .

مَنْ أنا؟ أنا لا أحد ، قلتُ في نفسي . ولكن كيف يمكن لي أن أنقل إليـه هذا الخـواء البـشع؟ ورأيتُـه يَتـملّى الإلـتبـاس الكامن في اللوح ، لوح وجهي ، وهو يَتمَطّى مُتفاصحاً ، من جديد :

- أريد أن أعرف منكَ ما تعرفه أنتَ عن نفسك ، لا ما يعرفه الآخرون عنكَ . هوية الكائن الإدارية لا تهمُّني . ما أبحث عنه هو

هويته التاريخية . وآمل أن يكون لكَ حظ منها .

وبعد قليل من السكوت ، بادر إلى الكلام بهدوء آسر ، وكأنه يدعوني إلى «مأدبة نفسية» :

- أعرف أنني لا أتوجّه إليك بما يلزم من التَروّي والهدوء ، لكنني لا أحب أن أُقارب الأشخاص الذين سيعنون لي ، ذات يوم ، شيئاً ، مقاربة مُلْتَبسَة تحمل أكاذيبها وفشلها منذ البداية .

بدأتُ أغرق في صمتي : الهوية التاريخية ! ما هي هذه الأكذوبة الجديدة؟ كنتُ أتصور أنني تخلصت من هذه البلاهات منذ زمن طويل . ولما أحس بي مشغول البال ، تابع :

- لا تخفْ! أنا لا أبحث عنكَ بالتحديد . إنني أبحث عن الشيء الذي تبحث أنت عنه : عن مقصدكَ في الوجود وغايتك في الحياة . فالكائن الذي لا هَمّ له إلاّ فمه وفَرْجه ، لا يعني لي شيئاً .

وبعد صمت ثقيل ، أضاف بصوت أكثر خُفوتاً ، وكأنه يحكي لأحد لا أراه :

- ولو أن الحياة لا تأبه لمثل هذه الأراجيف .

وسَكَتَ ، من جديد . وظللتُ أنا ساكتاً . كنتُ مأخوذاً ، لا بلطف ما أسمع ، ولكن بروعة ما أرى . فبعد أن كان النهار متردداً في الحضور ذلك اليوم ، صار ، الآن ، يتسارع نحو مصيره الأزليّ . في المشهد كآبة واستكانة . وفي قلبي غَيْب وأساطير . كنت أريد أن أكفَّ عن الحديث إلى أن أجد السبيل الصحيح إلى الكلام . لكنه لم يعبأ كثيراً بتصّوراتي ، فقال بشكل مليء بالإغواء :

- أنا مشغول بأمر (لم يوضح لي ماهيته) والعالم مشغول بآخر . وكما ستفهم من ذلك ، ليس الحل سهلاً .

بقيتُ صامتاً . حاولتُ أن أجد موضوعاً للتحدّث . لكنني لم أعثر على شيء . في ظرف مثل هذا ، سيبدو الكلام ، أيّاً كان ، زائداً عن اللزوم . من قبل ، كنت أحسب أن أسهل الأمور التكلُّم . أما الآن فقد أصابني نوع من الخَرَس الذي لا أفهم له سبباً . لم أجد الفرصة ملائمة لكي أسأله عن . . . وقبل أن أُحدِّد ما سأقوله ، عاد إلى الحديث براحة بال :

– لا تهْتَم! لا ضرورة للتسرّع في الكلام . أنت لا تجهل ، كما أظن ، أن الصمت كلام آخر ، إنْ لم يكن هو الكلام الأساسي الذي ينقصنا .

وبعد ثوانٍ ، أضاف :

– لماذا يصمت الكائن إنْ لمْ يكن من أجل أمْرٍ خطير؟ أنت تحسب أن الصمت من خصال الكسالى ، وأنا أرى أنه شيء جليل . إنه موقف من العالم الذي نعيش فيه . موقف لا أدرك ، حتى الآن ، كل أبْعاده ، لكنني أخشاه . أخشى الصمت أكثر ممّا أخشى الكلام . تصوَّرْ!

كان المساء يقترب شفيفاً من وراء أشجار الحديقة العملاقة . ومع اقتراب المساء بدأتُ أتهيّأ للمسير إليه : إلى تمثالي الأثير . أول تمثال رأيته عند دخولي المدينة . كنت مشغوفاً بالنظرإليه : تمثال عازف الناي العاري الذي يفتتح حديقة اللوكسمبوغ . وكأنه يعرف ، من قبل ، هذا الهوس البصري الذي يقودني دائماً إليه ، إلى ذلك العازف اللامبالي ، والذي يبدو سعيداً ، تطلّع بهدوء نحو السمت الذي يملأ عينيَّ ، وتنَهَّد . كان يحسب ، ولا بد ، أنني وقعتُ ضحية عريه الصارخ . وكنتُ أبكي في قلبي كلما أراه دون أن أعرف السبب . لم أجد نفسي مضطراً للتصريح بمشاعري بالرغم من تأكيده :

- حتى الصمت يمكن أن يدلّ على ما يريده الكائن . فالكائن يعبِّر بأكثر من وسيلة عن مشاعره . ودون صدق لا معنى لأي جهد بين الكائنات . لا للتعبير الصاخب ، ولا للصمت الهائب .

اكتفيتُ بابتسامة خاطفة . فراغ هائل يملأ نفسي ، ولاأعرف كيف أعبّر عنه . لكأن اللسان مرتبط بالمكان ، والعاطفة كذلك . لساني الثرثار في دمشق ، صار ، اليوم ، مربوطاً بخيط من حرير . هنا غَدَوْتُ خالياً من المعنى . وهذه الحال هي أقسى درجات الغربة التي يمكن أن يواجهها المرء . ولكن كيف أشرح له الأمر وهو غاطس في تصّوراته؟ وفجأة قال ما لَمْ أكن أتوقّعه :

- أنا أفهم وضْعَكَ . أفهم أننا عندما نحرص على شيء ، علينا أن ندافع عنه بكل شيء ، حتى ولو بالصمت . لكنني لستُ هنا من أجل هذا .

ودون أن ينتظر مني تعليقاً على ماقال ، استدار ليصير ، هو الآخر ، في مواجهة عازف الناي العاري ، والذي لا يكف عن الرقص على قدم واحدة . درْتُ نصف دورة لأبتعد عن مشهد العازف ، لعله يفهم أنني لستُ مشدوداً إليه بالقوّة التي يتصوّر أنها تُكَبِّلُني . في مواجهتي ، بَدَتْ أشجار حديقة اللوكسمبورغ تتهادى في ذلك الغروب الذي بدأ يبتلع أطراف باريس . والأضواء الجميلة أخذتْ تتفتّح الواحدة بعد الأخرى ، وكأنها تستعد لمقاومة الليل . من موقعي الجديد ، صرتُ أُلاحق الحركة السرية لشفتيه المغمورتين بالحديث ، دون أن أسمع شيئاً . وكان ذلك موقفاً شبهَ - إراديّ ، تقريباً .

صرتُ أخشى الامتلاء الفارغ بعد أن فَرَّغْت حُمولي . الظُعون تمشي . أراها أمامي ، وأنا واقف في المكان . أبي الطويل ، الأسود

الفخذين ، يركض وراء الجمل الهائج . أمي تُقَلْقِل الوتد المغروس في القاع لتزحزحه . والوَتَدُ لا يريد أن ينقلع من الأرض . ثَمَّة رَبْط سرّي للشيء بمكانه . حتى الوتد يتشبّث بموضعه ، ولا يريد أن يَنْشَلع منه؟ ولكن ، لِمَ عَبَرَتْ فكري ، الآن ، تلك اللحظة الغارقة في القدم من طفولتي؟ وبدا لي أنني سمعتُه يقول بهدوء ، وكأنه يؤنِّبني على صمتي الذي طال :

– اللسان يصمتُ ، أما العقل فلا يكفُّ عن التكلُّم . أنتَ لا تخدعني .

ودون أن ينظر إليَّ ، أضاف ، وكأن الصوت ، وحده ، يكفي لنقل المشاعر :

– بين الصمت والكلمات ، تبدأ حياة الكائن ، وتنتهي .

-٢-

يحل المساء هادئاً على دمشق .

وفي الضوء الخافت لبداية الليل ، أراها تجيء . تجيء ماشية بنظام هَوَسيّ ، وكأنها ذاهبة إلى الموت . من بعيد ، رأيتُ حركاتها العُصابية وهي تأتي . وكاد التفكير ، مجرد التفكير ، في ضَمّها يجعلني أقع على القاعِ شَغَفاً . منذ متى لم ألمسْ جسداً؟ وهل سبق لي أن لَمَسْته ، أصلاً؟ لكن هذه المباحثات الذاتية لم تكن ذات أهمية ، في مواجهة الاعصار الجنسي الذي ينتظرني .

كنتُ لاطئاً انتظرها وقلبي يخفق بشدة . نهاية النهار في دمشق تجعل الحياة مقلقة وضحلة . ولقاء محتَمَل قد يحيلها إلى جحيم . قضيتُ أشهراً وأنا أتهيّأ لهذه اللحظة . أُرابِط لها وفي نفسي سَعير . أكاد أضمّ الحجر لمجرد اقترابها منه . تفلسَفْتُ كثيراً ، وتلاعَبْتُ بلغتي ومشاعري ، من أجل مؤانستها . زَيَّنْتُ لها روعة المتعة وضرورتها ، ولجأْتُ إلى مشاهد درامية مفتعلة ، وأنا أُحاول إقناعها بأهمية الحياة الجنسية لدى الكائنات السليمة العقل .

وفي كل مرة كانت تضحك ساخرة ، وهي تقول : لكن أهلي لا يرون الأمر على هذا النحو . وكنتُ أنفجر ، أنا الآخر ، ضاحكاً ، وأنا أكاد أشتمها . وأشتم أهلها ، وأهلي . لكنني ، في اللحظة

الأخيرة ، ألجأ إلى هَذَياني المعهود : سنَرى . ستَرين عندما يحدث ما نخطط له . إبصقي عليَّ إذا لم يكن الأمركذلك . وأُضيف محرِّضاً : المهم هو التجربة . وكانت تعيد عليَّ ، من جديد ، سؤالها المرتبك الضاحك ، نفسه : حتى ولو في الجحيم ؟

أقضي أياماً ولياليَ وأنا أُخطط لاصطياد لحظات عابرة منها . وهي لاتدرك حتى الجهد الخارق الذي أُعانيه . وعندما نلتقي ، بعد جهد كبير ، تكون الحكاية بالكاد قد بدأت . أبْنيها اليوم ، وتهدِّمها غداً . لكأنني منذور بطبيعتي ، بطبيعة الجنس والتقاليد ، لكَيْ أتصرّف معها بهذا الشكل . ولأُبَذِّر وقتي بلا حساب . لم تكن تعرف الإمتنان . ولا يهمّها الجُهْد الذي أصرفه من أجل أن نتلاقى . هي مطمئنة إلى وضعها وحياتها . وأنا أتَقَلَّب في جحيم متعدد الأبعاد : كَبْت جنسيّ ، وحرْمان عاطفيّ ، وبؤس .

جسدي يسخن ، ويبرد ، بين يديها وهي لا تدري . أو هي تدري ولا تريد أن تعترف ، أو تروق . هي مقفول عليها في قفص من وجود كتيم . وأنا أتَدَحْرج نحوها بلا أمل ، مثل كرة زِبْل طازج في بوادي الجزيرة .

مع ذلك ، كنتُ أرى خيوط الشَوْق تصبغ وجنتيها ، وهي تستمع مبهورة إلى مخططاتي الغامضة التي أبتكرها ، كلما الْتَقيْنا . ولكَيْ تطمئن إليّ ، وإلى المكان الذي سنجتمع فيه ، كنتُ ألجأ ، في كل مرة ، إلى ألاعيب كثيرة لأستميلها ، وأملأ مخيّلتها الجنسية الفارغة (أو التي أحسب أنها كذلك) بالإثارة . كنتُ أظُنُّ أن استجابتها قريبة ، وشَبَقيّتها هائلة ، وأنها لن تقاوِم طويلاً . لكنني لم أكن أدرك ، بعد : أن الظُنون فُنون . ولسذاجتي ، كنتُ أتصوَّر ، أنه لا بد لها ، في النهاية ، من الرضوخ لرغباتي . لرغباتها

هي ، أيضاً : رغباتها الكامنة في قلبها ، والتي أحسُّها تنبض تحت جلدها الأملس المثير . أو هذا ما كانت توحي لي به تلك القشعريرة التي أصير أراها تَسْري في دمها ، مرتسمة على شفَتَيْها ، كلما التقينا .

ولكن ، منذ متى وأنا أتهيَّأ لهذا اللقاء العاثر؟ وإلى أي أمَد سأظلُّ . . .؟ أصير أتَحَرَّق من قسوة الإنتظار . والآن ، أجدني أتساءل مرعوباً : مِنْ أين كانت تنبع عندي كل تلك القُدْرة على التَحَمُّل ، والصَبْر؟ وكيف ولدَتْ عندي فكرة «الإستواء الجنسي» الذي سيقودها إليَّ ، ذات يوم . حتى أنني صرتُ أعتقد ، فعلاً ، أن شَغَفها سيجعلها تَهُرُّ فوقي مثل تينة دمشقية ناضجة وما عليَّ آنذاك ، إلاّ . . . ولحماقتي ، أو ربما بسبب توتّري الجنسيّ الذي أعماني ، كنتُ أُهَدّيء إنفعالاتي ، وأُواسي نفسي ، واستعين على محنة الإنتظار الذي لا ينتهي بعبارات أرتجلها حسب الوقت والحاجة . والتي كانت ، اليومَ : «إهدأْ ، وستَرَى» !

بعد ذلك بزمن طويل ، حينما سأبتعد عن مواقعي الأولى كثيراً ، سأدرك أن الكائن لا ذنب له إنْ أخطأ ، مع أنه لن يصيب أبداً ، في مجتمع مثل هذا : كل شيء فيه محظور ، إنْ لمْ يكن محرَّماً .

وعندما سأتذوّق المتعة في أشكالها المختلفة ، سأستعيد تلك اللحظات الانسانية الساحرة ، بشغَف . سأفهم لِمَ يثور المكبوتون على عوامل كبتهم ، ويتدافع المحشورون نحو مخارج النجاة . وكيف يتفرّق الناس بعدما اجتمعوا ، ويَتَساءمون بعد أن تَعاشَقوا .

سأفهم أشياء كثيرة أخرى كنتُ أحدسها دون أن أدرك ، لا بنيتها ، ولا أسبابها . كان عقلي صغيراً ، وأحاسيسي كبيرة .

كنتُ ، ببساطة ، مثلِ ثعلب الصحراء : تعيساً ، ومستاء ، وماكِراً .

سأفهم ، أخيراً : أن على الكائن أن ينقذ نفسه ، لا أن ينتظر الآخرين لينقذوه .

-٣-

عندما جئتُ إلى الموعد الذي صار يتكرر منذ شهور ، كنتُ أحاول أن أُموضع نفسي في فراغ باريس الذي لا يُحتَمَل . فراغ كنتُ أحسه ، مع ذلك ، يملؤني ، وأعيش هانئاً فيه ، دون أن أدرك جوهر هذا التناقض الوجودي ، بعد . لم أكن أتوقّع أن تغيير الأمكنة يمكن أن يترافق بمثل هذه الاضطرابات العظمى . لكأن انتقالي من مكان إلى آخر غَيّرَ ، أو يكاد أن يغيّر ، مبادئي وأخلاقي . صرتُ أحس بسعادة بالغة لمجرد أنني أستطيع أن أذهب وأجيء دون حذر أو خوف . لكن ذلك لم يكن هو المغزى ، أو الهدف ، الذي من أجله رحلتُ . لماذا لا تبدو لي الأمور على حقيقتها ، إذن؟ أتساءل . ولا أجد للسؤال جواباً . وأعرف أنني لا زلتُ في بداية الطريق . وأصمت .

في دمشق كنتُ أحسّني مخنوقاً . كل ما يحيط بي يوحي بالإحباط والعبث . وربما كان ذلك لسبب لا زلتُ أجهله ، أو كنتُ أنا نفسي مسئولاً عنه . مَنْ يدري؟ وأنا إذْ أقول هذا ، الآن ، أعرف أنني أكذب . لكن ذلك لم يعد مهماً . واليوم ، أجدني أتساءل عن المعادل المقبول لوضعه في مواجهة هذه «الكلمة الحقيقية» : الكذب ، والتي ، منذ أن نقولها ، لا تعود تحمل معناها«الكاذب» .

وتحضرني ، على الفور ، كلمة ، أو فكرة : الحقيقة كبديل لها . لكن «رجل الحـديقـة» هو الذي نَبَّـهني إلى خطورة مـثل هذا التَـهَـوُّر اللفظي . إذْ قال بحدة :

- الحـقـيـقـة ! هي مـا لن نعرفـه ، أبداً ، ولـن نمتلكه . لأن مَنْ يمتلكها سيصبح ، على الفور ، طاغية .

هل فـهـمتُ مما قـال شـيـئـاً؟ وإذا لم أفـهـمـه أنا فـمـن هو الذي سـيكون قـادراً على فـهـمـه؟ كـانت الأسـئلة تتـوارد في رأسـي مـثل عصافير الجزيرة التي تتوارد على الماء في حرّ الظهيرة ، تاركة رؤوسها الصغيرة في متناول الصياد . وهو ما يعني أن الكائنات الصغرى ، مثل الكبرى تماماً ، محكومة بأمزجتها وشروط حياتها التي قد تكون مميتـة . أي اختـلاف حقيقي ، إذن ، بيني وبين عصفور بائس يَـرِدُ العَيْن ظامئاً ليموت؟

جئتُ أبحث عن الحرية ، والمعرفة ، والجنس . وهأنذا في فضاء محايد وبارد .لا أحد يهتم بي ، ولا أهتمّ بأحد . لكأنني انقطَعْتُ ، دفعة واحدة ، عن الحياة . هل سيتغَيَّر هذا ، كله؟ أحسُّ أن ذلك لن يدوم طويلاً . وأكاد أوقن أنه ليس إلاّ من «عقابيل» الرحيل الذي «مارَسْتُه» لأسباب محض ذاتية . الأسباب الموضوعية لا وجود لها ، كما يزعم «رجل الحديقة»؟ وخطر لي أن أعرض الأمر عليه ، من جديد ، إلا أنه في اللحظة ، نفسها ، قال ، قبل أن أكون مستعداً لسماعه :

- ماذا قلتَ؟ سألني بنوع من البراءة الكاذبة والإستخفاف .

- لم أقل شيئًا . أجَبْتُ بتصميم ، لأُبْعِدَ كل شُبْهَة عني .

لكنه لم يأبَه كثيراً بردّي شديد الإدِّعاء ، فأضاف بلا مبالاة :

- ظل صـامـتـاً إنْ شـئـتَ . إنْ كـان هذا يسـرُّكَ . لكن عليكَ أن

تدرك أن مشاكل الحياة لا يحلها الامتعاض ، ولا الحقد الذي لا هدف له إلا تعكير المزاج .

وبعد أن دَفَرَ التراب بقدمه الليِّنَة ، وهَزَّ جذع الشُجَيْرة البائسة التي كانت منزوية في طرف الحديقة ، تابع :

– ولا تَنْسَ أن الشيء الأساسي الذي قد يحرر الكائن من قيوده ، حتى الوهمية منها ، إنما هو الـ . . .

فجأة ، سكتَ . وراح يحدّق ، بشَغَف ، في الأغصان التي بدأت تتخلّى عن أوراقها . كان الخريف الباريزي يحتل الفضاء بأُبَّهته . وشعرتُ بتلذذ كبير وأنا أستنشق الريح المنطلقة من الظلال . ولأول مرة ، منذ رحيلي ، داهمَتْني الفكرة القديمة التي عذَّبتني ، كثيراً : فكرة أنني لن أموت إلا في الخريف . وملأَتْني رغبة كبيرة في أن أمشي . أن أمشي حافياً ، وزَليجاً ، كما في طفولتي . لكأن ملامسة التراب العاري متعة لا تعوّض .

أحسّ هو برغبتي الخفيّة ، هذه ، ولا بد ، لأنه مشى قبل أن أمشي . وبدا وكأنه ينتظر مني أن أفعل مثله . كدتُ أحرنُ في مكاني ، قبل أن ألحق به . وفعلاً حَرَنْتُ . كنتُ قد بدأت أقاوم الرَخاوة الذاتية التي جعلَتْ مني في القديم «لاحقاً» ، لا مَلْحوقاً . وسَرّني ذلك ، عميقاً . من قبل ، كنتُ أبرر لنفسي كل شيء بالظروف الصعبة التي أعيشها . لكنني ، الآن ، لم أعد في المكان نفسه ، ولا في الأوان . مَنْ يدفعنى لكي أرتكب حماقات جديدة ، إذن ، غير تخاذلي وخنوعي؟ وعلى الفور ، أخذَتْني رجفة ساحرة ، وأنا أتذَوَّق ذلك الإحساس الغامر بالوجود الذي داهَمَني ، فجأة ، وقد كان يبدو لي مستحيلاً ، قبل هُنَيْهات . أقصد أنني لم أكن حتى على علم بوجوده .

في ذلك العَصْر الممتليء بالضوء ، كنتُ أُحدِّق في الوجوه والأجساد التي تملأ فضاء الحديقة بحياد مَرَضيّ . أستقبلُ الأشياء والكائنات لا لشيء إلا لأنها توجد هنا ، أو تَمُرُّ الآن ، قدامي . إلاّ أنني ، حتى وأنا أفعل ذلك بمثل تلك الحيادية البغيضة ، بدأْتُ أحس بنوع من التعَلُّق الخفيّ بالمكان وما يحويه . ولم يمر ، ذلك ، كله ، دون أن يخلِّف أثراً ما في نفسي . وهو ما بدأتُ أخشاه . رحلتُ لكي أخلص من الإرتباط بالأمكنة والكائنات ، أوهذا ماظننتُه . وهأنذا بدأْتُ أحْبَلُ ، من جديد ، بمثل تلك المشاعر التي هربتُ منها . لكأن الهرب من الشيء هو ، في الحقيقة ، هربٌ إليه . ولا يكفي أن نفكِّر بأننا ابتعدنا عنه ، قبل أن نتأكَّد من أنه لم يعد موجوداً فينا . ما هَمَّ!

صرتُ أخشى تراكم العواطف مثلما أخشى تراكم العاهات . وكدت أكتشف عبث الهرب من التاريخ . من تاريخنا الشخصيّ الذي لا نحبه . وفي هذه الحال ، من الأفضل لنا أن نتحدّاه ، أو أن نتجاوزه إلى غيره ، أو أن . . . ومهما يكن الأمر ، من المحتمل أنني سأقيء عواطفي ، هذه ، مرة أخرى . أو أنني سأقبل نفسي على عواهنها . من المحتمل ؟ بلى! مع أن علم الإحتمال لا يُخطيء دائماً ، وإنْ كان دائماً لا يصيب ، كما يقول «رجل الحديقة» .

هل فهمتُ شيئاً؟ لا! بالتأكيد . وهو ما يزيد الوضع اضطراباً . أحسَّ بارتباكي ، فأضاف : في وضع ما ، وفي لحظة محددة ، كل شيء محتمَل ، وممكن الحدوث . لكن ما يحدث هو وحده الذي يصبح ممكناً (حتى لا أقول حقيقيّاً) . إذْ لم يعد من المحتمَل أن يحتلّ مكانه أمر آخر . وعندئذ ، إما أن نقبله كما هو ، أو أن نحاول التخلُّص منه ، من جديد ، قال «رجل الحديق» ، قبل أن يضيف :

وهو ما يضعنا ، مرة أخرى ، أمام احتمالات لا نهائية في الحياة .

لامجال لتأنيب الذات ، إذن ، ولا لتأثيمها . قلتُ لنفسي بتَحَدّ عميق لأُنْهي عذابي ، وقد أدْرَكْتُ ، فجأة ، أن الدائرة المغلقة ، ليست مغلقة تماماً .

***

تحت إلحاح نظراته الشَزِرَة بدأتُ أمشي ، بعد أن طال وقوفي . أمشي هائباً ، وكأنني أخطو الخطوة الأولى نحو المصير . لحقتُ به صامتاً ، وأنا أنظر التراب . أعرف أنه يريد أن يدفعني إلى الحديث . لكن الرغبة في الصمت عندي كانت أقوى من أي شيء آخر . كنتُ ، في الحقيقة ، خائفاً . لا أعرف إلى أين يأخذني الكلام . وأمام «إغراء الحديث» الذي أحسَسْتُه يدْبي كالنمل تحت لسانه ، لم يصمد طويلاً ، فصار يداعب الارض بقدميه ، وهو يحكي :

- لم نلتقِ من قبل ، قبل أن نلتقي منذ أشهر ، وليس ذلك ذريعة لئلا يكسب أحدنا صداقة الآخر . أنت تعرف أن الكائن الذي يقرر الرحيل هو كائن هَشٌّ ، ومقاومته العاطفية في أدنى درجاتها . لكن العظة التي يكتسبها من الرحيل تكمن في تهيّئه لقبول الآخر والتفاهم معه حتى حول أصعب الأمور وأكثرها قسوة . إنه بشكل ما مضطر للامتزاج مع العالم الذي قصده للتعرّف عليه .

رأى في عينيَّ موافقة صريحة على ما قال ، فأراحه ذلك ، وآكَمَني . وبلا اهتمام بما كان يعتمل في نفسي ، صار يَتَمَعَّن في التراب ، وهو يتابع مشيته الهادئة ، وكأنه يقرأ أسرار الوجود في ذراته . أو لكأنه يطلب من القاع أن تمدّه بأفكار كثيرة ، تجعله

يتحدّث حتى الفجر . لماذا الفجر؟ لا أعرف . لكنه كثيراً ما حكى لي عن الفجر بمستوياته المختلفة . من فجر الإنسانية ، إلى فجر الثورة المقبلة ، أو التي يراها تأتي مسرعة ، لا محال . إلى فجر الحياة الخاصة بالكائن ، ويقصد بها أولى علاقاته الحسية . إلى . . .

كنتُ أحسّه يلعب مع الألم الذي يكبّل نفسي الواهية . لكنه حرَّك هواجسي ، وأثار متعة الاستماع العميقة عندي ، عندما قال :

– لم يُعَلِّمْنا المجتمع العربيّ الذي نشأنا فيه إلا الملل والاكتئاب . ولم يمدنا بما يجب لنقاوم به الشؤم المنتشر كالفطر في أرجائه . والكائن الذي يعي ذلك لاعذر له ، منذ أن يعيه ، إنْ خضع له ، من جديد . لا عذر له ، أكرر ، إنْ لم يخرج على القاعدة المخيفة ، قاعدة العبودية المسْتَتِرة : أطع الله والوالدين وأولي الأمر . وبخاصة عندما يوحي الوضع بعكس ذلك ، ويقتضيه .

قال هذا ، وصمتَ . أما أنا فقد كنتُ أمشي وعيوني تلاحق البشر والاشياء . لكأنه لا يحكي لي ، وإنما لكائن هلامي لا يُرى . وفجأة ، صرتُ أحسني خفيفاً مثل غَبْرة تحملها الريح . لم يكن ذلك بسبب ما سمعته منه ، وإنما لعبور فتاة مثيرة ، مرت بنا بلا اكتراث . هذه هي المرأة التي يتحدثون عنها ، إذن ؟ سألتُ نفسي . ولكن مَنْ هم هؤلاء المتحدثون الكَذَبة ؟ قطعتُ التساؤل على الفور .

وكأنه استاء من حيادي الظاهري الذي بدا له غريباً ، بدأ يتهيّأ للحديث ، مرة أخرى . لكأنه يريد أن يعاقبني على عدم استجابتي المتحمِّسة له ، وبالشكل الذي يراه كافياً . يتهَيَّأ له؟ بادَرَهُ ، بالأحرى ، بثقة أدهشتْني ، مستعيداً ، من جديد ، أطروحة الرحيل . متمتِّعاً ، كما بدا لي ، بـ «فتنة التحدُّث» ، وبخاصة عندما ينطلق الكلام ممَّنْ هو أعلى إلى مَنْ هو أدنى . عندما يَبُثّه «

المتحَدِّثُ الذي لا يُبارى» . الذي هو . وكان هو يعتقد بذلك لأنه ، فقط ، لا زال ، كما خطر لي ، ينطلق من نقطة ثابتة ، يحسب أن مستمعه لم يفكِّر بها ، من قبل . أو كأن الزمن مُلْك يَديْه . ولكن ما هي الضمانة لمثل هذه الإفتراضات؟ ألَم يسألْ نفسه؟ قال :

ـ مع أن الرحيل إثراء للكائن ، فإن الراحل الذي يتشبّث بوعيه القديم ، قد يخسر كل مزية يمكن أن يكسبها من رحيله . قد يخسر حتى «الولادة من جديد» ، تلك الولادة المتأمَّلَة ، والمحتملَة بجد ، والتي قد تصير سَقْطة كُبْرى ، إنْ هو لم يعرف كيف يَسْتَوْلِدها من المجهول .

وبعد أن استعاد نَفَسَه الذي تَسارَعَ قليلاً ، أضاف ، وهو يحدِّق في عَيْنَيَّ الباهتَتَيْن :

- وكل ما يستطيع أن يكسبه كائن مثلكَ من رحيله ، في هذه الحال ، هو أن يؤخِّر موته الذي كان مقرراً لو بقي في مكانه . وليس ذلك بالقليل .

بدأت أشعر بنوع غامض من اللوعة . يريد أن يفتح رأسي ! تساءلت بغضب داخليّ مقيت . وكان الأجدر بي أن أكون سعيداً . أعرف أنني فعلتُ ما فعلتُه بإرادة واضحة ، وبتصميم مُفرط . لكنني لم أكن على بينة من خطورته ، بعد . والآن ، أي جدوى من التشبّث بفكرتي الأولى عن وضع غارق في مأساويته . مأساوية صارتْ تبدو لي ، بتأثيره ، مزيَّفة وخطيرة .

الإضطراب الذي ملأ نفسي ، في تلك اللحظات ، جعلني أغض الطَرْفَ مؤقتاً عن كل شيء ، وقد تبيّن لي أن الحياة ليست مُلْك يدي . والمشاعر التي تتولّد باستمرار في داخلي لا تخضع لي حصْراً . أنا أحد عواملها التي لا تكفُّ عن التفاعل والإختلاط .

ومن جديد ، باغَتَني ، بسؤاله الشيطاني الذي لم أكن أنتظره :
- ماذا . . .؟ سألني وبه نوع من الاستياء اللامفهوم .
- ما قلتُ شيئاً . كنتُ صامتاً ، كما ترى .
- الكائن الذي لا يتكلّم مع الآخرين ، يكلّم نفسه .
لم أرُد . لكنه لم ينهزم أمام إصراري المصطنع على الصمت ، فقال بهدوء :
- الصداقة كالحب لا تستَدْعي إغلاق نوافذ النفس أمام الآخر ، وإنما فتحها على اتساعها ليدخل منها ، ويخرج ، متى يشاء . وأنتَ تفعل العكس! تقفل أبواب الحياة على ذاتك الصغيرة محاولاً أن تجعل منها قلعة حصينة ، وهي لاتَصْمد أمام نَطْحَة تَيْس؟
وبعد أن ابتعد قليلاً عني ، عاد إلى ضفَّتي ، وهو يتَحَذَّر الكلام . لكأن في نفسه ما لا أعرف كيف أصفه . لكأنه يريد أن يقول كلمات أُخرى ، ولكنه لم يكن يتجرّأ على . . . وفجأة ، أوقفني في مكاني ، وهو يقول :
- مَنْ لا يتكلَّمْ ، لا يَتَحرَّرْ .
لم أقل شيئاً . لم أكن مضطراً للكلام . امتلأتْ عيناي بابتسامة غامضة ، فقط . كنتُ حُرّاً في أن أتجاهل الأسئلة ، حتى ولو جاءت منه . مضى الزمن الذي كنت أجدني فيه مَقْسوراً على اختراع الأجوبة حتى عندما يتعلّق الامر بفعل فسيولوجي ، كعملية التغوّط ، مثلاً .
ولأُخْفِيَ دموعي عنه ، اكتفيتُ بأن تركت لعيوني حرية متابعة الضوء الهارب أمام سُجُف الظلام

-٤-

خاتلاً في عتمة المساء الدمشقيّ، أُفكِّر فيما آل إليه «وضعنا الجنسي» الذي لم نَذُقْه بعد، والذي نتحمّل، مع ذلك، الكثير من عواقبه وأوخامه. تأخذني الأفكار بعيداً، وتعيدني إلى حيث أنا الآن. تسحبني حتى حدود الوهم المطلق، وترْميني على رقعة الأرض اليابسة التي كنتُ أقف عليها. أقف مستنداً إلى أحد الأبواب العريقة. منتظراً أن يتعمّق الظلام، وأن ترتخي تشنّجات الإنتظار البغيضة التي تُخَرِّب كل شيء. لا أتعب من الإنتظار. ولا أجد ذلك غريباً. وأجده كذلك، في الوقت نفسه. لا أستقرُّ على رأي.

أُتَمْتِم: الحياة لا حدود لمستوياتها، ورزاياها. وأضيف متأفِّفاً: ولكن أنّى لي أن أعرف الحقيقة؟ حقيقة أنها في طريقها إليَّ، الآن، أو أنها غافلة عن وجودي، تماماً. إذْ لم يكن في نفسي حقيقة أخرى تستحقّ اهتمامي. ويتَعَثّر لساني بها وأنا أُردد: ستجيء! أعرف أنها ستجيء. وأُلتصقُ بالجدار الشاحب، وأنتظر. أَتناوَقُ. يتهيّأ لي أنها لا زالت مصممة على المجيء. وأن زَوْلها سوف يَطْفو، تَوّاً، على سطح الظلام. وإنْ لَمْ تصل إلى الآن، فلأن الفضاء المعتم يكبِّلها بخيوط من حريرِ سُدامِه.

بلى! ها هي ذي تقترب فعلاً . لكنها تقترب وهي واقفة فوق أرض راكدة . واقفة في فضاء بلا ريح . ساكنة مثل جمرة بلّوط أخفاها الرماد . لماذا لا تصل ، والمساء بدأ يعمّ الكون؟ حتى روحي غدت سوداء . من أين لها بهذه الطاقة الهائلة على الصَبْر؟ على ألاّ تصل عندما يتوجّب عليها أن تكون هنا؟

يومها ، صمَّمْتُ ألاّ أقول لها شيئاً عن الخطة التي أعَدْتُ تفاصيلها في رأسي عشرات المرات . خطة تعتمد بكليتها على الصُدَف : أن تجيء كما اتفقنا ، وهو الركن الأساسي في تلك الخطة . ألاّ تغيّر رأيها عندما تصل إليَّ فتتجاهلني وكأنني كائن غريب . ألاّ يخرج أحد من البناء أو يدخل أحد إليه . ألاّ يمر في الشارع أحد ، ولا في الفضاء القريب . أن أظل محتفظاً بتوتري وشجاعتي . أن تغيب الشمس ، مثلما هو متوقع ، عندما تكون بمحاذاتي ، أو قبل ذلك بقليل . وأخيراً ، على ألاّ تغيّر الشمس رأيها فلا تغيب ، وهو أول الشروط لئلاّ تحدث الكارثة .

أمور كثيرة ، أخرى ، كان انتظامها ضرورياً ليتم ذلك الأمر الصغير : أنا بين يديها . أي عبث أكبر من هذا؟ وفي النهاية ، إنْ كان تحقيق ذلك يقتضي كل هذه المصادفات ، ويتطَلّب تخطي كل تلك العوائق ، ألا يُنْبِيء ذلك كله عن سُخْف الحياة؟ سُخْف حياتنا العربية الذي لا يُخَفِّف من شدَّته إلا قُدْرة الكائن على التجاوز والانتظار . والأدْهى من ذلك ، أنني انتظرتُها ، أكثر من مرة ، ولم تأتِ . ولم أجد في ذلك غضاضة أو احتقاراً . كنتُ أعرف أن الجائع لا يشبع من الانتظار ، لكنه بغير الانتظار لن يحصل على شيء . وبحكم خبرة الجوع عندي أعرف أن الخبز لن يجيء إليَّ إلاّ إذا خَطَفْتُه من مخلب مَنْ يملكه . ما عليَّ ، هذه المرة ، أيضاً ، إلا الخُتول

ريثما تصل البتول .

وأصير أخاطب نفسي صامتاً ، ومُسْتثاراً : أُنظُرْ! وأمُدُّ النظر بعيداً عبر الظلام الذي بدأ يرشُّ الكون برذاذه المعتم . أبحث بين آلاف الأزوال عن زَوْل له هيئتها . وعن مِشْيَة تشبه مِشْيتها . كنتُ أميّز من بعيد ، وبقدر ما تسمح به العيون الصحراوية ، اهتزاز اردافها الممتلئة مثل شمائل القطن في الجزيرة . وأصير أتحسس الفراغ ، وكأن بين يدي ما أريد أن أتحسسه . وأشعرُ بالضغينة تصعد إلى قلبي لأنها تأخرت دقائق . وستتأخر أكثر ، وسأنتظر أكثرين .

فيما بعد ، بعد أعوام طويلة من انتظاري ، هذا ، لا صقاً بالجدار ، مُتَأمِّلاً مجيئها الذي لن يحصل ذلك اليوم ، سأكتشف أن الكائن المحروم ، مثلي ، محشوّ بالزيف والخداع . وهو لا يستطيع أن يمارس هذه الاحتيالات الكريهة إلا مع نفسه . لأن الآخرين لا يهمهم من أمره شيئاً . لكن طاقة الحياة التي تملأ أحشاءنا هي التي تجعلنا نتوق إلى تحقيق ما لا نستطيع تحقيقه ، حتى ولو بذلْنا عمرنا كله في سبيله . وأي ضير في ذلك؟

وعندما سألتقي به ، سيشرح لي «رجل الحديقة» الأريب ، ناقداً ذلك التاريخ الخائب والخالي من كل إبداع ، قائلاً : أنا واثق من أنك لم تكن تعرف شيئاً ، لا عن نفسك ، ولا عن المرأة ـ الحلم ، ولا عن الآخرين . فالمعرفة ليست شيئاً فطريّاً . بل لها علاقة حميمة بما عشناه ، وبما نعيشه . إنها فعل إجتماعي شديد التداخل والتعقيد . وبعد أن استدار حول محور جسمه الهزيل المتوتِّر ، أضاف بنوع من الإشمئزاز : مجتمعنا العربي المُحْبط والمنطوي على نفسه ، هو الذي يجعلنا نحيا كحيوانات متروكة لمصيرها المُحزن ، في فضاء لا أهمية فعلية فيه لوجودنا . كل ما هو مطلوب منا أن نستمر في

خضوعنا له ، وأن نعمّق كل يوم هذا الخضوع . أكاد أنفجر .

ويتابع بنوع من التَعالُم والشماتة : وهو ما كان وراء جهلك المخيف : جهل الكائن لا بما يحيط به ، فحسب ، ولكن حتى بطاقته هو على الإستيلاء والتمرّد . وبعد لحظات من الإنتظار اللامفهوم بالنسبة إليّ ، قال بنوع من التَعْنيف المسْتَتِر : وأكاد أكون متأكِّداً من أنك لم تكن تدرك ، يومها ، أن الطاقة الجنسية أقوى من الجهل ، ومن المعرفة ، أيضاً ! وبعد فترة من التردد ، والتفكير ، قال : تلك الطاقة ، هي التي كانت تقود خُطاكما العمياء نحو بُؤر الظُلْمة والدَماس . إنها ، أقصد الطاقة الجنسية ، تتفتّح في البُهْمَة ، وتنتشي . فالحياء ، حتى في شكله الكاذب ، يخنق الرغبة ، ويشلُّها . أو يَفُشُّها بالأحرى ، تماماً ، كما تفعل إبْرَة عندما تُفْقيء الفُقاعات فوق سطح الماء . هل تذكر طفولتك ؟

ولكن من أي شيء تستحي الرغبة؟ أسأله . ويُتابع ببراءة خبيثة وضاحكة : الرغبة لا تستحي ، لكنها تخاف . ويُداعبني ، ولكن بلؤم : وأفهم من هذا ، أنك لم تجرّب الكثير منها . ويصمت . وأصمت . هل كنتُ أتكلَّم؟ لا! كنتُ أغرق ، منذ أن التقينا في بحر أهوائي الممتليء بالألغاز . أهواء الولد الذي لم يغتسل منذ سنين . وعلى غير انتظار مني ، يستمر في حديثه ، وكأنه مدفوع إليه بقوة خفية لا سبيل إلى مقاومتها : الذكاء الحيواني الكامن في الفعل الجنسي هو الذي كان يدفع بكما نحو المصير المُبْهج ، أو الذي تَراءى لَكَما كذلك ، في ذلك المساء المُفْعَم بالسعادة والعذاب . وما أن يضع نفسه حاجزاً بيني وبين العازف العاري ، حتى يضيف شارحاً ، متَلَمِّظاً ، وكأنه شاركني جسدها الشيطانيّ : ولكنك كنتَ تجهل ذلك . كنتَ تحسب ، ولا بد ، أنها وقعَتْ ضحية جمالكَ .

وقد يكون ذلك صحيحاً . والأغلب ألاّ يكون . لكن الرغبة عمياء . ولا تتوقف كثيراً أمام سحنة الآخر . وإنما تتغلغل على الفور في قلبه . أقصد في قلب جسده الذي يصير يفور .

ولكي يبرهن لي على صحة ما يَدَّعيه ، أستمر يحكي بنوع من التَعالي والتقرير : وكما يقول مارسيل بروست : للقبح ، أحياناً ، مسحة أرستقراطية . وهَزَّني من كتفي ، وهو يفتعل مواساتي : لا تزْعَلْ! حتى القبيح يمكن أن يبدو جميلاً . ورأيته ، في ذلك المساء ، يستدير ليصير في عيني وشفتيَّ ، وهو يهمس لي : لا تَظُنَّن أن هذا هو شأنكَ . قال ذلك وهو يداعب ذقني . وأضاف : لا تأسَفْ! فأنت لم تكن تعرف شيئاً .

لم أكن أعرف؟ بلى! لم أكن . كنتُ مغموراً بالشهوة ، أقول في قلبي . ودون أن يسمع ما أقول ، أحسُّ به يُلاحق عينيَّ ، باحثاً في أعماقهما عن كلام كثير يكمن فيهما . لكأنه كان متأكداً منه . من كلامي المخبّأ في أعماق روحي . لكأنه يقرأ ما تكتبه نفسي ، على وجهي . وأكاد أرتبك . ما كنتُ أحسب أن الكائن مكشوف إلى هذا الحد . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فلا بد أنني في دمشق كنتُ كذلك ، أيضاً . كنتُ مقروءاً من كل الذين مروا بي ومررتُ بهم ، مثل جملة قصيرة مخطوطة على لوح أسود . اللعنة!

-٥-

أحَسَّ أنني أُريد أن أسحبه ، هذا اليوم ، أيضاً ، نحو التمثال الصغير الذي يفتتح اللوكسمبورغ ، فَتَمانَعَ قليلاً قبل أن يسير ببطء شديد . من جهتي ، لم يكن الموضوع نَهَماً ، ولا محاولة لادراك الحسية التي تنبثق من أعضائه العارية . كان شيئاً آخر . وأهمية الشيء الآخر تكمن في أن يبقى كذلك . في أن يظل شيئاً آخر ، إلى أن نخترع ، أو نعثرعلى ، نقيضه . لأن الشَبيهَ مقيت . ولكن كيف أشرح له ذلك؟ وهل كان مستعداً لسماع شرح صغير مني؟

المساء الذي حَلَّ ، منذ قليل ، أثارَ في نفسي نوعاً من التعاطف مع الوجود . مع مَنْ كنتُ ، وأين كنتُ . جعلني أتمنّى لَوْ عدتُ أدراجي إلى المَرابع التي هجَرْتُها مثل أفعى مطرودة من غارها . بفَقْدها ، بفقْد تلك الأمكنة ، أصبَحْتُ أحس أن الحياة غدَتْ عارية ، مثل فتاة مغتصبة في بَرِّيَّة «الجزيرة» التي لا تَرْحَم . وأصيرُ أتَلَفَّتُ حولي ، ولا أرى أياً منها : أمكنة طفولتي الحبيبة التي صارتْ غُباراً . غبار عليَّ أن أشكِّله ، من جديد ، ليصير أمكنة . والآن ، ماذا يمكنني أن أفعل ، غير أن أتابع المشي صامتاً ، ونَفوراً ، مثل شُجَيْرة غُرِسَتْ في غير مكانها؟

الاحساس ، مجرد الاحساس ، بشعور مثل هذا ، يجعلني

استعدُّ بكل قوتي وانتباهي لاتِّقاء شَرٍّ مُحْتَمَل . خرجتُ من الخوف إلى الخوف ، إذن؟ لكنني لن أقول له شيئاً عما يعتمل في نفسي . لقد صرْتُ ، على غير انتظار مني ، استعمل ذلك الاحساس المفرط بالفجيعة ، فجيعة انتقام الأمكنة من هاجريها ، كتميمة تحميني من الانسجام السهل مع الآخرين ، ومن الذوبان في الأمكنة الجديدة التي أطؤها بقدميّ ، وقلبي دام .

عندما الْتَفَتَ إليَّ ، كدتُ أصمُّ أُذني عن السَمْع . لكنه لم يأبه بتقلُبات مزاجي . لكأنه يعرف مسبقاً ردّ فعلي ، وهو لا يريد إلاّ أن يخلّصني منه . قال :

– لا تشغل نفسكَ كثيراً بما مضى . الحياة التي لا نحبها لا تستحق إلا الإهمال . وسريعاً تغدو مقرفة . لكن هذا لا يعني أن تلغي «تاريخكَ القديم» ، ولا أن تستبدله بآخر ، فذلك غير ممكن .

وكأن خاتمة كلامه تَمَّتْ صياغتُها ، أو كأنه قال كل ما يريد أن يقوله ، ولا يحب أن يزيد ، سَكَتَ طويلاً ، هذه المرة ، حتى أنني خشيتُ ألاّ يعود إلى الكلام . أما أنا فقد كنت أسبح في نهر آخر ، بعيداً عنه . نهر يشبه الخابور ، ولا يشبهه . أُقْعي فوق كوم من التراب الرملي الملتهب من شدة الحَرّ . وألبس من الخرق ما لا أحب . الجو جحيم . الجزيرة تهتزّ تحت سياط الشمس التي لا ترحم . وأنا أموت من الظمأ ، ولا أستطيع إلى الشِرْب سبيلاً . أشياء أخرى كثيرة ، كانت تَتَزاحَمُ في رأسي ، ولا استطيع لها تمييزاً . بسبب تشتُّتي العميق ، هذا ، لم ألتقط مما قال إلاّ كلمة واحدة اقتنصها عقلي الذاهل بمخالبه اللامرئية : مقرفة ! مقرفة فقط ؟ كدتُ أقول له . إلا أنني ضحكتُ بهدوء وإنا أُعابث التراب . أُعابثه بغبطة مفاجئة . نَدَى أول الليل الباريسيّ الذي ذكّرنى بندى

الصبح في الحَماد ، ملأ نفسي بهجة وتحفُّزاً . جعلني أستعيد نوعاً من التركيز ، واستحْضِرُ بعض حديثه .

وكأن كلماته القليلة كانت كتاباً بحجم الكون ، وجدتُ نفسي غارقاً في البحث عما لم أتمكّن من استيعابه منها ، عندما قيلَتْ . لكن ذلك كان اسمه العبث . لأن الكلمات تطير فوقنا منذ أن نهملها ، أوعندما لا تهمنا معانيها حينما تُقال . والحكاية ، كلها ، حكاية عبث الوجود ، تكمن في الإنهماك المستميت ، والبحث اللامجدي عن كلمات قد لا نسمعها من جديد ، أبداً . وإذا ما حدث وسمعناها قد لاتعود تعني لنا ما كانت تعنيه حين قيلَتْ . ماهَمّ! عليَّ أن أُحاول . وأصير ، بالفعل ، ألاحق ألفاظ كلماته ومعانيها ، بإصرار . بإصرار العاطل الذي وجد ، فجأة ، أمراً يشغله . وعندما أُلَمْلِمُ منها ما يكفيني ، سأجدها خالية من كل قيمة ، أو تكاد . وستبدو لي بديهية ، وحتى قليلة الشأن .

لا بد أنه أُخِذَ بالحسرة العميقة التي انبجست بالرغم مني مخترقة صدري الذي غدا واهياً ، إذْ رأيته يستدير نحوي برَهْبة وكأنه يريد أن يتأكّد من وجودي بالقرب منه . من مجرد وجودي . خفْتُ أن يبدأ الكلام الذي صار يقلقني ، دون أن أعرف سبب ذلك . وهو ما جعلني أنزع إلى التهُّرب منه ، والإبتعاد عنه ، دون أن أجد تفسيراً ملائماً لنزوعي المفاجيء ، هذا . لكنني اكتشَفْتُ أن ذلك يقتضي الكثير من التوَهّج والإقدام ، فاستَكَنْتُ . إلاّ أنه استعاد عينيه من وجهي ، وانكَبَّ يلقط حُبَيْبات التراب .

في مساء الحديقة الرطب ، ذاك ، ظلَلْتُ أُتابع ، صامتًا ، استعاداتي السرية لنواميس حياتي . الماضي الذي اعتقدتُ أنني لن أراه ، يحضر بارداً وكئيباً . لكأنه يخجل من أنه كان ذات يوم على

تلك الشاكلة . والحياة القديمة التي خلَّفْتها تبدو حقيقية إلى حد كبير ، مع أنها صارتْ بعيدة . وأُدركُ : أن الكائن لا يفقد ، أبداً ، ما عاشه ، حتى وإن نَسِيَه ! وكأنه أحسَّ بهذه الاضطرابات عندي ، رأيته يدور حولي ، ومثلي ، يسْتَدير نحو التمثال العاري ، ويتأمله بنوع من الاعجاب والرضى . وعندما رآني مأخوذاً به ، ابتسم بهدوء ، وكأن التفكير في متابعة الكلام صار يقلقه ، هو أيضاً . أما أنا فقد كنتُ مستعداً لسِماع كل ما يُقال على أن أُترَكَ واقفاً في المكان ، متأمّلاً عازفي الجميل . هكذا ، هَيّأْتُ نفسي لتلقّي كلماته التي كنتُ واثقاًمن أنها سوف تأتي . وبالفعل ، حَلَّتْ عليَّ ، بعد قليل ، عندما قال متسائلاً بَمكْر ، وكأنه يريد أن يَلِجَ عقلي ، ويشمّ رائحة دمي الذي كان يغلي :

– على أي أساس اتخذتَ قراركَ بالرحيل؟ أنا لم أفهم منكَ شيئاً ، حتى الآن .

وسَكَتَ . لم يشرح ما كان يريد أن يسأل عنه . لكأن الكلام يَبِس في حلقه . أما أنا ، فلم تكن لديَّ أية رغبة للحديث . كان الوضع لا زال رطباً ، ولم أكن بحاجة إلى التفاني من أجل شرحه .

أسعدني عدم تعَرُّضه للتمثال . كنتُ أخشى أن يبدأ بتشريح الحجر . وكم الأحجار مملوءة بالأفكار ! خفْتُ أن أكره ، بسبب تحليله المغرض ، أو الذي أحسه أحياناً كذلك ، تمثالي الساحر بعد أن يُفَتِّته التحليل إلى جُزيئات ، حتى ولو فنية . كنتُ لا زلتُ أجد راحتي في الغموض ، ويسعدني العذاب كثيراً . العذاب الذي يقرّبني من حياتي الأولى . لكنه لا يريد أن يرى هذا . فلْيَصْمُت إن شاء . أو فليتكَلَّمْ!

***

غمام أول الليل الخفيف الذي خَيّم على فضاء اللوكسمبورغ، ذلك المساء، أنقذ روحي من عذاب عنيد: عذاب البحث عن جدوى محتَمَلَة لما قمت به. وما سمعته منه، حتى الآن، لم يفتح كُوّة في عقلي تساعدني على السَيْر نحو «الحقيقة». كدتُ أفرُّ هارباً من هذا المصير المحشوّ باليأس والبلادة. مصير الكائن الذي لا يعاني بؤس الحياة، فقط، وإنما بؤس الإدراك، أيضاً. صرتُ أحس أن وجودي ملتبس وغريب، بعد أن ضَيَّعْتُ استقامة حياتي القديمة، تلك التي كانت تتجه بتصميم صوب الأرض: أرض الحَمَاد التي نَبَشْتُها بمرح في طفولتي، دون أن أحوز أخرى غيرها، حتى الآن.

وتَهَيّأ لي أن الإصرار اللا مُجْدي على «التَفسير» عنده، والذي يبدو لي أكثر عبثية من كل شيء، حتى وإنْ كان يمكن له أن يساعدني على بلوغ أغراضي وغاياتي، كما يزعم، هو الذي سيبعدني، ذات يوم، عنه وعن الحديقة. الحديقة التي بدأتْ تستعد لتلقّي غوايات الليل وهمساته. الكثير من الناس غادرها، أو أخذ يتَهيَّأ لمغادرتها. وبقي في حوافها الخبيئة آخرون يتغازلون، يتعانقون. ثمة، أيضاً، مَنْ يرشفون كأس العزلة المريرة، في وحدتهم القاسية. ومَنْ يتمتّعون بوحْدتهم، هذه، وكأنها نعمة الرب التي لا تُرفَض. أين موقعي؟

أحسستُ أنني مثل فَطيم أضاع أمه، ولمْ يبقَ له إلاَّ الإنكفاء. حتى أنني كدتُ أصرخ في وجهه: أين أهلي؟ لكنه قال قبل أن يصل الصوتُ إلى شفاهي:

– لماذا تعذّب نفسكَ؟ لماذا تتعذّب؟ أرى لوعتَكَ على وجهكَ. هل تظنني أحمق؟

وقبل أن أقول شيئاً، وهل كان ينتظر مني أن أقول؟ تابع:

- لا يعـذِّب الكائن نفسـه بلا رحـمـة ، مـثلك ، إلا لسـبب وجيه . أو هذا ما أظنه . وبعد أن سكت قليلاً ، وكأنه يحاول تهدئة أفكاره ، أضاف :

- لكنني ، حتى الآن ، لم أتوصَّل إلى الإحاطة بأسبابك .

وبعد فترة من الترقُّب ، قال ، وكأن الأمر لم يعد يعنيه :

- لا بأس! الحياة لا تحتمل الغموض طويلاً .

-٦-

كدتُ أسأله عن ماهية الغُموض الذي يتكلم عنه . وكيف يمكن لنا أن نستبدله بغُموض أكثر ، لأن الوضوح هو العدم . إنه السكون الكامل وقد ألقينا عليه ضوء بلادتنا التي لا تتغيَّر . أنا أعرف ذلك بالتجريب لا بالتنظير . هي التي جعلتني أرى الأمر على هذه الشاكلة . هي! هل تعرفونها؟ ذلك اليوم انتظَرْتُها ، أيضاً . انتظرتها بقوة ، ورغبتي تتَوَهَّج في أعماقي ، حتى أنني كدتُ أراها تجيء . تجيء ماشية بأبهة كملكة . تَدْري أنني سأنتظرها إلى آخر الليل ولم تجيء . يومها ، لم أكن أعرف أن «للمجيء» أنظمة وأنساقاً ، ولم أُدْرِك من أبعاد الحياة المحشوّة بالحِيَل والزيف ، شيئاً . كنتُ أحسب أنه يكفي أن نتفق كراشدَيْن على أمر ، ليحدث ببساطة ما عليه اتفقنا . كنتُ لا أزال بسيطاً في تَصَوُّري وأهوائي!

لم يكن يهمني من المحيط الذي أعيش فيه سوى الرغوة والتباخير . ومما يزيد في ابتذالي أنني ما كنتُ أشعر بنفسي مزيَّفاً ، ولا مرفوضاً . وهو ما يضحكني ، اليوم ، كثيراً ، ويُلقي الضوء الساطع على رَداءة الحياة ، وبلادتها : تلك التي كانت حياتي . كنتُ ، لبساطة مشاعري ، وطموحي المحدود ، أكتفي بالكلام الطيب . أشبع من النظرة المتعاطفة . وأشعر أنني أقل من الحب

بكثير . ولكن ما هو«الحُب» الذي كنتُ أتصوّره كبيراً بحجم الكون؟ وأين سألقاه؟ لَمْ أسأل نفسي . وهل كنت أملك «وعي السؤال» لأسألها؟

في تلك المتاهة الحيوانية الدمشقية ، لم يكن لي من وسيلة للوجود إلاّ الصَبْر والإخلاص . وأخلصتُ ، كثيراً ، لمن هم غير مخلصين لي . ولم يزعجني ذلك ، أبداً . لكأن حياتي لاتعنيني . لماذا؟ لأن إدراكي كان في طور أدنى . طور لا يسمح لي بأن التَقِط «المُسيء» إليّ . ولا أن أرفض ما لا يتناسب مع الحياة ، مثل غشّ مكشوف ، أو إهمال متعمّد ، أو عدم احترام موعد حَيَويّ ، مثلاً . و«دمشق العتيدة» ، إضافة إلى ذلك ، لم تكن تُقيم وزنًا لمثل هذه المشاعر العابرة ، والأحاسيس . وهي التي تكفي ابتسامة ساحرة منها لتُرَمِّم آثارها العميقة في نفس مَنْ أصابه أذاها . وبخاصة عند ما يكون هذا الــ مَنْ في وضع مثل وضعي .

أنقذني من تكهُّناتي المقيتة الزَوْلُ القادم من بعيد . فصرتُ أمعن النظر في الظلام ، وأنا أُتَمْتِمُ : بلى! هاهي ذي تجيء . وأصطَبِر . ولا تأتي . وأُلْطَأ ، منتظراً ، من جديد . و . . .أخيراً ، خرجتُ من وراء العمود الذي كنتُ اختبيء خلفه . وبدأتُ أُحرك هامتي يميناً ويساراً . أُلاحِقُ الطيف الذي كان يقترب مني في العتمة الرقيقة . كنتُ لا أزال قادراً على تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، في أوائل ذلك المساء الدمشقيّ الشفيف . مع أن «البصر يخمد في أول المساء إلى أن يقارب العَمى» ، كما يقول لي أبي عندما كنا نحاول صَيْداً ، أو نخيب فنعذرا .

هذه هي؟ أسأل نفسي ، ملاحقاً زَوْل المرأة التي ولَّتْ . إبتلعها الزقاق الضيق الذي يَتَّسع ، قليلاً قليلاً ، مثل فَرْج مَبْلول . أسأل

نفسي التي لم تعد تحتمل الخيبة والأذى ، دون أن أحظى بجواب . مع ذلك ، ظللْتُ أتابع الإنتظار واقفاً في مكاني . لقد صَمَّمْتُ ، ذلك المساء ، على ألاّ أتحرك قبل أن أقبض عليها ، وأشدّها إلى العتمة ، لأتذوّق طعمها اللزج . ولكن ، أين هي؟ فراغ مرعب يملأ قلبي ، ولا أعرف كيف أتخلّص منه . فراغ زاد في سوداويته إخلافها للمواعيد ، وعدم اهتمامها بتَرَقُّبي القَلِقُ . ومما زاد الأمر سوءاً أنني لم أكن على بينة من «الوضع» ، بعد : وضع المرأة في مجتمع مثل الذي كنتُ أعيش فيه . وأتساءل اليوم : إلى أي مدى يمكن أن تصل الحماقة ، أو الجهل بأمور الحياة الصغيرة ، عند بعض الناس من أمثالي؟ ولكن ، أية أهمية لتساؤل ذهبَ موضوعه ، منذ زمن بعيد ، مع الريح؟

لفترة طويلة ، بقيتُ جامداً في مكاني . لم يتحرك عقلي . لم ينطق لساني بكلمة . غدوْتُ أخرس . لكأنني صرتُ حجراً . وكلما مر الوقت ، ازدادُ تصلّباً وعناداً . وتكبر حيرتي وانكبابي . وتغادرني الرغبة ، لا في الكلام ، فحسب ، وإنما في السَيْر ، أيضاً ، حتى ظننتُ أنني لن أُغادر ذلك المكان الملعون قبل أمَد طويل . هذا الشعور بالخوف اللامفَسَّر هو الذي دفع بي ، أخيراً ، إلى أن أنهي انتظاري اللامجدي ، وأنا ممتليء بالبَلَهِ والنُعاس . وقبل أن أترك نقطة المراقبة ، خائباً ، أصير أُتَمْتِم : «أنا تعب ومحبَط» . وكالعادة ، أبدأ الدَمْدَمَة الحزينة : أريد أن أنام ! أغنية يأْسي المعهودة التي تَظَلُّ تهدهدني إلى أن أغفو واقفاً ، مستنداً على الجدار .

ولأن الإنتظاراللانهائي لم يوجد ، بعد ، أحسسْتُني أبدأ المشي ، فجأة ، في سواد الليل الكالح وأنا أهزّ رأسي كالعجل المكسور . ساحباً جسدي المتهدّل بارتخاء كبير ، وكأني خرجتُ للتوّ

من«الخابور» . الإحساس بالجوع بدأ يأكل أحشائي بعد أن هدأ قليلاً بتأثير التوتر الجنسي الخائب . فما أنْ زال هذا التوتر ، أو ما أن انتكسَ ، وتراجعَ ، حتى هجم الجوع ليحتلّ مكانه الطبيعي في قلبي الممتليء بالخفقان . ولم يكن لي سوى النوم موئلاً ومعيناً . وقبل أن أمشي ، ألقيتُ نظرة أخيرة على «الأبواب» . كنتُ أعرفها ، واحداً ، واحداً . الأبواب العملاقة التي تخفي وراءها مشروع متعة محتملة لم تتحقق إلى الآن . هل ستتحقق ، ذات يوم؟ ربما! مع أنني صرت أعرف أن التخطيط المعَقّد من أجل أمور شديدة البساطة هو الذي سيتكفّل ، غالباً ، بإفشالها . ولكن ، أنّى لي أن أدرك هذا ، آنذاك؟

أحطُّ عتمة المساء الدمشقيّ ، كلها ، في عينيَّ ، وأمشي . لكأني أُريد أن أحملها معي إلى حيث أسير . فيها كنا سنقف متلاصقين . ولربما متداخلين ، أو أكثر من ذلك بكثير . وعلى أية حال ، كان عليَّ أن أودّعها . أن أودِّع «أبوابي»الحبيبة ، و«ظُلُماتي» التي كانت مستعدة لإيوائي . أودّعها بعيوني ، وأنا أنسحب مكتئباً ، بعد أن هيَّأْتُ نفسي لولوجها الى جانب فتاتي الغاوية التي لم أعد أرى منها إلا قُبح روحها .«والقبح أحياناً مثير»! كما سيقول لي ذلك ، بعد سنين طويلة ، «رجل الحديقة» ، أو يقول ما هو قريباً منه .

ذلك المساء ، انهزمتُ ، أيضاً . فيه ، شعرتُ عميقاً بخيبة الروح السوداء التي لا نعرفها إلاّ عندما يخدعنا مَنْ كنا نؤمن بحبه المطلق لنا . ولكن ما هذه الخرافة : الحُبّ المطلق؟ وما هو الحُب ، أصلاً؟ صرتُ أتَنَفَّر باستياء . كان لتلك الخيبة التي لا تُحْتَمل (مع أنها تبدو لي اليوم عابرة وساذجة) ، طعم الموت .لا شيء ، ولا أحد ، يمكن أن

يعوّضها . كل اللقاءات التي ستحصل ، فيما بعد ، لن تكون إلا نوعاً من الاستبدال البائس عمّا فقدتُه ذلك المساء . والأمر الذي يقلقني ، الآن ، هو اعتقادي العميق ، آنذاك ، بأنني كنتُ أبحث عن الحُب ، مع أن جسدي كان يشتعل بالرغبة لملامسة أي أحد ، حتى ولو لَمْ يسمع بكلمة «الحب» هذه .

ومهما يكن الأمر ، فإن الخيبة التي لا نكون مستعدين لها كريهة . لكن الحماقة ، وحدها ، هي التي تجعل الكائن يلْجَأ إلى مثل هذا السلوك البدائي : سلوك مَنْ يثق بالظروف دون أن يستعد لتلافي أضرارها . وهي ، أي الخيبة ، مع أنها شيء قبيح ، فإنها تبدو أكثر قبحاً عندما يتعلّق الأمر بموضوع يُحطِّم جوهرالروح . روح الكائن المرتبط عميقاً بوَجْده ، مثل خذْلانه عندما لا يأتي مَنْ كان ينتظره في الموعد المحدد . أمر مثل هذا قد يجعل المرء يشعر بأنه مهمل ومنبوذ حتى وهو بين أهله وأصحابه ، إنْ لمْ يُدِّمرْ توازنه . هذا التوازن الهَشّ ، أصلاً ، والذي يظل يتأرجح بين ماهو مقبول وما لا يمكن قبوله بأي شكل من الأشكال (كحرماننا من المتعة الجنسية ، مثلاً) !

وأخيراً ، عندما سنلتقي ، بعد أشهر من التخطيط ، والتخطيط المضاد ، في عتمة مساء دمشقيّ جميل ، سأرى عيونها الشهْل تبرق في الظلام ، مثل عيون فَرَس جافِلة في الريح . وأنفاسها الحَرّى تتردد بين شفتَيْها ، تفضح اللَوْعة المستثارة في قلبها . وأصيرُ أتَذاوَبُ ، وكأن نار الرغبة المشتعلة داخل جسدها تنْفُذُ إليَّ عَبْر أحداقها . رغبة هَوْجاء تحَقَّقْتُ من قوتها ومداها ، على الفور . يومها ، رأيتُ ، وأحسسْتُ ، ولَمَسْتُ أشياء كثيرة أخرى عندها ، جعلَتْ مني أزاءها كائناً أعزل حتى من العاطفة الأولية التي تُحَوِّلُ

الفعل الجنسيّ بين الكائنات حُبّاً . وسيتقَوَّض بتأثير ذلك توازني النفسيّ المبنيّ على الاِسْتيهام .

الآن ، صــرتُ أعــرف أنني لم أكن أبحث ، آنذاك ، إلاّ عن القُشور . عن قشور الحياة الرهيبة التي استهلَكْتُها في الانتظار . ولسنوات عديدة خَلَتْ ، كنتُ أسمّي نفسي : «الكائن القِشْريّ» ، دن أن أحكي لأحد عن ذلك . واليوم ، في حديقة اللوكسمبورغ ، أحب أن أعود إلى تلك الأماسي المليئة بالتوتر والاحباط . ولَكَمْ تبدو لي جميلة وقريبة من القلب تلك الأيام الغابرة ، النابضة بالأحاسيس والإرهاصات . أيامٌ كنتُ أراها ، لشدة حماقتي وتسرُّعي ، مثل نكبة عظمى لا حيلة عندي لتلافيها ، ولا قوة لي لمقاومة أساها . ومع ذلك ، تغلَّبْتُ عليها ، على إحباطاتي العديدة ، وعشتُ .

-٧-

بعد عشرات الأعوام من ذلك التاريخ المحشو بالتوجّس والاختلال ، سأقطع الطريق بين باريس والنورماندي أكثر من مرة . وسيذكرني ، في كل مرة ، بسهوب الجزيرة الرعناء . بماذا سيذكِّرني ، أيضاً؟ بتلك اللحظات التي كنا ندور فيها في حديقة اللوكسمبورغ ، صامتَيْن . أسعدني ، كثيراً ، صمته الذي طال ، مع أنني كنتُ أحسني بحاجة إلى الكلام . لكن الأمر لم يكن قد استقام لي ، بعد . كنتُ لا زلتُ حزيناً ومرعوباً . و . . . وكأنني حِمْل ثقيل أنْقَضَ ظهره ، ولم يعد يستطيع تحمُّله أكثر من ذلك ، قال ، فجأة ، وهو يَتَنَمَّر ويتعجّب :

- كيف يحزن مَنْ يحالفه الحظ ، ويستطيع أن ينفذ من بؤرة القمع والفساد؟ أنا لا أفهم مشاعرك النبيلة . أقصد النبيلة بالمعنى الساذج ، طبعاً . لا! لاأفهم أي حسّ مُفْعَم بالخضوع اللامتناهي يدفع بكَ إلى حافة العدم .

ولما رآني كتلة من الإنتباه والصمت ، أكاد ألاّ أدرك مما يقول شيئاً ، شَذَّب ما قاله ، وهو يتابع نَبْش الأرض بعينيه :

- لا أريد أن أُسيء إليكَ ، ولا أن أوحي بأنكَ ستعود على أعقابك خاسئاً ، لكن خشية لا مفهومة تعذّب قلبي منذ أن

التقيت بكَ. أخاف أن تبدأ تراجعاً لافائدة منه، قبل أنْ تعي أهمية ما قمتَ به. هل أكون واضحاً كفاية عند هذا الحد؟ سألني وهو يكاد يكون مقتنعاً بـ لا!

كانت رطوبة المساء الذي بدأ يقترب، آنذاك، تجعل البدَن يقشعر. وأخذني بسببها هذيان جسديّ راجف. لكأنني أريد أن أقيء أحشائي على الناشف. أمور كثيرة كانت تتخالط في نفسي مثل سيول بَرّيَّة صغيرة، ولا أدري كيف أنقذ نفسي منها. لكنني، ظللتُ أمشي صامتاً بالقرب منه وفي قلبي رَجْف رهيب.

يومها، تَجَسَّدَت الفكرة، أمامي، مثل كرة طائرة في الريح، ولَقَطْتُها: لم أعد أريد أن أعلل العالم والحياة بأفكار طيارة. قلتُ في صمتي المضطرب. وأضفتُ متَبَلْبِلاً: جئتُ أبحث عن شيء، وهأنذا أجدني إزاء شيء آخر. لكن ذلك لم يعد يزعجني بعد أن اكتشفتُ أن أُولى خصائص الكائن الذي يريد أن يتعلّم، هي أن يدرك أقَلّ الأمور شأناً قبل أن يواجه أقساها. ولا يتحقق له ذلك إلاّ بالتأنّي والاصغاء. وهو ما صرت أسميه بيني وبين نفسي: الإصغاء المُجْدي. وعندما مَدَح، ذات يوم، إصغائي واصفاً إياه بالإصغاء العميق، كدت أفضح سري، وأُعْلن له أنه شيء آخر غير ذلك. لكن إرادة الصمت، هذه المرة أيضاً، ولحسن حظي، كانت أقوى من الرغبة في الكلام. وقبل أن أنزع عيني عن ذُؤابات الشجر الذي أخذ يتبلّل برطوبة المساء، قال بهدوء وكأنه يواسيني:

- أنتَ لم تلعب. لم تكن تلعب. أنتَ خاطرتَ بحياتكَ لتحيا بشكل آخر.

صحيح. كدتُ أُؤكّد له ما قاله ببساطة وكأنه يسكن في أعماقي. لكنني ابتلَعْتُ كلماتي. في دمشق كنت أنطلق في اللَغْو

مثل جرْو صغير . كنتُ طفلاً في عقلي . ولم يكن قلبي قد عرف التأوّه والخسران . أو لنقل إنني لم أكن على وعي كاف لإدراك مساويء الحياة . كنتُ بالكاد أعرف كيف أمشي ، وأطمح ، مع ذلك ، إلى أن أقفز من فوق الجدران . وإذا ما تحدَّثتُ ، أكاد أسيء إلى المستمع ، وإليَّ ، أنا نفسي . لماذا؟ لأنني لم أكن أملك مقوِّمات الحديث : العلم ، واللغة ، وحسن الكلام . ولحماقتي ، لم أكن آبه كثيراً لذلك . ففي مرحلة الشباب ، كما سأدرك أخيراً ، يكون الإندفاع النابع من الحرمان أقوى من فنون الحياة ومن عوائقها . ومع أن ذلك ليس صحيحاً ، دائماً ، إلاّ أنه يظل ممكنًا . وهذا الإحتمال«النظري» هو الذي سيجعل الحياة الصعبة ، مثل حياتي ، مستساغة ، أحياناً .

في دمشق ، كان كل شيء يجري في سبيله . الحياة تدور ، بلا توقف ، مثل عَجَلَة معلَّقة في الفراغ . والأمور تتوالى بعناية إلهية . لا أحد ، ولا شيء ، يشذ عمّا هو مكتوب «في اللوح المحفوظ» : لوح العالم الذي كنا نعيش فيه ، والذي أَخَذَ يُمَنْهِجنا كما يشاء . وكان ذلك ، في البداية ، يملأ نفسي باطمئنان غير مفهوم . اطمئنان سأكتشف ، فيما بعد ، أنه كاذب وخطير . وأنه ، إضافة إلى ذلك ، صار مصدر قَلَق لا يُحْتَمَل ، بالنسبة إليّ . وهو ، ربما ، ما دفعني إلى الرحيل . آنذاك ، كنتُ أغرق في التفاهة ، وقلبي مفعم بالنَشْوَة .

***

سرنا صامتَيْن فترة طويلة . لكل منا وقته ومنحاه ، مع أن ما يجمعنا كثير . ومن جهتي ، بدأْتُ أحسُّ أننا ارتبطنا بمصير مشترك

بالرغم من معرفتنا الجديدة ، ولكن العميقة . وغدت اللوكسمبورغ ملتقانا الأسبوعي ، وأحياناً أكثر من مرة في الاسبوع . هو يحب أن يتكلّم . وأنا أريد أن أسمع . هو بحاجة إلى خلق صورة جديدة لنفسه . وأنا لا أريد إلا الخلاص من الصورة القديمة المشئومة التي كَوَّنْتُها ، أو تكوَّنَتْ بالرغم مني ، عن نفسي . كائنان مختلفان يلتقيان ، أي عامل أكثر دَعْماً للصداقة من هذا؟ وفجأة هجم عليَّ :

- لا تريد أن تتكلّم! لماذا رحلتَ ، إذن؟

لم أقل شيئاً . اكتفيتُ بابتسامة غامضة لامعنى لها . خطورة الوضع أكبر من طاقة الكلام ، عندي . لكأن الشرح ، الذي لم أكن أُتقنه ، سيشوّه الحال أكثر مما يُفْصِح عنها . لكن اللجاجة التي أحسَسْتُها تتَخَلَّل أطروحاته الكثيرة ، هي التي صِرْتُ أتَّقيها ، أحياناً ، بشُروحات بائسة ، وأحياناً أخرى ، بشُروحات لا تشرح شيئاً سوى تخَبُّطي في مُقولاتي القديمة . كنتُ بحاجة إلى رؤية جديدة ، وإلى لسان جديد ينقلها . كنتُ بحاجة إلى صَمْت عميق . ودون أن يهتم بتوتراتي ، قال :

- فعلتَ مايجب أن تفعله . الآن عليكَ أن تكتشف العالم . أقصد أن تتعرّف على نفسكَ من خلاله . لا تخفْ! أن تبدأ من جديد ، لهو أفضل من ألاّ تبدأ ، أبداً .

وبعد أن رَطَّبَ نظرته الكارثية التي ألقاها على وجهي بدموع عينيَّ ، أضاف بهدوء شديد ، وكأنه يلقي كلمته الأخيرة :

- الكائن يولَد أكثر من مرة خلال حياته القصيرة . وعليه أن يستجيب لدعوة الولادة ، وأن يستحقها ، وإلا فستتحوّل هذه إلى موت .

تركْتُهُ يحكي . برودة المساء ، تبعث في الروح متعة عميقة .

في تلك البرودة الجميلة التي نَفَذَتْ إلى عظامي ، بقيتُ أمشي صامتاً ، وأنا أفكّر في أكثر من أمر . وهو ما كان يبلبل نفسي ويعطيها بعداً شقيّاً بلا سبب . وبشكل آليّ ، تقريباً ، ابتعدْتُ عنه ، واقتربتُ من العازف العاري (كما العادة) ، وأنا أُتمتم بكلمات خافتة ، لا أكاد أسمعها ، ناظِراً بشَغَف إلى تكوينه الجسدي ، وإلى حركية الرقص المنطلق من عصب التمثال . أحسه يتحرّك أكثر مني ، منا . أريد أن أتمثَّل ما يمكن أن يقوله الحجر لي . ما يقوله له . ولا أجد صدى لما أبحث عنه . لا! لا حوار بين الكئيب والفَرِح .

أحسسته امتعض من وقوفي الذي طال ، فكفَفْتُ الطرف عن تمثالي الحبيب . لكنني لم أتركه . لم أترك فضاء عازفي الجميل . بل ، على العكس ، بعد أن أبتعدتُ عنه خطوات ، عدتُ إليه ، من جديد . البعد الاسطوري للتمثال يمنح الرؤية أبعاداً لا محدودة . لكأن البعد الواحد للشيء يتوالد إلى ما لا نهاية من أجل أن نكتشف معنى الوجود . ومنذ أن يصل المرء إلى هذا الحد ، إلى الحدّ الفاصل بين الغامض والمفهوم ، يَسْهُل عليه كل شيء بما في ذلك المغامرة بحياته . أفكِّر . وفجأة ، أخترق صوته الواطيء صمتي الذي صرتُ حريصاً عليه لاكثر من سبب :

- الحياة لا تستحق إلا المتعة .

قال بلا مقدمات ، وهو يمسح التمثال بنظرة غاوية . لكأنه يقصدني . أو لكأنني كنتُ داخل غابة أفكاره ، وهو يتحدَّث بلساني . وكنتُ ، في الحقيقة ، في غابة أخرى بعيدة عنه . لم أقل شيئاً . اكتفيتُ بنَقْل نَفْسي من نقطة إلى أخرى ، لكي أكون مستعداً لسماع المزيد . وبالفعل ، بعد لحظات من التفكير ، أضاف :

- وليس المتعة إلا تحقيق ما نرغب فيه ، كما تعرف .

شعَرْتُ أنه أضاف هذه الـ كما تعرف ، تَمَلُّقاً ، لاصطيادي ، أو للقبض على أُذني . لكنني ، بقيتُ صامتاً . ومن جديد حطَّ نفسه في عينيَّ وهو يقول بنوع من المجابهة :

- أنتَ تدرك ، ولا بد ، أننا عندما لا نحقق الشيء نتَشَبَّث به .

قال ذلك بهدوء وكأنه يتحدث عن القمر . بدأتُ أفكِّر مرتبِكاً : يريد إثارة الخوف القديم عندي ؟ أم أنه يريد أن . . .أنا الآخر كنتُ متوتراً مثله . وكانت تملؤني إحساسات كثيرة أخرى . ففي الشام ، وقبل أن أراه ، بدأتُ أدرك ، ولو بشكل جَنينيّ : أن مصير الكائن تحت قدميه . و . . .وفيها شعرتُ ، أيضاً ، بأن عليَّ أن أتحرر من الأشياء والكلمات . أن أنْفُض الغُبار عن نفسي . وأن أحقق أشياء أخرى كثيرة . لكنني لم أملك الوقت ، أبداً ، لكي أُباشر بتحقيق قناعاتي . كانت الأمور تتَوالَد بسرعة هائلة لدرجة أنني كنت أنسى الأوائل عندما تبدأ الثواني بالظهور . ومع ذلك ، تشبَّثْتُ ، بكل طاقتي ، بشعاع النجاة .

لم أنتظر ، إذن ، وصولي إلى هنا لأدرك بعض ما قاله لي . لأدرك ، بالخصوص : مأساة العبودية المقنَّعة ، وخطرها الداهِم عليَّ وعلى الآخرين . أولئك الذين كنتُ ، وأنا في أقصى حالات التعاسة ، أحسُّهم سُعَداء ، مع أننا كنا نسبح في مستنقع الحياة الآسِن ، نفسه! ولكن بأي لسان يمكن لي أن أنقل ذلك كله إليه؟ وكيف أضعه في دائرة الكابوس الشخصيّ الذي لا يخصُّ أحداً غيري؟ كيف أُمَغْنطُهُ؟

ووجدتني أنْسَلُّ مبتعداً عنه ، وأنا أتابع ، بانفعال باطنيّ صامت ، آلاء حياتي الأولى . أستعيد طعم الماء الماهِج المختبئة في

أعماق آبار الحَماد ، ونحن نُدْلي إليها دِلاءنا المصنوعة من جلد العُنوز . ماء مالحة وزقّوم ، نشربها شاكرين الرب الذي حطّ لنا الملح في الماء . عجباً! أية كائنات كنا في تلك السهوب اليابسة مثل جلد ناقة مسلوخ جَفَّفَتْه الشمس . ولِمَ كان للحياة ذلك الطعم الحامض مثل عرق الرُعاة العائدين مساء إلى حيث يَمْرَحون؟

في مواجهة صمته الذي طال ، أروح أبحث في أعماقي عن مزايا أخرى لحياتي الأولى شديدة القسوة . وأجدني أهذي مُفاخِراً : الجوع الكاسح الذي عانيته في طفولتي هو الذي حررني من ضرورة الشبع . والمسكن البائس في أطراف المزة القديمة ، عند أقدام سجنها الرهيب ، هو الذي فتح عينيَّ على جمال الأمكنة . والكبت المخيف الذي أكل أحشائي فتى هو الذي سيكون مصدر طاقتي على التحمّل والانجذاب . به ، وعَبْره ، صرتُ أعرف قيمة الجسد . جسد الآخر ، وقوته . لم يعد الجسد ، بالنسبة إليَّ ، طاحونة للرغبات . صار مصدراً للتخلّص من مآسي الكبت والتأثيم .

وكأنني غريب عن حالي ، أصير أشرح لنفسي : ولربما كانت تلك الأحاسيس العنيفة هي السبب في نُفوري المتزايد مما كنت أغرق فيه . ولعلّها كانت وراء رحيلي المفاجيء ، أيضاً . ولعلّ الحال لم تكن على هذا النحو ، أبداً . و . . .وقبل أن . . . قطع الطريق عليَّ ، وهو يقول مشمئزّاً ، وكأنه على علم بما أفكر فيه :

– البؤس ليس مدرسة للإدراك . إلا أنه قد يكون محرِّضاً لتجاوز الركود الفكري البائس الذي يغرق فيه الكائن ، أحياناً! وما أعرفه عنك ، حتى الآن ، لا يضعكَ في هذه الخانة .

وأكاد أشْخَطُ به : من أنتَ حتى تتدلّل عليَّ بمثل هذه الطريقة؟ ويخطر لي أن الوُعّاظ الحديثين ، أو زاعِمي الثورة بالأحرى ، كلهم

كانوا على هذه الشاكلة ، تقريباً . وكأن الدنيا لا تُنْجِب منهم ، كل مرة ، إلاّ واحداً أحداً . وقد صرت أعرف ، الآن ، أن ذلك غير صحيح . وما يهمني مما يقول؟ قلتُ في قلبي . أنا ، الآخر ، أملك المقومات الضرورية للحياة . لفعل ما أريد ، وأكثر . وأحسستُ بسعادة بلا حدود .

-٨-

المرأة الجميلة التي كانت تقف في مواجهة مقهى «دانْتونْ» ، هي التي ستخرجني من ورطة الانغماس في ذاتي المليئة بالعَفَن . ذاتي «الغريبة» التي رحلتُ من أجل البحث عن بديل لها . أو على الأقل ، عن تحسينها عَبْر تلقيحها بممارسات إنسانية جديدة . ممارسات لست متأكداً من أنني سأكون قادراً على فعلها لو بقيتُ في دمشق .

كانت تقف بزهو ظاهر . لكأنها لا تنتظر إلا المعجبين بها . نهودها تتفتّح معترضة الأنظارالمشتهية بلا خجل . وأردافها محفوفة بالملابس اللاصقة بجسدها . جذعها مخمليّ وجميل . وبلا قصد ، أو ربما بكثير منه ، تُفْرِج فخذيها بإغراء ، وكأنها تعرض للعابرين مزاياها الإلهية . لكأن الجسد ، في عرفها ، أحد أبعاد الكائن الأساسية ، وعليه أن يزهو به ، لا أن يُدَثِّره بالخروق . وقفتُ بالقرب منها ، أتملّى بنهم كبير أعضاءها وخفاياها . لكأنني لم أرَ امرأة في حياتي . لم يزعجها ذلك في البداية ، لكنها اقتربَتْ مني ، فجأة ، وهي تلومني بشبق :

- لماذا تنظر إليَّ بمثل هذه العدائية؟

- أنا؟

تساءلتُ بغباء واضح ، وقد امتلأت نفسي بخجل كبير . لم أكن أريد أن أقول أي شيء آخر لها . ولا حتى لنفسي التي لم أكن أدرك ، بعد ، قُدْرتها الطاغية على طَحْن المشاعر وإخفائها . لكأن الشهوة التي لا زالت محرمة في رأسي منعَتْني من مواصلة الكلام الذي بدأ ، بشكل ما ، بداية لا بأس بها . وببراءة كاذبة ، أضَفْتُ :

- أنا لا أعرفك .

- لماذا إذن تُشَرِّحني بمثل هذه الدقة والإلحاح؟

قالَتْ . وبعد أن نظرَتْ في عينيَّ الملتهمتين ، أضافت :

- أحسستُ أنني أدخل عينيكَ ، ومنهما أخرج عارية . عارية تماماً . هل فهمتَ مصدر قلقي وسؤالي؟

من الفكرة تولَد الأفكار . ومن الأحـداث الصـغـيـرة نخلق لأنفسنا عالماً لا نستطيع أن نحافظ ، دائماً ، على قِـيَـمه وحدوده . لكأن الحياة كرة ثلج تتدحرج على سفوح أعمارنا الذاهبة نحو الهاوية . وبتدَحْرُجها المستمر تكتسب ألواناً ومشاعِرَ ومذاقات . ولا نعود ، كلما ابتعدنا عن النقطة الأولى ، نتحكّم إلا بالجزء الضئيل منها . حتى أنها يمكن أن تأخذنا إلى ما لَمْ نكن نحلم به ، سلباً ، أو إيجاباً . ومَنْ لا يدرك ذلك سيذوب ثلجه ، ذات يوم ، تحت الشمس . تحت شمس الحياة الحارقة . وسيظل مثل حجر أملس في الحضيض .

- ماذا قلتَ؟

سألَتْني بنوع من التعاطف الخفيّ ، وهي تتصَيَّد تمتماتي التي كانت تَتَناثر ، مثل فَرْط الرُمّان ، بلغة قد لا تكون تعرفها . كلماتي العربية التي كنتُ أبربر بها ، هي التي ، ربما ، دَغْدَغَتْ قلبها ، حتى لا أقول جسدها . إذْ رأيتُ ارتخاء شفتيها وهي تقرأ المكتوب على

وجهي ، وكأنها تقرأ القارعة . وكأنني أتكلّم في نومي ، قلتُ ، من جديد :

- أنا؟ ولم أضِفْ .

ابتسمَتْ بهدوء وهي تحاول أن تعتذر عما سبَّبَتْهُ لي من احراج . كنتُ سعيداً بالحديث المباشر مع امرأة لا أعرف عنها شيئاً ، ولم أرَها من قبل . تخيَّلْتُ نفسي في دمشق ، مثلما كنتُ لسنوات مضت ، حينما لَمَحْتُ امرأة قبيحة الوجه ، مشوّهة الجسد تقريباً ، لا توحي هيئتها إلا بالعطف عليها . اسرعتُ لِلّحاق بها وأنا أشجّع نفسي ، قائلاً : هذه سترضى بالحديث معكَ ، وقد تقبل بما هو أكثر من الحديث . وعندما اقتربتُ منها ، متهيّئاً للكلام ، ولما هو أكثر منه ، فَزَّتْ لائمة تَقَحُّمي عليها ، قبل أن أكشف أوراقي ، وهي تَسُبُّ : «العَمى! ما عندك شرف؟ ما لك أخت؟ أما حقير فعلاً» . ابتعدتُ عنها سريعاً مثل كلب غريب ، وأنا أخشى أن يكون أحد من الحضور قد سمع شيئاً من شتائمها . يومها ، أحسستُ أن كياني أصابه العدم . وأن قلبي انطحن تحت ضغط خجل مريع لم أُشْفَ منه إلى الآن . وتراجعَ إحساسي الشبقي إلى الظلام لفترة طويلة . وعليَّ أن أُوضِّح أن تلك لم تكن هي المرة الأولى ، ولا الأخيرة . لكنها كانت أول مرة أشعر فيها بالأسى العميق ، وبالنفور من المرأة . وبشيء من اللامعقول في الحياة .

ربما كان رد فعلها البشع ، بسبب بشاعتها الزائدة عن الحد ، أوبسبب تهوُّري الجنسي الذي لم يكن قد عَثَر على بؤرته الملائمة . أو . . .لكن أيّاً كان السبب ، فهو ليس عذراً ، ولا مبرراً لطَرْد أحد من جنة النظر والحديث . ولكن أنّى لي أن أدرك الأمر على هذا النحو ، آنذاك ، وكنتُ كالعصفور الذي يَنْقُر الصخر باحثاً عن

الحَبّ ، والحَبّ في المزبلة . بعدها ، بعد تلك الحادثة ، قضيتُ فترات محمومة قبل أن أتصالح مع نفسي . حالة من الركود والكمون الجنسي أعقبت ذلك الاتصال الوهمي المبتسر ، حتى أنني أشرعتُ أسلحة دفاعي الواهية عندما كلمتني هذه بصدق لم أتوقعه .

-٩-

مملوء بأحاسيس شتى ، وإضاءات ، عدتُ إلى الحديقة ، هذا اليوم ، مؤمِّلاً أن أتمتّع بعزلتي الجديدة . حياتي في دمشق كانت مملوءة بالناس ، ولم أكن سعيداً . ولغبائي اعتبرتُ تلك (اللاسعادة الموهومة) محنة كبيرة دون أن أُدرك ماهية ما ينقصني . الآن ، صار يبدو لي أن البحث عن السعادة ، عن سعادة محتملة ، ليس إلاّ عذاباً إضافياً . لكنني في تلك الحُقَب ، لم أكن أرى الأمر على هذا النحو . كانت الحياة ، حياتي ، تمر مثل الماء الجاري في دغل لا قوام له . لا تحمل جديداً ، وتغرق كل يوم ، أكثر فأكثر ، في الوحول .

آنذاك ، كانت أمنيتي اليومية ، والوجودية حتى ، هي الالتقاء بامرأة تقبلني . الجنس الذي هو ، في الحقيقة ، محرّكي الأساسي ، كان يقود خطاي مثل بهيمة في الحقول ، ومع ذلك ، لا تَرْعى ما يكفيها ، ولا ما يرضيها . وهو ما كان مصدر بؤس نفسي عميق عندي . بؤس كنتُ أعبّر عنه ، بمنطق غير مفهوم ، وبكلمة واحدة استحْوَذَتْ على لساني :« مشكلة»! الكلمة التي صارت شعار حياتي اليوميّة ، فيما بعد .

هأنذا أصل . ومنذ أن دخلتُ الحديقة ، جلستُ على المقعد الغاطس بين الأشجار ، مختفياً عن الأنظار . أرخيتُ جسدي

الواهن عليه ، وبدأتُ الرحيل في رأسي إلى المجهول . منذ أشهر وأنا أحوم في باريس دون أن أحظى بما كنتُ آمل الحصول عليه . وقبل أن أبتعد كثيراً في حقول فكري المملوءة بالشوك ، جلسَتْ لصقي امرأة بدَتْ ، هي الأخرى ، مليئة بالبؤس والهموم . وما إن حَطَّتْ جسدها الرخو فوق المقعد القاسي ، حتى أدارت رأسها عني ، وبدأت تحكي بشَجَن عميق : «لقد كان كلباً ، كلباً حقيراً» . قالتْ ذلك وهي ترتخي على المقعد مثل مشنوق قُذِف به إلى الأرض بعد نوبة الاهتزاز التي أوْدَتْ به إلى الجحيم .

استَدَرْتُ بحذر إليها . أريد أن أرى وجهها ، وقد شَدّني صوتها المليء بالكرب والتعاسة . كانت في أواخر ربيع العمر الذي لم يكن جميلاً . أثداؤها تبرز مثل كرات الزبل في الجزيرة . وعلى رأسها حطَّتْ قبعة كبيرة تخفي بها القليل من العيوب ، لكن الكافية لإثارة الاشمئزاز منها . مَنْ تكون هذه المرأة التي اختارتْني؟ وبأي شأن تفكّر الآن؟ ومَنّ هو كلبها الحقير؟ كدتُ أناديها : «أُمّاه»! لكنها تَملْملَتْ في اللحظة التي استدار فيها لساني . هكذا ، وجدتُ نفسي أُغني لئلاّ تظن بي الظنون . لكنها أنَّبَتْني بقرف :

- اسكتْ! أرجوك .

سكتُّ بالفعل ، وكأنني طفل صغير تؤنّبه معلمته . سكَتُّ وأنا أفكِّر ، متَلَفِّتاً حولي بقلَق ونفاذ وصبر . لكأنني على موعد مع حبيب ، وقد تأخر كثيراً! ولم أكن أنتظر أحداً ، وبالخصوص ، هو . كنتُ أحسب أننا تفاهمنا ، البارحة ، على كل شيء ، بما فيه الكفاية . لكنني ، في الحقيقة ، جئتُ إلى هنا أبحث عن شيء واحد ، فقط ، هو الالتقاء به من جديد .

فيما بعد ، سأدرك أن الحياة لا تُفصِح عن خفاياها للمغفَّلين

من أمثالي ، دون جهْد كبير . وليس فيها مايمكن التكهُّن به بشكل عفوي . وثمن إفصاحها ، هذه المرة ، سيكون«الصداقة الغامضة» التي ستنعقد بيننا . تلك التي ستفرضها الحياة عليَّ ، والتي سأقبلها مغتبطاً . صداقة أوهَمْتُ نفسي ، في البدء ، بأنها حميمية وصادقة . ولم تكن تتمتّع بأي من هذه الصفات . وفي الواقع ، ليس ثمة صداقة في الوجود يمكن أن تحدث بلا ثمن . فلأدفَعْه . ولهذا الثَمَن حكاية .

تتخلّق الحكاية في رؤوسنا ، وتنمو ، مثل الجَنين الذي ينمو في الأرحام . لكنها تصير ، منذ أن نَحْكيها ، حكاية أُخرى . حكاية غير التي كنا نريد أن نرويها . وحكايتي هذه؟ في دمشق ، لم أكن أُفكّر باعتبارات مثل التي تشغلني ، الآن . كنتُ مشحوناً بطاقة غامضة تدفعني بشكل محموم إلى متابعة الطريق : طريق الحياة الحزن والمعتم . وهنا ، بدأت الأمور تأخذ منحى«التكَسُّر والتَداعي» . وأنا أكتب ، اليوم ، هاتين الكلمتين ، أفعل ذلك بتَمهُّل وبطء كبيرين ، لأنني أحس باللادِقَّة ، واللاطمأنينة ، إلى معناهما . وكذلك ، إلى مجرى الأحداث التي ستدفع بي ، قريباً ، إلى الهاوية . أريد ، اليوم ، أن أحكي كما أشاء ، أن . . . وقبل أن أتمَّ جملتي الأخيرة ، تحركَّتْ جارتي . وبلا مودَّة نظرَتْ إليَّ وهي تقول متعجِّبة :

- لا زلتَ تجلس هنا؟
- ولِمَ ، هل يزعجكِ وجودي؟
- لا . كنتُ أحسبَ أن وجودي هو المزعج .

وهي تتفوّه بهذه الكلمات أدركتُ أنها على حق . فقد فاحَتْ منها ، عندما تحركت ، روائح غريبة لم أشم مثلها ، من قبل . روائح

الحياة التي لم تسلك طريقها السوَيّ . روائح أهلي ، رُعاة الغنم والأبل . روائح أمي . روائح زبل الجزيرة القديم ، ونحن نلقط حبّاته اليابسة حبَّة ، حَبَّة! إلى أي جحيم تقودني هذه الرائحة ؟ أتساءل بخبث . وأكره أن أتساءل بمثل هذه الصيغة المرتعبة . بلى! صرت أكره الإرتماء المجاني في أحضان البهْتَة والغيب . وبخاصة ، عندما يتعلق الأمر بحياتي .

كُرْهُ هذا التَصَوُّر التهويليّ المتَغاضي عن التاريخ ، والذي تَمَثَّلْتُ مفهومه حديثاً ، هنا (أقصد مفهوم هذا الكُرْه النقديّ ، كما يسميه) هو الذي سيدفع بي إلى أن أُعيد النظر باعتباراتي الأولى . أن أنظر بارتياب إلى الحياة ، إلى ظروفها الشديدة الإختلاف ، وإلى هذه المرأة المُنْسَدِلَة بالقرب مني . أن أنظر نظرة كائن التبَسَتْ عليه الأمور ، فصار يتعَمَّد التروّي من أجل ألاَّ يقع في الخطأ أكثر من مرتين .

أبسبب ذلك ، صار يبدو لي الرحيل الذي ارتكَبْتُهُ وكأنه أحد السُبُل الملوكية للوجود؟ بلى! فهو ، وحده ، الذي كان قادِراً على أن يقطعني ، أو يفصلني ، فيزيائياً ، عن معطيات حياتي الأولى . وسأدرك ، فيما بعد ، أنه لا خلاص لنا من أمر ، أو من فكر ، إلاّ بالبعد عنه ، أو عن بؤرته . لأن المسافة عاطفة . وهي من جهة أخرى مُحَرِّرة . إنها العلاج الناجع لتخليصنا من عبوديتنا للأفكار وللمؤسسات .

في خضمّ هذه الإلْتِباسات الفكرية ، حاولتُ أن أقول لها شيئاً يعنيني أنا ، إلا أنها استدارتْ عني وهي تقول باستياء :

– لا تعذّبْ نفسكَ ، أعرف كل شيء . أعرف ردود فعل الناس . أعرف أنهم لا يتحمّلون الآخرين إذا كانوا مختلفين عنهم .

وبعد أن تطلَّعَتْ بامعان في وجهي ، أضافتْ : وسيدهشني ألاّ تكون مثلهم .

اكتشَفْتُ ، بفعل قولها المباغت ، وصوتها المحروق ، أن التواصل الانساني أمر معقّد ذو مستويات . لكن هذه المقولة الشديدة التبسيط لن تفُكّ مغاليق أوهامي ، بل ستبدو لي هي ، نفسها ، معقدة وغريبة . بتأثير ذلك ، ربما ، ملأني إحساس مُبْهَم بالخوف . وشعرْتُ أن تواصلي الكاذب ، أو المتَزَلِّف (من قبل ، والآن أيضاً) لم يكن إلاّ تأكيداً لما كنتُ أحسُّ به من فراغ وهشاشة . كنتُ في أعماقي (وإنْ لم يبدُ ذلك على وجهي) أتمنّى أن أكون كائناً هُلامياً لا يمكن القبض عليه! أردت أن أقول لها بعض هذا الذي يشغل قلبي ، أو على الأقل الفكرة الأخيرة . لكن ذلك لم يكن ممكناً ، وحتى لو تَمّ سيكون عديم الجدوى (كما سيشرح لي «رجل الحديقة» ، من بعد) لأنه يفتقر إلى العنصر الأساسيّ في الوجود : الصدق (إلا إذا كانت هذه الكلمة هي الأخرى فارغة من المعنى ، كما سيضيف) .

ماذا أفعل؟ أُغمض عينيَّ على اتساعهما ، فلا أعود أراها ، ولا أحس بوجودها وهي لصقي . أروح ، مبتعداً عنها . أُدَوِّر في رأسي عن القديم الذي انخلط بالجديد . أرى الوضع الذي كان وكأنه يتحقق ، الآن ، قُدّامي . أُريد أن ألتقط الكثير من نُثار الحياة الذي أضعتُه هَدْراً . وأصير أرى سُطول الماء الموحل يَتَناقَط منها الرذاذ ، فيُبلِّل الأفخاذ المليئة بالوَسَن والعَجاج . أفخاذ الواردات على الخابور في مطلع الفجر . يصعَدْن الهضبة الغربية ، وكأنهن صاعدات إلى السماء . يمشين رهزة رهزة كما يقول «أبو عَرّوج» الذي قضى حياته يتصيّدهن ، قبل أن يضيف : وعندما تدعوهنَّ يَتَمَنَّعْنَ ، وهنّ لا

يبحثْنَ إلاّ عن هذا . وبعد أن ينفخ دخان سيجارته العتيقة التي لَفَّها بأصابعه اليابسة ، يصير يَتَحَسَّر : أحْرَقْنَ قلبي ، بنات الكلب . أموت ، ولم يشبع هذا (يشير إلى فرجه) منهنّ . ومع ذلك ، وربما بسببه ، في الفجر ، في كل فجر ، كان يترك دفْء فراشه ليقبع فوق كتف العَلْوة الغربية ناظرًا مجيئهن . أيّ أمل كان يدفعه لتكرار مشهد الترقّب الخائب ، هذا؟ وأي احتمال مُبْهِج كان يُدَغْدغ أعماقه الملأى باليُبْس والعذاب؟

«أبو عَرّوج» الرجل الصَمـوت الذي يرهز القاع وكأنها أنثى مثيرة . يلاحق الغيم مستنداً على ظهره ، وهو يُداري حسرته التي تَنْشَقُّ عنها الصدور . مَنِ المرأةُ التي كانت تملأ قلبة بشهوة لا يمكن تحقيقها؟ ومَنْ هو الرجل الذي «يتفخّذها» كل ليلة من ليالي صيف «الحَسَكة » اللاهب؟ مَنْ هو ابن الكلب هذا؟ يتساءل وهو يتشَقْلَب منقلباً من بطنه إلى ظهره ، وبالعكس . أي إثم يوحي به الاحساس بالشبق الذي لايُروى عندما يدفع الكائن إلى الحسد اللامعقول؟ إلى تمنّي موت جاره لتترَمّل الزوجة الجميلة حتى ولو لَمْ يكن يأمل نَيْلها .

كنتُ أتفحّصه باهتمام بالغ ، مستمتعاً بكلماته المملوءة بالشغف والحياة . الكلمات التي كانت تقودني نحو النور : نور النهار الذي يبدأ تفتّحه مثل زهرة في أعالي الهضاب . وأراه يقول لي مُحذِّراً إيّايَ من التقليد الأعمى ، وكأنه يخشى عليَّ من العَدْوى : «إسمَعْ ، ياعَجيّ! لا تفعل ما أفعل! أنا صاحب الرأي الذي لا يعتَدُّ به . والمثال الذي لا يُحْتَذى» . وأمتليء اكتئاباً ودمعاً وأنا أسمعه يقول هذا . وقبل أن يرى سيلاناتي ، أقوم منحدراً إلى الخابور . أنحدرُ وأنا أفكِّر : ما أجمل الحياة عندما يكون لديكَ مَنْ تحبهم .

-١٠-

أمشي .

هذا ما قررت أن أفعله ، هذا النهار ، أيضاً . أمشي وحيداً . أهبطُ نحو ظلام المدينة البادىء ، وقد أخذت الأنوار تشعُّ بهدوء . لكأنها تستقبل العابرين مرحبة بهم . أمشي ، ورأسي يتنقّلُ بين الكائنات والأشياء ، متمتّعاً بما أرى ، ومستغرقاً ، في الوقت نفسه ، في حلم عميق . حلم الالتقاء بعالَم جديد ، والتخلّص من كآبة العالَم القديم التي لازمَتْني . عمَّ يبحث الكائن إنْ لمْ يكن عن الغبطة؟ وأكاد أقول عن السعادة . والسعادة ليست حلماً لا يمكن تحقيقه . منذ الآن ، صار كل شيء قابلاً للتحقيق! فكَّرْتُ ، وأنا أكاد أضحك هازئاً من نفسي . أضحكُ ممَّنْ؟ وعَلامَ أضحك؟ لكنني بدلاً من الإجابة ، صرتُ أتساءل بحَرَج : لماذا يريد المرء أن يهزأ من ذاته ، إنْ لم تكن جديرة بالهزء منها؟ إنْ لَمْ يكن من أجل الإنتقال بها إلى طَوْر جديد؟

وأنا أستعْرِض هذه الأفكار ، أحسستُ ، مرتعباً ، أن تلك الأقاويل الفارغة ، والتحليلات اللامجدية ، ستفيض ، ذات يوم ، وتُغْرقني بسوائلها الفكرية الكريهة الرائحة . مع ذلك ، لا بد لي من مواجهتها في النور ، قلتُ لنفسي . ومواجهتها تعني استبصارها

المستمر حتى أتحقق من موتها النهائي . إلاّ أن تلك المواجهة ، وما تُنْبيء به من خلاص ، لا يمكن أن تَـتُمّ بمعزل عن موقف جديد من تاريخي الشخصيّ الذي رضعته من أثداء دمشق : إما أن أُطَوِّره ، أو أنه سيخنقني مثل مَشْنوقي المَرْجَة في الفجر .

ماذا أسمع؟ صرتُ أتَهيَّأ في قلبي . بلى! أسمع في الأفق القريب أصواتاً وهتافات . الغيم يجري في النواحي القصية . وفي البعيد دمادِم وأفانين . أفكار غريبة تشغلني ، وأنا أسير صامتاً مثل جَدْي هزيل . الناس يتطلّعون إليَّ بعجب . هيأتي لا تساعدني على الاندماج فيمن حولي . أحسُّني أحارب الناس بدلاً من أن أُداريهم! وفي هذه الحال ، كيف يمكن لي أن أبدأ بشكل مغاير؟ أتساءل شبه يائس ، وأنا لا زلتُ أغرق في أعماقي . وأُردد ، بصمت : مِنْ أين لي بمثل هذه الأفكار البغيضة ، وهأنذا أمشي صاخباً ووَدوداً؟ ولكن ، لِمَ لا يهتمُّ بي أحد؟ أكاد أصرخ . لا أحدَ أبداً! لا أحد . أنا وحدي في الفراغ المترع بالعزلة .

فيما بعد ، سأدرك أن الخيبة ، وبخاصة عندما تكون مثل هذه ، هي أصغر العقبات التي يمكن أن تعترض الكائن ، إنْ لمْ تكن ، أو إنْ لَمْ تَصِرْ ، أحد أسباب تمرده على البؤس : بؤس الذات الذي هو أساس بؤس الوجود . البؤس النفسي الذي لا خلاص منه إلا بنَفْيه من القلب . ولكن كيف؟ صرتُ أعرف أننا نتطوّر على مراحل . وأننا بحاجة إلى وقت طويل لكي نمشي خطوة قصيرة . وأن هذا ، كله ، لا يمكن أن يتحقق دون عذاب روحي مقيت . أكلّم نفسي ، والضوء الأبيض يلاحق الظلال التي تبُثُّها العتمة . وأنا لا زلتُ أسير في شارع « فوجيرارْ» الطويل . كنتُ ، في الحقيقة ، أمشي صامتاً . لم أكلِّمْ أحداً . ولم أتكلَّم مع نفسي . لم أعد أحس حتى

بحاجة إلى الكلام . وتلك هي المرحلة القصوى من انعدام الشعور بمتعة الحياة ، كما سيقول لي مُتَفاصِحاً «رجل الحديقة» . ولكن من أي الأصقاع تنبع الضجة اللامتناهية ، هذه؟ أتساءل ، من جديد ، وقد أخذني الشوق إلى الصوت .

بلى! في منعطف الطريق الضيق سمعتُ الصراخ ، واضحاً ، هذه المرة . كانت حفنة من الرجال المتكافتين يمشون وهم يصرخون : «نريد تسوية أوضاعنا . نريد أوراقنا»! يحيط بهم جمع من رجال الشرطة المدججين بالعصي والهراوات والخُوَذ . يلبسون دروعهم المضادة للرضوض . لكنهم لا يمنعونهم من الحركة والاحتجاج ، مع أنهم غُرباء ، و«دون أوراق» ، ولا حَقَّ لهم في الإقامة قانونياً . وقفتُ على قارعة الطريق أهتَزُّ من الدهشة . لم يتحرك أحد من الجالسين . ولم أمشِ معهم . صرْتُ أفكّر : في البادية كنتُ حراً وطليقاً مثل نسمة من ريح . وعندما جاء الدرك ذات يوم يبحثون عن أخي الأكبر مني بسنوات عديدة من أجل الخدمة العسكرية ، سَحَبني أبي من زندي ، وأوقفني عند أنف العريف ، وهو يقول له : «هذا ، هو ، ابراهيم الذي تبحثون عنه»! ولم ينتظر رد العريف ، فتابع بلَوْعَة وتَرقُّق : «هذا الطفل تريدون أن ترسلوه إلى خط النار»؟

واندهش العريف الأحمق من صغري وحداثة سنّي ، وصار يبربر : «العَمى! شو هاذا؟ شو هالحكومة؟ شو هالشعب؟ ما يعرفوا حتى عمر الواحد ، ويرسلونا في البراري نبحث عن بشر بلا أوراق ، ولا يمكن أن يتأكّد أحد من أحد . الكبير صغير ، والصغير كبير»! ودَوَّنَ في دفتره بعض الملاحظات ، قبل أن يُبعِدني بقرف : «روحْ مِنْ هونْ»! جعلَتْني الأفكار المباغتة ، هذه ، أتردد في مسيري . وتابعوا هم طريقهم بحميّة وتصميم . سود ، وبيض ، وصُفْر . خليط

من بلدان الأرض التي سأحلم ، فيما بعد ، بالتعرف عليها . لكأنهم غرسوا بمرورهم العاتي بذرة حب العالَم في قلبي .

لَمْ ألحَقْ بهم . ولَمْ أمشِ . بقيتُ واقفاً في مكاني . أَحورُ مثل طَريد لا يعرف أين يذهب . لا مَلْجأ له . ولا يستطيع أن يعود إلى حيث كان . أقف . وأفكِّر : باريس مفاجأة جميلة . وجوه وهيئات وألبسة وقِناعات . بشر مختلف الأشكال والأجناس ، لم أكن أحلم برؤيتهم قبل أن أصل إليها . في دمشق كان الناس مثل عيدان القصب في «الجزيرة» : الطول نفسه ، ونفس السحنة واللون . وأحياناً نفس الأرداف والنهود . وكلهم يتكلمون ، بلسان واحد ، إنْ لم يكن لهم ، كلهم ، العقل نفسه . هنا ، بدأتُ أَتَذوّق الفتنة الكامنة في الإختلاف . تلك الفتنة الآسرة التي لم أكن أحلم بها . وأنّى لي أن أحلم بها وأنا كنتُ غارقاً في «الوُحول»؟ ومنذ أن عرفتها ، أدركت في أي فردوس أرضيّ وقعتُ . ولم أعد نادماً على شيء : لا على الرحيل من هناك ، ولا على الإقامة هنا . وكدتُ أغفر لنفسي الحماقة التي ارتكَبْتُها (أو ما كنتُ أعتبره كذلك) .

وعلى الفور حضرني قوله الحاسم : الكائن لا يرتكب حماقة حتى ولو أراد أن يفعلها قصداً . وبعد أن إطمئنَّ إلى أصغائي الكامل ، أضاف ، يومها ، بقَدْر كبير من الإعتزاز : كل أفعال الكائن تستوجب الإجلال ، ويجب النظر إليها باعتبارها جزءاً من كينونته . ولأنه يعرف أنني لا أتوقَّف عن لَوْم نفسي على ما اقترفَتْه من هفوات سخيفة ، وهو ما كان يزعج استقراره المعرفيّ ، أراد ، يومها ، أن يضعني في موقف آخر أكثر جذرية وتمرداً ، كما تهيَّأ لي ، فقال : أنتَ لا تدرك ، بعد ، أهمية ما فعلتَه . انتظرْ وسَترَ .

واقفاً كالتمثال ، كنت استعيد ، مرتبكاً ، بعض أقواله القاسية

الأخرى ، ذلك اليوم . تلك الأقوال الحاسمة التي دَمَّرَتْ طمأنينتي الغبية . طمأنينة «الفأْر» الخاتل في غاره إلى أن تلتهمه الأفعي التي تجوب القاع بحثاً عن أسباب الحياة . أراه ، في عتمة نفسي ، يُبربر في توتُّر ، يَعْلو وينخفض ، وكأنه لولب لا يكفّ عن الجُموح ، دافراً التراب بقدمه ، وهو يقول مستاء ، وكأنه يريد أن يُفَجِّر هيئتَهُ الغاضبة في وجهي : المغامرلا أهل له ، ولا وطن . وأسمعه يضيف بحزم : لا تنْسَ هذا !

في خضمّ ذلك المشهد الغريب ، وجدتني ألوم نفسي بقوة ، وكأنني لم أعرِفْه ، أو كأنه كان يلقي كلماته على كائن آخر : لِمَ لَمْ تَلْحَق بهم ، عليكَ اللعنة !

-١١-

افترقنا بهدوء وكأننا لم نَلْتَقِ .

منذ أن أدَرْتُ وجهي عنه نسيته . نسيتُ شكل رأسه الأملس . ووجهه الذي بلا تضاريس . وسحنته التي لا يُمر بها أي تعبير وكأنها طريق مهجور . وعيونه التي تلوز مثل عيون عصفور غريب . وثيابه المَحْطوطة بلا اعتناء فوق هيكله الضئيل . لماذا يُشْغِل ، هذا الكائن الأزليّ نفسه بشرح ما لا يحتاج إلى شرح؟ يَتَفَنَّن في اختيار الكلمات . ويحاول أنَ ينقل إليَّ آخر خُلاصات المواقف الجذرية الإنسانية وكأنه المؤتَمَن عليها ، وحافظ أسرارها ، فكَّرْتُ . لا! لم أعد مقتنعاً بنقل التجربة الانسانية بشكل حَشْويّ مُبَسّط . صارت تُحَرِّكُني أهواء أخرى غير هذه . ولكن ما هي؟ تساءلتُ ماشياً في الطريق الذي يوازي الحديقة ، هابطاً نحو ظلال «المدينة» الجديدة التي آوَتْني : باريس .

في هذه المدينة سأتكوَّنُ من جديد ، وبشكل حر(أو هذا ما أظنه) . سأعيد ترتيب حالي وفق ما يمكن أن تسمح به الفكرة الانسانية عن «الحرية» ، وعن «التكوّن الحر» الذي لا معادلَ حقيقياً له في الوجود العربيّ الذي أعرفه . وهو ما يبرر ، في رأيي ، رحيل الكائن ، ويلقي الضوء عَلى ما يمكن أن ينجم عنه . هنا ، صرتُ

أشعر بأنني لست أنا القديم، وفي الوقت نفسه أنا هو. ولم يكن شعور الإزدواجية، هذا، مُريباً، وإنما بدا لي مثل نبتة جديدة بدأت تنمو في نفسي إلى جانب العوسجة العتيقة التي حملتُها على ظهري عندما رحلتُ. ذلك، كله، وغيره كثير، سيُزيِّن لنا غواية السفر المُبْدع، وأثره الخلاّق في الوجود. وخطر لي أن لا خوف عليَّ، بعد اليوم، من الإبتعاد عن الأمكنة، ولكن الخطر يكمن في الإلتصاق بها، كما قال وهو ينظر في عينيَّ مُحذِّراً: مصير الكائن يتأرجح بين مكانين: المكان الذي وُلِد فيه، والمكان الذي منه لا يعود.

آه! يصل شارع «فوجيرارد» إلى نهايته. ومعه، أصل أنا إلى «السانْ ميشيل». في «السان ميشيل» أتابع السير، وحيداً. أمشي مضطرباً، ولكن بهدوء تام. سريعاً، أخذني الجمع المسالم في خضمّه. وقَبِلْتُ. في جَنَباته أصير أتمايل مطمئناً، وكأن شيئاً لم يكن! أبهذه السرعة يتلاءم الكائن مع ظروفه، عندما يريد؟ أتساءل، لاحِقاً قدميَّ الباحثتَيْن عن الطريق، بلا مبالاة. لكأن أطوار الحياة النفسية صفائح معزول بعضها عن بعضها الآخر، وهي لا تقدح شَرَرًا إلاّ عندما تتلامس. ولا ندري متى تفعل ذلك، ولا كيف.

بعد أن رحلتُ صرتُ أحب أن أتذوّق العزلة التي وجدتُ فيها نوعاً من اللجوء الممتع إلى الذات، وبخاصة، عندما أكون محاطاً بمن لا يعرفونني، ولا يهمهم من أمري شيئاً. لكأنني أريد أن أكون خالياً من كل أحد، ومن كل شيء. وفي الوقت نفسه، أحب أن أغوص في جمهرة العابرين بلا حدود. في دمشق كنتُ محاطاً، باستمرار، بمَنْ أعاقوني عن رؤية ذاتي على حقيقتها. وبمَنْ أوهموني

بتَزلُّفهم المجاني بما لَمْ أكُنْـهُ . وفيما بعد ، عندما عرفتُ بعض عناصر الحقيقة المريعة ، هذه ، كان الأمر قد صار أكبر من إمكانية الحل عندي . ومع ذلك ، عليَّ أن أحلّه . قلتُ لنفسي ، وأنا أتابع السير بغبطة ، مستعيداً أشياء كثيرة مرَّتْ بي ومررْتُ بها .

من الطفولة تنبع صُوَر الحياة . منها تنبع الحياة نفسها . فيها نكتسب وعياً مبتذلاً ، أو وعياً جذرياً . وعي يلازمنا حتى النهاية . ومع أن أي شكل من أشكال الوعي الانساني يمكن له أن يتبدّل ، أن يصبح أكثر جذرية ، أو أشدّ ابتذالاً ، وقد يتحوّل إلى شيء آخر مختلف كلياً ، إلاّ أن رائحته ، أو مسحته ، أو أعراضه العميقة الأولى ، تبقى على وجوهنا إلى الأبد . لأن مادة الكائن مَجْبولة من كل حالاته ، ومن جميع أوقاته . وما يمر به يظل مَرْقوماًعلى أديمه ، ولا يزول .

من الطفولة تنبع الأساطير . و«أبو عَرّوج» واحد منها . أجلس متربِّعاً ، مثله ، على القاع ، وأبدأ الصمت . ما كان لي أن أقول شيئاً . ويصمت ، هوالآخر ، وهو يبحث التراب بعود القصب اللَمّاع . وأحس بذرات التراب تلج عينيَّ بملوحتها الصَمّاء . تذكّرني برَمَد قديم . رَمَد ، عانيتُ قسوته لأسابيع طويلة . ملأَتْ فيها أمي عينيَّ بشحم الجَدْي السمين . وحَلَبَتْ فيهما من حليبها الصافي مساء ، قبل النوم . كنتُ أنبطح كالخروف المُكتَّف تحت أبطها ، لتَدْلُقَ على وجهي وعينيَّ شريط الحليب الأبيض المنطلق من حلماتها .

ويروزني «أبو عرّوج» صافناً في لَفْحَة الحرالذي أخذ ينسحب بهدوء . أعرف أنه يريد أن يسألني عمّا لا طاقة لي على الإجابة عنه . لكنه لا يفتأ يأمل أن أحققه يوماً . وفي هذه النقطة من

الوجود، نقطة الأمل المستحيل، تكمن مأساة السائل والمجيب. لا أحد يمكن له أن يستبق الحياة في تحقيق ما يقتضي تحقيقه زمناً لا مجال لاختصاره. لكن «أبو عروج» لا يمكن إقناعه بوجود«المستحيل»، وبخاصة عندما يتعلّق الأمر بالنساء. ويصير يُمالؤني محرِّضاً: اسمع ياعَجيّ! لا تدع اليأس يأكلك. ولما أحس بي مَبْهوتاً من سماع كلماته، أوضح ما أراد أن يقوله لي بشكل آخر: لا تَدَّخر حاجة اليوم إلى الغد. الغد له مُدَبِّر. أما اليوم فشأنه بين يديك. وأحسه يتألّم لأنه ظلّ على حاله منذ أن كان طفلاً يافعاً لا يزال. وأكاد أشاركه إحساسه المأساويّ هذا: إحساس ابن الصحراء الذي لا يشبع، ولكنه لا يريد أن يفني عمره في البحث عن الطعام.

ويذهب بعيداً، يذهب إلى حدود طفولته الشقية التي وَلَّتْ، ويعود إليَّ، قائلاً، دون أن يغيِّر من قَعْدَته: أنا لم أتعلّم القراءة والكتابة مثلك، لكن عينيَّ في رأسي، وقلبي ممتليء بالأفانين. الدنيا مثل قحبة لا همٌ لها إلا التقافُز من حضن إلى حضن. والرجل الذي يخشى التعامُل معها يبقى بلا رُكوب. وأحسُّني أقشعرّ تودُّداً وتعاطفاً مع كلماته التي تصل قلبي على الفور. لكأنه يتمتَّع برؤيتي وأنا أتمتَّعُ بسماعه. ويحنُّ عليَّ وهو يقول: أحب أن أعلمك ما لم أعلم، ما لم أقرأه، لكنني عرفته بقلبي. العين لا تَرى فحسب، إنها تفهم الشيء منذ أن تراه وكأنها قرأتْه، ولذا نحن نفرح، عندما نرى المُفْرِح والمُثير.

وأحسُّه يُزَيِّن لي الإقدام، ولو خطيراً، وهو يقول: لا تخفْ! تقدّم. وستنفتح الأبواب على مصراعيها أمامكَ. ألم تَرَ كيف فعل أجدادنا الأقدمون. وأهزُّ جسدي مستثاراً، وأنا أُحاول أن أُتابع،

برغم جوعي ، الكلمات . الكلمات التي تخرُّ فوق رأسي مثل مطر الربيع في «الجزيرة» : حبّات كبيرة مثل الحصى ، ولا يقي منها إلاّ الخُتول . وأصير أرى المطَر والأفْراس : أفراس الجزيرة الدهماء ، وهي تَلْطأ في أعطاف البيوت صافنات ، سابلات الذيول . داهمها المطر العاصف والريح . تحت زَخّاته تَصْفُنُ منهكَة ، وكأنها انتهَتْ ، للتوّ ، من السباق . ولا تعود الأحصنة تُهَمْهِم مثل ملوك غاضبين . الأحصنة ، هي الأخرى ، تَخْتُل مكتفية بهزّ أعرافها الجميلة ، نافضة عن هياكلها الجسيمة الماء الذي ينْكَبُّ من السماء . لكأنها تستحي من القَطْر ، مثل فتاة جميلة بَلَّلها القاذوف .

وفجأة ، قال وكأنه خرج من سبات عابر وقصير : أعرف أنك حسّاس ، ولذا أحب أن أحكي لكَ عما لا تفهمه ، الآن ، والذي ستفهمه جيداً فيما بعد . الحياة ليست هي هذه اللحظة ، فقط ، إنها كَوْم الأزمنة التي ستعيشها إن أمدك الله بعمر طويل . حاول ، إذن ، أن تدرك بعقلكَ ما تعجز عيونك عن رؤيته . هذا يكفي . والله . وأقفز كالجدي مبتعداً عنه ، وأنا أحييه بمودة : «أمي وصلت»! واسمع صوته الرقيق يُلاحقني من الخلف : روحْ ، ياعَجي . الله معاكْ .

وأنتَفض .أحس بيدها اللارقيقة توقظني بهزات متواطئة ورائحتها الحامضة ، مثل رائحة الجُلود المَدْبوغة ، تملأ أنفي ، وهي تتساءل بلا مودة (كانت من المرات الأولى التي نلتقي فيها) :

– نمتَ؟ أليس لكَ مكان تنام فيه؟

كنتُ قد وصلتُ قبل قليل إلى الحديقة ، باحثاً عن لحظات من الراحة والهدوء . ولذا أخفيتُ نفسي في ظل شجرة كبيرة معزولة ، لا يمر بالقرب منها أحد . لكأنها جَرْباء . وعندما استولى

أبو عرّوج على أفكاري لاحقتُه إلى صحرائنا بمتعة، راكباً غبار النوم الذي أخذني بسُهاده. كدتُ أنهرها: من أين نَبَغْتِ؟ وكيف وجدتِني في هذا المكان؟ لكنني ابتلعتُ كلماتي، ولم أقل شيئاً. وتابعَتْ هي وكأنها أمي:

- صحيح أن الحديقة نظيفة وهادئة، وهي مكان مثاليّ للنوم. لكن عليكَ أن تحذر النوم هنا، وخاصة في الليل. هل فهمتني؟

كنت حديث العهد بالفهم. ولا زالت مصاعب اللغة الجديدة، رغم طول الإقامة النسبي، تَرْبط لساني. ولأنها عرفتْ حُدودي اللغوية، كرَّرتْ قولها بشكل آخر. كرَّرَتْهُ بطريقة بدائية: الطريقة التي يستعملها العمّال الأميون من العرب والسود الذين جلبتهم فرنسا لتعبيد طرقاتها، وإنشاء «الأوتوروتْ»، أو طُرُق السيارات السريعة، وكذلك لجمع القمامة. وسأعيش حتى أرى كيف صار الفرنسيون الشُقْر، بسبب الإنقلابات الإقتصادية، يزاحمونهم على مثل هذه الأشغال التي كانوا يأنفون من ممارستها، قبل عقدين من الزمن.

وهي الطريقة التي كان الوافدون الجُدد، من أمثالي، يستخدمونها، أيضاً، متجاهلين قواعد اللغة الفرنسية (إذْ لم يكن أحد منا يَلُمُّ بها، مع أن بعضنا قد مَرَّ على وصوله دَهْر، وأغلبنا يدْرُس في المعاهد العليا والجامعات). لكأن اهتمامنا لم يكن لُغَوياً، ولا حضارياً، حتى أكون صريحاً. كنا مأخوذين بأمور الحياة الأخرى التي لا يبقى منها في عقولنا، بعد أن تنتهي، سوى الحُثالة والقشور. كنا نرصفُ الكلمات رَصْفاً. ونلصق بعضها ببعضها الآخر، دون اعتبار لقواعد النحو والصَّرْف. ودون تمييز بين الإسم والفعل والفاعل، والحال، وأدوات الشرط، وغيرها. ولأنها

قدَّرَت المستوى اللغويّ البائس عندي ، من الكلمات القليلة التي قلتُها ، أعادت جُمْلتها مقطِّعة بالطريقة نفسها :

- الليل نام هنا لا .

-١٢-

منذ سنوات وأنا لا أفعل غير ذلك .

اكتشَفْتُ المشي ، باكراً ، في الحَماد . في ذلك الإنفِساح الكوني الهائل ، لا وسيلة أخرى غير المشي بحثاً عن كل شيء : الماء ، والغذاء ، والحطب ، والصيد ، والعشق ، والخيانة ، والثأر ، والموت . القاعد لا يرى ، ولا يسمع . يقول أبي . ويضيف ، بعد أن يطرق القاع بمَطْرقه المجْدول من الخيزران ، وهو يَتَنَحّى الجهات : بلى! القاعد لا يدرك من شئون الحياة شيئاً . ولا مكانة له في صحراء مترامية الأطراف مثل بحر يابس . ويصير يتمتم ، وهو يهز رأسه ، وكأنه يريد أن يعلمني السَفَر : الفجر أحسن الأوقات للرحيل . تصل مكانكَ في الضحى . وترتاح ظهراً . وعند العصر تسير ! ولا يقول إلى أين يريد أن يتابع المسير . ولا متى . فقد كان يَتَطيَّر من التحديد والأسئلة والمواقيت . وكثيراً ما يَرُدُّ بامتعاض على مَنْ يسأله : وينْ يا أبو خليل ؟ وكأنه يستنكر السؤال : قدمي هي التي تقرر . تقرر ماذا؟ أحب أن أسأله لكنني أعيا عن الكلام أزاء الجُهْمة التي تلبس أنحاءه ، وهو يَتَشاغَل بتَشْذيب قَدَميه .

أتذكَّر . آه! السَرْوَة فجراً مثيرة ، ولا متناهية المعاني ، فعلاً . فيها ، نَتَقاود مثل قطيع من حيوانات أهلية لا همّ لها إلا أن تسرح

صُبْحاً ، وفي المساء تعود . وهو ما سيملأ حياتي ، لاحقاً ، بمشاعر خوف أزليّ من ذهاب بلا إياب . كنا صغاراً ، وكان العالم يبدو بلا حدود . والمشيُ هو وسيلة اتصالنا الوحيدة به . إنه واسطة الانتقال الأساسية بين نقطتين : البيت والمرعى . وبينهما يشكل الوجود مغامرة حقيقية . في ذلك الفضاء المجحف ، ثمة الغريب والحبيب . الذئب والثعلب . الأرنب والصقر . الكبش والخروف . ثمة مَنْ يحبُّكَ ، ومَنْ يتَحَذَّرك . مَنْ يعرفكَ ، ومن لا يعرف عنكَ شيئاً . الدنيا مكشوفة بقدْر ماهي مُخَبَّأة . قاسية وصَلْفَة بقدر ما هي ممتعة ولذيذة . بسيطة بقدر ما هي شديدة التعقيد .

لم نكن نعرف الحذر مِمَّنْ نعيش معهم ، ولا الالتباسات مع مَنْ نَهْواهم . كان كل شيء في متناول العَيْن . والقلب يرى ! كما يقول أبي . وحياة الصحراء من شدة بساطتها ، رغم كمية المكْر الكامنة في ثناياها ، تبدو ، لـمَنْ تَعَوَّد على العيش في فضائها اللامتناهي ، مكشوفة مثل راحة اليد . لكن راحة اليد لا تخلو من أثلام وكوابيس . وهو ما يوجب التَحَذُّر المستمر ، كما يقول . واليوم ، في حديقة اللوكسمبورغ بدت لي الدنيا مقلوبة : الحذر أولاً ، والنظر ثانياً ، قبل أن يخطو الكائن خطوته الأولى . المغامرة لا تخص العواطف ، وإنما الأمن الشخصي . والتَوَقّي من الجلفاء والمندفعين لم يعد مضحكاً كما في الصحراء ، صار مثيراً للتوتر والخوف . والآن ، ماذا أقول لهذه البَلْهاء التي حطَّت بكَلْكَلِها عليَّ مثل صقر جائع يحطّ على أرنب بائس . حطَّتْ عَلَيَّ وكلها رغبة واستنفار . لكأنني لم أكن أنتظر إلاّ ابْتلاعي من قِبَلها! إلاّ الولوج ، بلا مقاومة ، في فوهتها المفتوحة مثل فوهة جَفْر بلا قَعْر . أُوَدِّعها؟ لا! تركتها ومشيتُ . تركت المرأة التي حَطَّتْ عليَّ مرغوبة ، ومشيت . مشيتُ

هارباً . ولأول مرة أحسستُ بطَعْم الهرب اللذيذ .

لم أَلْـتَـفِـتْ . اسـرعتُ . أريد أن أصل قـبل أن يغلق البـاب . كنتُ أسكن في الرقم «١١» في شـارع فـوجـيـرازْ في قلب الحي اللاتيني ، على بعد عشرات الأمتار من ساحة السوربون الشهيرة . في مـسكن عـمومي للمشـردين ، والمهـاجرين ، والعـمـال ، والطلبـة الذين لا يملكون مـا يكفي من النقود لسَكَن منفرد وخـاص . كنتُ أسكن؟! كنتُ أهْجَع بالأحرى . فهو مأوى للغرباء التعسين ، من أمثالي . تديره أمرأة قوية . تتصرف مثل جنرال جيش منهزم . لا أحد يستطيع ، ولا يجرؤ ، ولا يريد ، أن يخالف أوامرها المقدسة . تهْتَمُّ بنا بحنان بالغ ، وبقسوة منهجية . وكان ذلك يليق بنا وبها .

كانت تُحَدِّق في وجوهنا بعطف وقسوة ، ولفترة طويلة ، كلما أصبَحْنا . لكأنها تريد أن تكتشف ما يُخَبِّيء كل واحد منا في أحشائه . ولم نكن نخبِّيء سوى القهر والحرمان والفَزَع . كنا نكتم أسرارنا بطريقة كهنوتية . لكل منا حكايته التي لا يريد أن يعرفها أحد . وسيكون هو أول مَنْ يحكيها عندما تسمح له الظروف . جئنا من بلدان بعيدة ، ومختلفة . وهذا الإختلاف البُلْداني ، والعِرْقيّ ، كان مصدر سعادة لا تقدَّر ، بالنسبة لي . كنا مضطربين ، ولكل واحد منا أسبابه . وفوق ذلك ، تعشعش في رؤوسنا عموميات غامضة لا نعرف كيف دخَلَتْنا ، ولا كيف نتخلَّص منها . لا أحد منا يُحْسِن التصرف في وضع جديد ، ومعقّد ، مثل الذي كنا فيه . الطاعة الإرادية لسيدة الفويّيْه ، وحدها ، كانت رد الفعل المناسب ، مع أن الوضع لم يكن يلائم دائماً أهواءنا ، كإغلاق الباب مساء باكراً ، مثلاً . لكنها شَرحَتْ لنا أكثر من مرة صعوبة دفع نفقات بوّاب ليليّ . وكانت تضيف بنوع من الإزدراء المكبوت : أنتم

بؤساء . والدولة الفرنسية تساعدنا بأقل ما يمكن . وعلينا إذا ما أردنا أن تدوم الحال على ماهي عليه (أي عدم إغلاق المهجع ، أو المَنْوَم ، نهائيًا) القبول بأسوأ الحلول من أجل تجنّب الأكثر سوءاً .

في الغرفة التي أسكنها مجموعة من الأسِرَّة المتراكب بعضها فوق بعض ، مثل أسرة جيش فقير . أصدقائي : سائس لأحصنة الشرطة من الكاميرون . لبناني يدَّعي السياسة ويحلم بوقت جميل . سوري صغيرالحجم من القصاع يعيد السنة الأولى من كلية الطب منذ ست سنوات ، وينادونه مع ذلك : دكتور . برتغالي ، عامل تنظيف ، قصير الجذع ، سريع حركة العينين ، صامت وحزين . ومن أمريكا اللاتينية شاب اسمر . يتكلم بهدوء ، وفي المساء فقط . لا يتقرّب من أحد منا وإن كان يحب الاستماع إلى لَغْطنا . ومن مصر ، فتى قصير القامة ، مجعّد الشعر ، يلبس أقمصة ذات ألوان متخالطة توحي بعدم الاهتمام . له نظارات سميكة خضراء اللون . يمشي مهرولاً وكأنه ذاهب للقاء أهم الكائنات وقد تأخر عنه ثوانيَ . لا يحب الكلام إلا معي . يلتقي أحياناً بصديق له ، مصري مثله ، يسكن خارج المهجع . هذا الأخير لا يزوره إلا في المساء ، وفي نهاية كل أسبوع ، حاملاً خوذة قيادة «الموتور» العتيق الذي اشتراه لحسن حظه ، كما يقول ، من عجوز على حافة قبرها (موحياً لنا بأشياء أخرى لا يريد أن يتكلم عنها صراحة ، أمامي على الأقل) .

لكن الصديق الذي سيملأ أمسياتنا الكئيبة بحكاياته التي لاتُنْسى هو الحَلَبي «محمد خيّاط» . و«خياط» ليست كنيته ، وإنما مهنته . فهو ، كما يقول ، «ضَرّيب إبرة» . ودور الأزياء تتسابق للحصول على «مهارته» . كان طويلاً ، نحيفاً ، أبيض البشرة ،

بعينين خضراوين ، ووجنتين بارزتين . وجهه ناشف يشبه إلى حد كبير وجه الممثل «جاك بالانْس» ، إنْ كنتم رأيتموه في فيلم «الاحتقار» . وكثيراً ما كنا نناديه بهذا اللقب الذي يسرّه كثيراً . «محمد خياط» يَسْري كل يوم ، فجراً ، ليعود في المساء . يمشي مثل ديك متغَطْرِس . ومنذ أن يلج الباب يبدأ في سرد حكاية جديدة تثير دهشتنا . لم نكن نعتقد بصحة كل ما يروي ، وإن كان ما يرويه ممتعاً .

سألتقي به بعد أعوام وقد غدا متشرداً ، جائفاً ، وسخاً ، إلى درجة أنه تجاهلني عمداً . لكنني تشبَّثْتُ به بقلق وحُب : «محمد»! ناديته . وتجاهل النداء . تصامَم ، وكأن النداء اعتداء عليه . لحقته . ومن زنده النحيل جررْته : «توقف»! وقَفَ حائراً وهو يتطلّع إلى الغيم . كنا في ساحة «اللوكسمبورغ» . في مواجهة «حديقتنا» القديمة ، التي قضينا فترات رائعة تحت شمسها الخريفية . فيها كنا نتعابث مثل ثعالب بلا رقابة . على مقاعدها المنتشرة تحت الأشجار تبادلنا النظرات والابتسامات والكلمات . كنا صغاراً ، والعالم كان كبيراً . أكبر من مُخَيّلتنا بكثير . وهو ما ملأ عقولنا المحدودة بآمال لا حدود لها . بأوهام مبتذلة ، بالأحرى ، ستتحطّم على قَسْوة الواقع ، وستذوب ، منذ أن تلامسه ، مثل حُقٍّ من الزجاج الرخيص محشوّ بالغُبار .

لكن «الخياط» لم يعد من أهل ذلك العالم البهيج ، كما بدا لي . سألته : كيف حالكَ ؟ أجاب باقتضاب مرعب : حالي؟ لم أفهم مما قال شيئاً ، مع أني فهمتُ الكثير . باصرار جديد ، سألته : إلى أين كنتَ ذاهباً ؟ وردَّد وهو يضيع في سمت الحديقة : ذاهباً ! كنتُ أريد أن أعرف أي شيء عنه ، فأنا لم أره منذ سنوات . وطيلة

هذه السنوات كان يقبع مثل حلم جميل في رأسي. لكنه لم يعد يريد أن يعرف هو عن نفسه أي شيء، وبخاصة، ما يتعلّق منه بذلك الزمن البهيّ الذي ولّى. كنا سعداء، يومها، برغم بؤسنا، أو بسببه ربما. ما أشدّ غبائي! وأي فرق؟

ما هَمَّ! كنت أتصوّر أن «محمد خياط»، لا زال في موقعه القديم على الأرض. على أرض كانت جديدة ومغرية، برغم كونها خطيرة. كنتُ أحب أن أسمعه يتكلّم متبجِّحاً، كما كان يفعل من قبل. يتحدَّثُ مثل مسافر رأى العالَم، واختبَرَ الكثير من المشاغل والأمور، وأنفق الكثير من الوقت في سبيل حيازة ما صار يملكه، الآن. إلا أنه، بدلاً من أن يحكي بصـــوته الأجش اللطيف، وبحركة عينيه الذاهلتين مع أنهما يتفَحَّصان المستمع بلا انقطاع، رفع بصره إلى الغيم الأبيض الخفيف. غيم خريف باريس الشهير. وأفْرَجَ، بيأس، عن ابتسامة غامضة من بين شفتيه، وهو يقول «صوتاً» بلا معنى.

أخذته إلى أقرب مقهى في ساحة «اللوكسمبورغ»: «لو ديبار» (الرحيل). فيه جلسنا بهدوء، كما كنا نفعل في الأيام الخوالي. شربنا القهوة التي نحبها. طلبتُ له شيئاً يأكله، فرفض بتصميم، هازّاً رأسه دون أن يقول أي كلام. سألته من جديد عن مصيره الذي بدا لي مقلقاً، فأجاب: «لا». لا! حافية، دون أخاديد؟ لم أستطع أن أربط بين ما كنتُ أفكر فيه، وبين ما قال. ابتلَعْتُ كلماتي الباقية التي كانت تقف على رأس لساني. وفجأة نهض. وبلا صوت، مشى. وقبل أن يبتعد، تطلّع إليَّ بحنان، وكأنه يودعني إلى الأبد.

بقيتُ قاعداً. أُلاحق مشيته الهادئة مثل مَنْ يسير فوق الماء.

كان يشمخ برأسه ، متطلعاً إلى غيم الخريف الذي ابتلع أحلامنا ، وكأنه الوحش الذي لا يُقاوَم . كنتُ أحس بتنفسه العميق ، وهو يباعد ما بين كتفيه ، مثلما كان يفعل قديماً عندما يروي غرامياته المتخيلة ، ونجاحه المهني الذي لم يكن ، كما أرى اليوم ، إلاّ كابوساً . كابوس الغربة التي تلتهم النفوس . كَفى ! قلتُ في قلبي ، وأنا أريد أن أعرف المزيد .

-١٣-

في طريقه إلى حديقة اللوكسمبورغ ، هذا اليوم ، سيحاول أن يتخلّص من كوابيسه ، ومن اضطراباته العالِقَة بنفسه مثل وَحْل الجزيرة اللّصّاق بالأقدام . سيمشي مثلما كان يفعل أهله منذ عصور . يمشي متفحّصاً العالم الذي يمر به بعينين نافذتين . ولكن ، من أين يأتيه ، الآن ، ذلك الاحساس الذي لا يمكن الخلاص منه؟ الإحساس المتذَمِّر المملوء بالعدائية والنفور . عدائية لا مُبرَّرَة ، ونفور مبهم وغير مفهوم . لا موضوعهما واضح المعالم ، ولا منهجهما محدد السمات . إنهما بشكل من الأشكال موقف موحش من الدنيا ، ولا يعبّران إلا عن قلق الصحراء القديم الذي لا مفر من معايشته .

يمشي صامتاً ، ووجهه في القاع . يطأ الأرض بتهيّب ، وكأنه يدوس على أفعى نائمة تحت تراب الجزيرة الناعم . يتذكّر طريق الشمال القديم بين «السَنْجَق» و«عامودا» . طريق التراب المَطْحون من كثْرة ما مرعليه السائرون : البغال المحمَّلة ، والجمال ذوات العُدول المتوازنة على أجنابها ، والحميرالمَرْكوبة فوق أثقالها ، والكائنات الحافية ، والوحوش . تراب الجزيرة المليء بحرارة الشمس ، وكأنه يختزنها قصدًا ، والذي يلتصق بالاقدام كالعسل المَحْرور . الطريق

التي يلتحم الأحياء في أطرافها بمكر وتعابث . ويصير يغمض عينيه حتى لا يرى ما يعرفه جيدًا .

يمشي منخفض البصر ، مملوء الفؤاد بالمودة والوَجْس ، مستعيداً أوقات طفولته الآسرة : الطقس جميل ، والفجر بدأ في البُزوغ ، وأمه التي انحازت عن الطريق لتبول مختبئة خلف كَوْم التراب ، ها هي ذي تعود . قريباً سيحطّون الرحال في أطراف «عامودا» . يبيعون الجَلّة ، والأزبال ، والحراشف . وبأثمانها سيشترون الخبز والدبس والتُمور . وإن ساعدهم الحظ ، ووجدوا «أعشى عامودا» القصير ، الرجل المُسَمّى «جَلّو» ، سيرتاحون عنده قليلاً قبل أن يعودوا . ومن دِنانه الفُخّارية المختبئة في الظلال ، سيشربون ماء قراحاً . ماء مُحَلّى بالمشمش والسُمّاق . وقد يَلْقَح لهم بعض قشور«الدِبْشي» ، وحُزوز البطيخ الأصفر الفاسد . ويأكلون . يَلوكون ما لا يُؤْكل ، بالأحرى ، وإنْ كان يملأ الفُؤاد(كما يقول أبوه) .

سيهبطون إلى الوادي القليل العمق ، الذي نشفَتْ أمواهه ، والذي يشقّ المدينة شقّين مثل سكين حادة . على جيلانه سيربطون حميرهم وبغالهم منتظرين زوال الحرّ قبل العودة إلى الآفاق . وفي العُصَيْر ، عندما يعودون إلى حيث أوثقوا دَوابهم ، ستكون الكارثة قد حَلَّتْ : الحمار الأصهب السريع أخذه الذئب . والذئب لا يأخذ أي حمار . إنه لا يبحث إلا عن «الشَهاري» ، أمهات الأعناق الشامخة ، والظهور القوية ، والأعضال التي تحمل الأثقال . ولكن مَنْ هو الذئب؟ مَنْ هو ذئب الحمير الذي دَوَّخ عامودا ، وأرعب الآتين من الأقطار؟

وعلى الفور ، يبدأ أبوه التحرّي عن الذئب السَرّاق الذي يلوّع الأمهات . ويجبرهن على حَمْل أثقالهنّ . ويملأ عيونهن بالدموع

الصامتة الخجولة ، لأنهن فقَدْنَ مراكبهن . ويجعلهن يَلْعَنَّ «عامودا» التي حلمن منذ أشهر بزيارتها . وستقع أمه على القاع وهي دائخة من شدة العذاب . وسيكون هو واقفاً عند قدميها ، مملوء باللوعة والعجز ، تماماً ، كما يقف الآن على حافة الكون ، بعيداً عن ذلك الزمن الآسر .

واليوم ، في طريقه إلى الحديقة دون موعد مع أحد ، لا معه ، ولا معها ، يعذّبه ظمأ قاتل إلى الحقيقة . لكنه عن أية حقيقة يبحث؟ وكيف له أن يصل إلى ما يريد ، وقد صار كل شيء هباء؟ هو ، الآن ، يحس ، ويعرف ، أن الأمور لا يمكن تجميدها ، ولا الإذعان لها ، وإنما يجب تحديد خط السير برفقتها ، وانتظار الفرصة الملائمة للافتراق عنها . لكنه كثيراً ما أخطأ . وأكثر من ذلك ، كم مرة ترك الباب مفتوحاً وهرب . وهو ، وحده ، يواجه الآن ذلك الماضي المحمّل بالشغف والإنكسارات . هو الذي اختار ذلك . وهو الذي حدد خُطَّة حياته ، هذه المرة ، في المجاهل الجديدة . وعليه ، وحده ، تقع مهمة التخلّص من ذلك الإرث المعرفي الذي شَهِد بؤس روحه .

عند باب الحديقة وقف ساهماً . جسده ساكن . وروحه معطوبة . روحه تتحرك في أعماقه بسِرِّيَّة وهدوء ، مثل سلحفاة برية تبْحَش التراب المحروق بالشمس باحثة عن الاحتِماء منها ، بلا أمل . إلا أنها لا تيأس .«فالحياة أقوى من اليأس» ، كما قال له «رجل الحديقة» الذي صار ، الآن ، «صديقاً» . ولكن ، عَمَّ تراه يبحث هذا اليوم؟ وكيف له أن يقول بوضوح ما لا يعرف كيف يميّزه ، بعد؟ لماذا لا يلج الحديقة ، إذن؟ لماذا لا يعود أدراجه؟ لماذا لا يتابع السير صامتاً إلى أن . . . .ولماذا عليه أن يفعل أي شيء آخر ، إن لم يفعل هذا ، الآن؟

أوه! لماذا يعذبه، اليوم، هاجس غريب للعودة إلى حقبة انْدَثَرَتْ؟ وأياً كان الأمر فهو لم يكن المسئول عنها، ولا عمّا آلَتْ إليه. وإنْ صدف وكان، فهو لم يعد كذلك. وفي النهاية: ما نفع التشبّث بما فات، أصلاً؟ كما قال له «الحدائقيّ» ضارباً عرض الحائط بكل هذه الأحاسيس المقيتة. فليَضَعْ كل شيء تحت قدميه، ويَمْشِ. فكَّرَ. إلاّ أن قلبه لم يُطاوِعْه. فما يحرك عقله، ويثير عواطفه، ويملأ رأسه، مازال حاضراً بقوة في كيانه. منه تنبعث طاقة الوجود العظيمة لديه. عليه، إذن، أن يتحرّى باصرار، وبشكل مستمر، عن بؤرة العطب التي تأكل سعادته، وتحرق شبابه.

للحظة، أدرك أنه ذهب بعيداً. أنه أضحى مقصيّاً عن كل شيء حتى عن ذاته القديمة. وهذه الاشجار العظمى ذات الألوان المتناسقة مثل أثواب عروس في «الجزيرة»، تؤكد له ذلك. لقد صار، أو بدأ، يدرك أن الحياة متعددة الاسباب والأنساق. وأننا لا نخطو خطوة بلا هدف حتى ولو بدت لنا كذلك. لكن هذا، وحده، لا يكفي لكي يُنْشيء حياة جديدة مختلفة عن الأولى. لا بد له من عمل إضافيّ، إذن. ولكن ما هو هذا العمل المنتظر مثل نبوءة مَلْعونة حتى قبل أن تتحقق؟ أحس بابتسامة غامضة تنبثق من بين شفتيه وكأنها تغتصبهما. وتَعَجَّب.

لقد نسي الابتسام منذ أن أكل قلبَه الضجر. كان يعتقد أن الرحيل سيخلّصه من كل شيء لا يحبه. وها هوذا يراه وكأنه الحبل الذي سيخنقه بهدوء بعد أن التَفَّ حول عنق وجوده اللامحتمل. تَحايَل على نفسه لتقبله، لتقبل ذلك السَفر- الحلم بأي شكل تَمَّ. وها هو، الآن، بعيد، وغير سعيد. ولكن مَنْ قال إن السعادة هي هدفه الوحيد، في الحياة؟ لكن تلك البسمة البلهاء

التي غامرت بإنقاذ نفسها من وجومه المكفهر جاءت عندما صار يستعيد سحنة «رجل الحديقة» الذي كان، هو الآخر، أكثر عُبوساً منه، وبخاصة عندما يتكلم. هو لا يتذكّر السبب الذي دفع صديقه إلى الكلام، وإنْ بدا له، الآن، شديد الوضوح. يومها، قال له بمودَّة، وكأنه يريد أن يقنعه بما هو مقتنع به، أصلاً: الحياة بلا مأساة لا تساوي شيئاً. إنها مَلْساء. لا تُعلِّمنا أمراً. لا نحبها. ولا نكرهها. إنها ضياع للزمن.

ما شغَلَه، آنذاك، لم يكن هو الإهتمام الباذخ، كالعادة، بكلمات «صديقه»، ولكن التحَفُّظ المريب حول توقيت حديثه اللامتوَقَّع. ووجد نفسه يغطس في وَحْل السؤال: لِمَ تراه يتكلَّم، الآن، عن هذا؟ وبعد أن تبَصَّر«الصديق» في وجهه، وكأنه يريد أن يُنَبِّهه إلى ما هو أبعد مما قال، أضاف: الزمن هو الشيء الوحيد الذي نملكه في الوجود، مع أننا لا نستطيع القبض عليه. ودون أن يهتم بما كان يعتَمل في نفسه، أكمل كلامه: ونحن لا نَحسُّ بمروره، إلاّ عَبْر تذكُّرنا لما عشناه فيه. ولما رأى الإلتباس في عينيه، أوضح مقاله: الذكريات تُلَخّص الحياة. وهي، كلها، جميلة، حتى تلك القاسية منها. والحياة الخالية من الذكريات تبدو ملساء وباردة مثل سطح من جليد. ودون أن يتنَفّس، وكأنه على عجلة من أمره، تابعَ بسرعة: حياة مَلْساء مثل هذه، ننساها وهي في عيوننا. ولكي يوصله إلى النقطة المبتغاة، لاطَفَه، وهو يتابع الكلام: أنت تعرف ولا بد، أن الحياة بلا ذكرى هي الموت الأكيد. لماذاتحاول الهرب من ذكرياتك، إذن؟ سأله «الحدائقي»، دون أن يتلقّى منه جواباً. فمأساته كانت ضياع حمار أمه التي لا يعرف كيف يشرحها له؟

-١٤-

يصرخ .

ويصير يصرخ في غبش الصبح : يُمَّا . يُمَّا . يراها تَخُبُّ ، أمامه ، في ندى الفجر قبل أن تبتلعها سهول «الجزيرة» المغمورة بالضباب ، ووديانها . السهول الحُمْر الراقدة على الأرض مطمئنة إلى تاريخ لا مثيل له ، والوديان المتعرِّجة كبطون الأفاعي . ويردد الصدى : يُمَّا . يُمَّا . في ذلك الفجر الأزليّ ، كانت التلال النابعة من القاع تبدو له ، من بعيد ، مثل نُهود لا يمكن لَمْسها . قِباب شفّافة محاطة بغلالة من نور مغرق في التاريخ . نور بَهيّ يدفع الكائن إلى الحفاظ على أسراره ، وبخاصة ، الأكثر قدسية منها .

في البداية ، عندما تركَتْه ، تربَّع على التراب مطمئناً . وبرغم خوفه الداخليّ من شيء لا يعرف كيف يصفه ، تَرَبَّعَ آمِنًا ، وكأن آلهة الكون تحرسه . آلهة ، يتصوّرُها ، تحترم رغبة الكائن أيّاً كان ، وبخاصة رغبته هو . وبدأ يقرأ عليها أُمنياته ، ناثِراً بذاره النفسي في قيعانها ، منتظراً فصل الخصوبة الذي لا بد أن يعود . تماماً ، كما تفعل أرض«الجزيرة» الحمراء عندما تقذف بأنْباتها كل ربيع .

لكن الوقت طال . وانقلب الأمان رعباً . وبدأ يصرخ . يصرخ ، ولا يسمعه أحد . ابتلع الضباب المرأة التي انحدرت إلى أعماق الأرض ،

تزحف على أربع وكأنها دابة من عصور أخرى . الهواء البارد الهابط من «زوزان» يشعل الجسد رغبة في النار . لكن الأحطاب المبلولة بالندى لا تستجيب للوقود . حطب مُعَنِّد ، ونار فاهية ، في برد «الجزيرة» الزمهرير! بَرْدُ غبش الصبح المَكْنوس من جبال «طوروس» ، والمقذوف إلى السهول الواطئة المرمية بلا شفقة تحت رحمة قُمَم أرارات .

يصرخ .

يرفع ذراعيه الواهنتَيْن عالياً . ينادي بهما الشمس التي اختبأت ، هي الأخرى ، في جوف الكون خشية القَرَس والبَليل . يناديها ، يستجير بها ، بانتظار أن تصعد المرأة العَلْوَة ، من جديد . تصعد محملة بدفئها ورضاها . يسبقها شغفها الوَجِل لتحضنه ، صارّة إياه بقوة تبعث الحياة فيه . وبانتظار أن تصعدا : الشمس والمرأة ، لم يكن له إلا أن يرتعش على حافة العدم . أن يقاوم الزمهرير ، لامّاً أعضاءه ، متكوِّراً مثل ثعلب مكشوف ، منتظراً لحظة الوصول ، مُلْقياً بنفسه في أبدية الرُؤى والأحلام .

ماذا يفعل؟ لَمَّ التراب حول قدميه اليافعتين اللتين أصبحتا مثل خرقة مبلولة . لا يلبس حذاء . وليس لديه من الجوارب سوى خرَق الصوف . صوف النعجة البيضاء التي جَزَّها أبوه قبل أشهر من الآن . من صوفها الخَضِل غزلَتْ له المرأة البِسَة وقفاطين . ولرجليه أَجِلَّة ولُبوسات . حَطَّها ، كلها ، حول قدميه اليابستين من شدة البرد ، واللتين لم يعد يراهما من كثافة الضباب . أين انحدرَتْ وتركَتْهُ مثل جرْوٍ صغير؟ لا بد أن تأتي ، وأن تأتي بماء ساخن ولُباخات . ولكن منْ أين لها بمقومات الحياة ، هذه؟ لكنه يعرف أنها ستعود . وستعود محمَّلة بما يشتهي من أجل أن يتابعا الطريق . احتمالان لا ثالث لهما كانا أمامه : يحيا ، أو يموت . وقرَّر أن يحيا .

تذكّر جرْوَه الصغير«سمْر» فالتَفَّ ، مثله ، على نفسه ، واضعاً رأسه بين رجليه ، كارِفاً رائحة خصيتيه ، متدثراً بأسْماله . وأخذه النوم والهَرير . برأسه طافت الصُور والأخاديد . رأى الغلمان اللؤماء يحومون حوله كما يحوم الذباب حول زِبْل طريّ . ماذا يريدون منه؟ حاول أن يَتَلَقَّف الريح بيديه اللتين كتّفَهما داحساً أياهما في عُبّه . لم تطاوِعْهُ الحركات الاسطوانية الملأى بالهَرَش والدَبيب . لم يصطد أية ذبابة . وهو ما كان مصدر قلق لا يُحتمل عنده . وظلّ الضباب يتكاثف ، حوله ، مثل رمل يُدَثِّر القاع .

أحس بالصقيع يدخله مثل الإبَر الواخزة . هو يعرف صقيع الجزيرة القارس . ويعرف ضبابها المختال عندما يجتاح السهول . لكنه لم يكن يعرف هذا العُباب الكوني الذي يلتهمه الآن . فخاف عليها من الابتلاع . من ابتلاع الوادي لها كما تبتلع الأفعى العمياء فاراً أصابه العطب . وكما ابتُلع هو ، الآن ، من قبل البَرْدَة والضباب . وغاب . عندما أفاق وجد نفسه محشوراً في جلد عنز ، وهي عند رأسه تهدهده : ضعْتُ عنك . كَتَّفَني البَرْد . وأعماني المطر والغمام . ولم أعد أقدر أن ألْقاكَ . وعندما وجدْتُكَ ، كنتَ كَعْكَة من جَليد . شَقَّيْتُ هدْمي ولَفَفْتُك به . وبين جسدي والثوب وضعتك . طرَحْتُكَ أرضاً ونمتُ عليك ، كما تنام الناقة فوق حوارها . بلهيب قلبي أدفأتُك . وبلساني نفختُ الروح فيك .

كانت تحكي ، ولم يكن يربط الكلمات بأسبابها . طنين الكلام في رأسه يشبه إلى حد بعيد طنين الزنابيرالحائمَة حول جَفْر فاسد في«الجزيرة» . مع ذلك ، كان الضجيج الأصَمّ يُشْعِرُه بأنه لا زال حياً . كان ذلك قبل أعوام من لقائه بـ «أبو عَرّوج» الذي سيحكي له كثيراً عن مكْر النساء .

-١٥-

السَيْـرُ المتلَجْلج في شوارع باريس الضـيقة ، أبْعَـدَني ، مؤقـتـاً ، عن تلك التوتّرات التي هَزّتني بعمق . وفي الحقيقة ، بدأ ، هنا ، نوع من اللامبالاة ، أو ما يشبه ذلك ، يستولي ، من وقت لآخر ، على نفسي . أحياناً ، استجيب له بقوة ، وأقاومه ، أحيانًا أخرى . نوع من اللامبـالاة؟ لا! ضَرْب من الإرتباك . إرتبـاك ممتزج بتوتّر خـفيّ لكنه محسوس بعنف . أما الأمر المُضيء الذي أنَعشَ قلبي فهو اعتقادي الحـاسم بأن لكل سـدّ منفـذ . إذْ لا بد للكائن المحـصـور من درب يُخْـرجـه من الضـيق إلى السـعـة . ومن الجـهـل إلى المعـرفـة . ومن الحـمـاقـة والتسـرّع إلى النبـاهة والتـرَوّي . عند هذه النقطة ، كـدْتُ أضـحك من نفسي ، وقد تذكـرتُ أن ذلك هو ، تماماً ، مـا كـان أبي يردده صباح مسـاء ، في لهب الصحراء . ومع ذلـك ، ظَلّ غـارقـاً في عُسْره الذي لم يَلِه يُسْر .

مـضى على وصـولي إلى باريس زمن طويل ، ولـم اسـتـوعب الحال التي أنا فيها . بسبب جدّتها؟ لا! لسبب آخر ، أنا الآن عـاجز عن توضـيحـه . عندما وصلتُ إلى هذه المدينة كنتُ أحسـب أنهـا ستحققني بانتشائها وتمرداتها منذ أن أطأ أرضها . لكن حياتي ظلّتْ على حـالها الأولى ، تقريباً . يا للخيبة! سائراً بين الكتل البشرية

والأشجار ، كنتُ أفكِّر بهذا ، مُسْتَعيداً ، في الوقت نفسه ، مقولة «رجل الحديقة» التي أرَّقَتْني كثيراً : بساطة الفكرة عمقها . أستعيدها لأنني استمتعتُ بصيغتها؟ لا! كنتُ أبحث فيها عن خيط دَليلٍ أجُرُّه ، أو يجُرُّني هو ، حتى أبلغ الهدف . ولكن ، أي هدفٍ يمكن بلوغه؟

هذه الخاطرة ، شَغَلَتْني كثيراً . وبقيتُ أدور حولها بلا ثقة ، أو إيمان . وأحياناً ، تظل تدور في رأسي حتى بعد أن أبتعدَ عنها وأغيب . أغراني فيها الجَمْع بين البساطة والعمق . وعندما دخَلَت الفكرة بينهما ، قَلَبَتْ كل شيء ، أو انْقلَب الأمر دون أن يكون لي مأخذ عليه . كنتُ لا أزال مشْغوفاً بالإلتماعات الذكيّة التي تستنبط الأفكار من الأحجار . وكان ذلك يغريني كثيراً ، لأنني كنت أعتبر حياتي خالية من كل فكر سليم . ولكن ، ماذا يعني ذلك ، كله ، بالنسبة إليّ ، غير إنْهماك لا مُجْد بأمورلاأهمية حقيقية لها؟ أوَليس هو مجرد لَغْو أُشْغِل نفسي به في هذا الشارع الباريسي الجميل ، وقد تَجاهلَني الجَمْع الهادر الذي يمر بي بلا اكتراث؟ والذي يبدو عدم اهتمامه بي وكأنه إزاحة لي ، وإبْعاد : إعادة قَسْرية (دون عنف) إلى عَتَبات الوجود الأولى التي عانيتها من قبل؟ أم . . .

بصقتُ مابقي في فمي من كلام ، وكأنه حُثالة مُرَّة لم تعد لي طاقة على تحمُّلها . أو كأن للكلمات لزوجة حسية لا يمكن التخلّص منها إلا بالسكوت . وأنا «أفْضَل مَنْ يعرف ذلك» ، كما قال «رجل الحديقة» الذي يكاد أن يكون ، الآن ، صديقاً لطول عِشْرتنا . وأصير أتَلَمَّظ بالكلمات التي لها بالفعل لُزوجَة ومَذاق ، وأنا أتَضايَع في أمواج البشر ، وتلافيف الضوء ، في أول الليل الباريسي الآخذ

بالدَوَران : أفْضل مَنْ يعرف ذلك ؟! ولكن ، لماذا صرتُ أشعر أنني أبتعد عنه ، كلما اقتَربْتُ منه؟ ولِمَ بدأْتُ أفكِّر في قطيعة محتَمَلة معه؟ ألسبب يتعلّق بالوجود ، وقد أحسستُ أنه بدأ يتدخل في مصيري ؟ ولِمَ لَمْ ألْحظْ عليه أي اهتمام عندما خَطَرَ لي أنه يعرف ذلك؟ على العكس ، إزداد نقده لي حدَّة . لكأنني بموقفي العدائي الصامت أشعلتُ نار الفتنة النقدية في عقله . فَصَفا .

في خضمّ البشر العابر ، وبين أمواج الحشود ، أجده واقفاً ، متهيّئاً لاستقبالي ، وكأننا على موعد . لقد ضاع الجهد الذي بذلته منذ أول المساء للتخافي عنه هباء ، إذن . لكأنه مُعَلّق بشليلي ! كما كانت أمي تصفني وقد ملَّتْ من متابعتي لها . في مواجهته ، أقف مذهولاً للحظات قبل أن استعيد نَفْسي من الغيم . وإزاء ابتسامته المريبة أضع على شفتيّ ابتسامة مماثلة ، وإنْ كانت خاملَة .

ذلك اليوم ، بقيتُ صامتاً لفترة طويلة ، أُحدّق ، من فوق رأسه ، في الأشجار العملاقة التي بَلَّلها الندى ، وأتابع ، ممتعضاً ، هيئات البشر الذين لا يتوقفون عن السَيْر . وفي رأسي تتخالط الأفكار : لكأن الأمكنة تستولي على كائناتها ! أتكلَّم مُختبِئاً في ذاتي (وكنتُ مكشوفاً ، ربما) . وأتابع الحديث في قلبي : بتغييرالأمكنة ، لِمَ تتغيّر العواطف والأهواء ؟ أتساءل بصمت . ولكن مَنْ . . .

ولكي لا أبتعد عنه كثيراً ، وقد أحسّني ابتعدتُ قليلاً ، وكأنه هو الآخر يخشى عزلته ، قال بنفور : «أنت لا زلت تغرق فيمَنْ كنتَه من قبل . عليكَ ، الآن ، أن تهتم بمَنْ ستكون» . وعندما رآني مضطرباً ، اغتبَطَ كثيراً لأنه لا زال قادراً على إثارة القلق عندي . وبعد أن لَعَق شفته السفلى التي كانت بالية ، أكمل ، وكأنه يريد أن يزيل كل ما يُعيق وصول المعنى إليَّ : برغم كُبْر همومك ، أحس

أن تطلُّعاتك صغيرة ، وكذلك طموحكَ . ويؤسفني أن أقول إن تعبيركَ عنهما يزيدهما ضآلة ، وصغراً . ولمّا بقيتُ صامتاً ، وإلى حد ما حيادياً ، تابعَ بهدوء مثل جَرّاح يُشرِّح جثَّة : الحياة ليستْ فرصة لكي نفعل ما لا نريد ، ونقول ما لا نفكّر فيه ، فقط . أصابَتْني هَزَّة في القلب من جراء سماعه . لكأن أرادتي وعقلي وعواطفي وأهوائي بين يديه . ولم أكن أحسب أن لديّ كل هذه المُنَغِّصات الوجودية .

ودون أن يهتم بما اعتراني من كرب ، أضاف ، وكأنها فرصته الأخيرة للكلام : لاتَقْلَقْ! لا شيء يستحيل على مَنْ يُريد أن يفعل شيئاً . بعد ذلك ، استدار عني وكأنه سئم من نفسه ومني . أو كأنه كان ينتظر اعتراضي «الغبي» الذي وقف فوق لساني ، ولَمْ أقُلْهُ . أنا ، الآخر ، صرت خبيثاً . صرتُ أعرف أننا يجب ألاّ نقول كل ما نفكّر فيه ، حتى ولو طُلِبَ منا ذلك . وليس علينا حرج من الإختباء داخلِ ذواتنا ، ريثما تتوضّح الأمور . ومع أنني كنت في أعماقي موافقاً على كل ما قال ، إلاّ أن تلك الموافقة الموقّعة على بياض عقلي بدأت تقلقني . لقد صرتُ مقتنعاً أننا : منذ أن نبلغ الوِفاق نفترق . لماذا؟ لأننا نكون قد خَطَفْنا ، أو قَطَفْنا ما كان ينقصنا من إدراك ، ولو ضئيلاً ، مِمَّنْ كان يقودنا وراءه . إدراكٌ مُحَرِّرٌ ، يكفينا للإفتراق عنه . ودون افتراق عاطفيّ كبير ، لن نكبر .

رآني ساكناً ، أكاد ألاّ أقوى على الحركة . وكان ذلك بتأثيرالإضطراب العميق من جرّاء سماع كلماته . وهو ربما ما دفعه إلى أن يقول بهدوء ، ولكن بتصميم أكثر ، بعد أن استند على جذع شجرتنا هائلة الأغصان ، كثيرة الأوراق ، التي كنا نحتمي بها عندما تمطر ، أن يقول بعد أن استراح من توتُّره المفاجيء ، متَطلِّعاً بوقاحة في هيئتي وكياني : لا تغضب مني ، سأقول لك شيئاً

مزعجاً ، لأن في قلبي أمراً آخر ، شديد الإرْباك حولك لم أعد أستطيع تحمّله ، ولا إخفاءه عنك . وهو في النهاية شأنكَ أنتَ ، لا شأني أنا . لكنه بدأ يقلقني ، وسيعذّبني إنْ لم أقله لكَ . شأن استَلْهَمْته من تصرفاتك الصغيرة (الصغيرة ، فقط؟ فكرتُ صامتاً وأنا أستمع إليه) . وسكتَ قليلاً قبل أن يتابع : كان يمكن لي أن أحتفظ به إلي . . . لكنني كنت سأعتبر نفسي مرائياً وجباناً . أُماليء صديقاً ، وأُغمِض عينيَّ عن عاهاته ، بدلاً من أن أساعده ليفتَح عينيه على اتساعهما ، عَلّه يرى بنفسه ما ألومه عليه . فيتجاوزه إنْ شاء .

وسكتَ ، من جديد . سكتَ ، حتى خلتُ أنه لن يتكلّم ، من بعد . أو أنه ندم على ما قال . وقد يغيّر الموضوع ، ويدّعي أنه كان يمزح ، و . . فوجدت نفسي ، أقول بنوع من التحدي والرَّغْم : أنا أعرف نفسي . وأستطيع أن أتحمّل أي نقد يصيبني . فلا تقْلَقْ بشأني . إحكِ . ورأيته ، يستعيد نَظَره من التراب ، ويحُطّه في عينيَّ ، وهو يقول بنوع من التردد والمعالجَة : «لاحظْتُ أنك خَضيع»! وقبل أن استوعب المقال ، تابع : لا يخطرَنَّ لكَ ما لم يخطرْ لي على بال ! (وكيف لي أن أعرف ما خطر له) . وعلى الفور أكمل : ولتَكُنْ على مستوى وعي الحياة الضروري الذي يجعلنا نتجاوز مثالِب الكلام ، ولا نتعَلّق إلاّ بالأساسيّ منه . ونظر الغيم بعينيه الضيّقتَيْن ، وجفونه المرتعشة ، وهو يؤكِّد : وعلى أي حال ، لا تقوم صداقة حقيقية على الممالأة والنفاق ، ولكن على . . . وسكت .

لم أفهم مِمّا قال شيئاً . لكنني تابعت الإصغاء بصمت ، وكأنني أعرف أن البقية ستأتي . وبالفعل أكملَ كلامه بنوع من التردد ، وكأنه لم يقل ما يكفي ، بعد . أو كأنه بعد الهَزَّة التي

أصابتْني (وقد رآها بقلبه وعينيه) ، أراد أن يُخَفِّف عبْء كلامه عليَّ ، فقال متودِّداً : أقصد أنك تحب أن تبدي طَبْعاً سَمِحاً ، ووجهًا رضيّاً ، حتى عندما يُعَنِّفك الآخرون . ولا أدري إنْ كانت تلك حيلة من حيل الحياة لديك ، أم هي خاصة من خواصك الشخصية . المهم أنني أحب أن أعرض ذلك عليكَ بأقصى ما أستطيع من الوضوح . وبعد لحظات ، تابَعَ : وقبل أن تقاطعني (وهو يعرف أنني لن أفعل ذلك . ولم أكن به جديراً ، أصلاً) أوَدُّ أن أقول لكَ : لن يتقدم الكائن في حياته ، ولن يحتل المكان الذي يبحث عنه إلاّ إذا تملَّك قوة عقله الخاصة . وتَمَتَّع ، إضافة إلى ذلك ، بطموح لا يُثْنيه أحد .

بقيتُ صامتاً ، وكأن الرصاص انصَبَّ فوق رأسي . هالَتْني الملاحظة النافذة التي قالها ببساطة وكأنه يُحَيِّيني لجهلي وخنوعي . لكن ، ساءني تَوْقيتها ومداها . وآلَمَني عدم اعتباره للحال التي أنا فيها . وتهَيَّأ لي أنه لا يعرف المقادير : مقادير الصمت والكلام . لكأنه يتحدث لأن الكلمات ، بعد أن تتكَدّس فوق لسانه ، تَغْلبُهُ . ونَفْسُه تَتْبع الحسّ ، وليس العكس . وتذكرتُ قولاً سمعته ذات يوم ، وانْحَفَر ، عميقاً ، في نفسي : الحديث الجيد كالوجبة الشهية ، إنجازه يتطلّب : الرغبة ، والوقت ، والإهتمام بالسامع . ويضيف القائل : والمتحدِّث الجيد ، مثل نظيره «الطابخ» ، لا يستقيم دَوْرُه دون اعتناء بعناصر «فَنّ الحديث» الأولية : النظَر الثاقب ، والصوت الخَفيض ، واللفظ الصحيح . لكنني ، مرة أخرى ، فهمتُ العكس . فهمتُ ما استوحيته أنا من كلامه ، لا ما يدلّ عليه كلامه بالدقة النحوية . لقد صرتُ مؤمناً أن للكلمات أبعاداً ومعانيَ بعدد الكائنات التي تسمعها (لا التي تقولها) ، فهِمَتْها هذه ، أمْ لم

تفْهَمْها . فليس الفهم النحوي هو معيار التَفَجُّر الذاتي عند الكائن الذي يُصغي إلى الكلمات ، بل المشاعر والأحاسيس التي تنبثق في ذاته عند ما يسمعها .

ولكي يخفف العبء الذي ألقاه على نفسي (أو هذا ما ظننتُه أنا) أضاف بمودة ، هذه المرة : «أقول لك هذا ، علَّكَ تتقدم خطوة أخرى على درب الحياة . برغم ذلك ، وجدتُ نفسي أنْفُرُ منه . أبتعد عنه . أبتعد كثيراً . فالقليل لم يعد يكفي . ألجأ ، من جديد ، إلى الصحراء . إلى الرمل الأصفر المَشْويّ بالشمس . إلى القاع المملوءة شوكاً وأحطاباً . أتربَّع عليها بجهامة ، متَشَوِّفاً سَراب الحَماد ، وآفاقه . مستعيداً بغبطة لا حدود لها حكاية قديمة ، قِدَم طفولتي ، من حكايات أبي .

أبي . . . وهو يُصالح بين متخاصِمَيْن ، أحدهما أضعف من الآخر . القويّ يتعَنَّتُ ويَسْتَرفض . والضعيف لايدري كيف يتعامل مع الوضع . وأبي يعرف أن الأمر يتطلّب الحِكمة واللين . ولا شيء أبديّا . وبعد أن هَيْكَلَ الأمر بما يُلائم الحالَ (وكان عارِفَة القوم) ، قال للضعيف بصوته الجهوريّ : الدنيا عَجاج وَيَفوت . إقْبَلْ . أدار الضعيف الأمر في نفسه ، برجاحة ، وقال لأبي : قَبِلْتُ . وأضاف معترفاً بالجميل : جزاك الله خيراً . ورأيتُ أبي يعضُّ على نواجذه من التأثّر ، ودموعه تغالبه . لقدعرف أن الأضعف أدرَكَ كيف سيتغلّب على الأقوى .

-١٦-

فُرضَ عليَّ كل شيء ، ولم أفرض شيئاً على أحد ، حتى «رحيلي المُفاجيء» فُرض عليَّ ، أفكِّر ماشياً . وليس الفَرْض هو الأحكام الجائرة التي يصدرها «الآخرون» بحقنا ، فحسب ، إنها ، أيضاً ، تلك التي نصدرها بحق أنفسنا . فالكائن يمكن أن يكون هو الآخر ضد نفسه ، كما صرت أدرك الآن . علاقة المرء مع الآخرين ، ومع نفسه ، في محيط يسوده القمع والإضطراب ، ليست خَطّية . ولا بسيطة . ولا هي ذات بُعْد واحد . إنها الأنا الإنسانية بكل تناقضاتها وخفاياها . ليس صحيحاً أننا نختار السفر بعيداً عن أهلنا ، دون ضرورة ، وبإرادتنا . لم يحصل هذا في التاريخ . ولم يحصل حديثاً ، أيضاً ، على حد علمي . لكن علمي المحدود لا يُعْتَدُّ به . ومع ذلك ، لم يعد يخيفني أن أقذف بأحكامي في وجوهكم . الاسباب التي تدفعنا إلى أن نهجر بلداننا لا حصر لها . هل تعرفون ذلك؟ الانسانية المسافرة تعرفها جيداً . تعرف هذه الأسباب ، عن ظهر قلب . وما يذهلني أن مجتمعنا يجهل ، وعن قصد بالتأكيد ، ما يعرفه الكائن الفرد بشكل عفوي وبلا مشقة . . .و . . .وعلى غير انتظار يدغدغني الصوت :

– هيه! أنت هنا؟

أَلْتَفتُ دون حماس ، وبلامودة . أبحث عن مصدر الصوت الخشن المعطوب . صوت لا يشبه بقية أصوات الكون . وقبل أن يَحُطَّ نظري عليها ، تابعَتْ بهدوء مخيف ، وكأنني عصفور تافه وقع في مصيدة لم تُنْصَبْ من أجله ، أصلاً :

- أقصدكَ أنت ، نفسك ، الذي تظل متعباً ومهموماً ، تجيء إلى هذه الزاوية ، أيضاً؟ كنتُ أحسب أن قدميك لا تساعدانك على المشي . كيف تركتَ «حديقتك» اليوم؟ هل هربتَ منها ، أم هربتَ من صاحبك الثرثار؟ اسمَعْ! أحب أن أدعوكَ إلى كأس ، لو كنت مستعداً لتحمّل ثرثرتي .

المساء الباريسي يختلط في روحي بمساء دمشق ، لكن الأنوار التي بدأت تشع في فضاء باريس أبعدت ، فوراً ، دَماس دمشق عن عيوني . وفي الحقيقة ، لم أعد مهتمّاً بتَمْييز أحدهما عن الآخر . وهذه المرأة الكئيبة التي تقف في مواجهتي ، منتظرة إجابتي التي طالت ، ماذا تريد؟ وقبل إن أستَحْضِر صوتي الذي غاب في أعماقي ، نبَّهَتْني :

- لا أريد أن أزعجكَ . إبقَ وحدكَ إن كان هذا يسرك . أنا سأدخل المقهى .

ولئلا أفكر في أشياء أخرى كثيرة ، قالت بوضوح ، وبنوع من الكرم الذي لم أتوقعه منها :

- معي ما يكفي من النقود لنشرب شيئاً ساخناً .

هذه الجملة الأخيرة هي التي ستجعلني أَلْحَقُ بها كالطفل الذي يلحق بأمه الذاهبة إلى الحصاد ، في صباحات «الجزيرة السورية» . كانت تهبُّ واقفة منذ الفجر . تُعَلِّقُ شَليلَها بحزمها المُخَرَّم بالنقوش . تمشي مهرولة ، وأنا أتبعها ، خلسة ، فاركاً عينيَّ ،

سائلاً كالماء خلفها بلا صوت ، لئلا تعيدني إلى الفراش : «لا تَلْحَقْني مثل الجرو الصغير» . وكيف لي ألاّ أفعل ذلك ، وروحي معلَّقة بها؟ وأمام تشَبُّثي وعنادي تستسلم ، أخيراً ، وهي تؤكد ما لا تنفّذه ، أبداً : «هذه المرة ، فقط» .

كنتُ أمتليء سعادة عندما تشرق الشمس على وجهي اللامغسول . أحمل بين يدَيَّ حزمة من السنابل الصُفْر ، المهشّمة ، لَقَطْتُها من بين أرجل الحَصّادين الشديدي السرعة ، وهم يَلوفون بمناجلهم الحادة الشديدة اللمعان . أقدمها لها بفخر :«خذي يُمّا» . تتناولها وهي تطبع قبلة على عيوني ، مؤكّدة ، من جديد : «أريد أن أرسلك إلى القرآن» . وقبل أن تصيبني كلماتها المتعثّرة ، أدير ظهري هارباً . أبحث عن سنابل جديدة بَعْثَرَتْها الحركة الهوجاء لحَصّادي الشمال السوري الأقوياء . لكن هذه المرأة المهترئة ، والواقفة وحدها في برد باريس الناشف ، ماذا تريد ، وأنا لا أتذكّر حتى مفاتيح عينيها؟ وكأنها أحسَّتْ بترددي ، أقتربَتْ مني ، ومن يدي المرتخية سحَبَتْني :

- تعال ، لن نبقى طويلاً . سأحررك منذ أن تشرب قهوتك .

عندما جلستُ بالقرب منها ، هَبَّتْ رائحتها المريعة . الرائحة التي كدتُ أنساها ، وقد خَلْخلَتْني أول مرة التقينا فيها . لا! لا يمكن لي أن أنسى هذه الرائحة التي تُلَوِّع قلبي : رائحة جسد لم يغتسل منذ أمد . ومن جديد ، أصير أتساءل : بِمَ تُذكّرُني هذه الرائحة الحارقة للروح؟ بأُمي؟ أُحاول أن أمد أنفي حتى الجزيرة ، أبحث عن هُفوفها . عن هُفوف تلك الرائحة التي كانت تعبق كل صباح . ولكن كيف لي أن ألتقطها مرة أخرى؟ أقترب من هذه؟ أتجاهل الرائحة ، وأحسو بهدوء قهوتي المرة . لكن الرائحة لا تتجاهلني . إن

تحركَتْ هبَّتْ . وإن سَكَنتْ قَبَّتْ . مالي ولهذه الأنشوطة اللامرئية التي أحاطَتْ بها أنفي؟ وهل يمكن أن تتشابه الروائح كما تتشابه الكائنات؟ اللعنة .

عندما دخلتُ وراءها ، دخلتُ دون تهَيُّب . لم أكن أعرف أحداً . ولم يخطر لي حتى أن أنظر حولي كما كنتُ أفعل ، مرعوباً ، في دمشق . لم أعد أبحث عن نظرات الآخرين ، حاسدة كانت ، أو مغتبطة . ولأول مرة شعرت «بامتياز اللامعروف» من البشر . لا أريد أن أقول النكرة . لا . فالأمر ليس كذلك . ولا «المجهول» منهم ، أيضاً . لأن لذلك معنى آخر . إنه اللامعروف . هذا يكفي . هذا الوضع يقيه شر معرفة الأغبياء ، كما يقول رجل الحديقة . وسأدرك ، فيما بعد ، أن «لامعرفة» الآخرين قد تحررنا من كثير من العوائق والموانع . قد تدفعنا إلى ارتكاب محظورات كثيرة ما كنا لنفعلها ونحن بين أهلينا . إنها تهيّئنا ، بشكل ما ، لنتمرّن على سلوك جديد . سلوك قد يكون ، في النهاية ، أحد السُبُل لنثور على ما لم نكن نفكّر بالثورة عليه . وهو ما جعلني استعيد وصيته الشيطانية : إنْ أردتَ أن تعرف نفسكَ ، لا تعرفْ أحداً . عندما قالها ، لم أفهمها على هذا النحو . أما الآن فقد غمرني نوع من الشعور الخفيّ بالغبطة ، وبخاصة بعد أن ولَجْتُ المقهى دون حرج ، برغم الرائحة الملعونة .

منذ أن جلسنا ، وضعَتْ يدها على ظهري بلا مبالاة وكأنها تضعها على ظهر كلبها . جفلتُ قليلاً ، وأنا اتراخى بتأثير اللمسة اللامتوقعة . لكنها سرعان ما سحبَتْها من ظهري لتلمس وجهها العتيق ، وكأنها تلمس فردة حذاء بالية . وسمعتها تَتشَهَّق وهي تقول :

- هل أكلتَ؟
- بلى .
- وهل لديكَ مأوى؟
- بلى .
- هل أنتَ مرتبط بأحد هذا المساء؟
- لا .
- لا! قالتْ متعجبة قبل أن تضيف : كنتُ أحسب أنه لا يفارقك .
- لا يُفارقني؟
- بلى .
- مَنْ؟
- هو

كنتُ جائعاً . أقصد مملوء بالنواقص والحاجات . لكنني لم أكن أعرف كيف أُعبّر عن حاجاتي . تحركَتْ ، من جديد ، فملأت الفضاء برائحتها الحامضة مثل لَبَن البعير . وبلا تردد ، ولكن بإغراء ، هذه المرة ، مَدَّتْ يدها لتصير على فخذي وهي تُغريني : سأُهيّء لكَ عشاء لذيذاً .

لم أسمع مما قالتْ شيئاً . كنتُ استعيد «قاسيون» . كان النهار صيفاً ، يابساً ، محروقاً من شدّة الشمس . العرق البهيُّ ينُزُّ من أجسادنا مثل تعبير خفي عن شبق لا يُروى . التقينا : صامتة وصامتاً . اللقاء السري في دمشق لا يمكن تلافيه . مشينا بلا تردد نحو الريح . صعدنا القمة الملتهبة مثل ثدي معصور . فوقها ، تلامسنا نصف عراة . ما جدوى العري الكامل فوق قمة تُحرِّقُها شمس لا مفر من التخَضُّع لها . من الشمس يولَد الشوق . ومن

الشوق ينبجس الشَبَق . وعلى قمة قاسيون يصبح كل شيء ممكناً بما في ذلك الموت . بصعوبة ، استعيد نفسي من فجوجها ، وأنا أغرق في نكْهة جسدها الذي قارب الذَوَبان . وتصير تَتَمايل بنصفها العاري فوق نصفي . مرددة ، بشغف ، في أذني المملوءة بالأنين : ما أجمل فخذيكَ !

- نمشي؟

سألَتْني هذه ، مَلْهوفة ، وأنا أطير فوق قاسيون . لم أجب . نصف الحياة جحيم ، ونصفها الآخر كذلك ، يقول «الحدائقيّ» ، وهو ما بدأتُ أدركه ، بشكل من الأشكال . وما يعطي الحياة طعمها الذي لايُنْسى هو ، بالتأكيد ، ذلك الجحيم الذي عانيناه ، يضيف ، وهو يلاحق طُيوف حياته التي وَلَّتْ . لكن هذه عَلامَ تصِرُّ على دعوتها المجنونة :

- تعال .

- لا . قلتُ بتصميم .

كنتُ خائفاً . أو بتعبير أكثر دقة ، كنتُ مضطرباً ، ولا رغبة عندي في لقاء أحد في فضاء محصور ، وبخاصة ، مع رائحة تثير في نفسي أعنف الذكريات . فلأماهِلْها ، قلتُ في نفسي . ولها قلتُ :

- في يوم آخر ، إن كان ذلك لا يزعجكِ . ولكي أعطي كلماتي وزناً ، أضفتُ مُتَكاذباً : سأراه ، هذا المساء .

- لا بأس . قالتْ ، قبل أن تدعوني بصراحة : أنا وحيدة وحرة ، تعال متى شئت . ومَدّتْ يدها إليَّ بالعنوان .

-١٧-

كانت باريس ، ذلك اليوم ، تغلي . السَيْر فيها أشبه بمشكلة لا حلَّ لها . مع ذلك كان علينا أن نلتقي . فاليوم هو الأول من أيار . وفي الشارع الطويل والعريض مشَتْ مسيرة العمال منطلقة من ساحة لاروبيبْليكْ (الجمهورية) ، صاعدة بهدوء ، نحو ساحة لاناسْيونْ (الأمة) . مسيرة عملاقة ، اجتمع الناس فيها من كل جنس ولون . لكأنهم لا يريدون أن يخلص النهار قبل أن يخلص العمال من عبء الوجود المفروض عليهم . ولكن مَنْ فَرَض عليهم هذا العبْء المُخيف الذي يَتَحَمَّلونه منذ قرون؟ ولِمَ لا يستطيعون له تبديلاً؟ ومتى يقررون أن يقلبوا الوضع؟ وما هو دورهم في تدمير أنفسهم ؟ . . .و . . . كان «الحدائقي» يُبرْبِر لصق أذني ، طارحاً السؤال تلو الاخر ، دون أن يهمه أي جواب . لكأنه يدرك أن وقت الجواب لم يحن ، بعد .

ومن آن لآخر كان ينظر إليّ مستطلعاً تواؤمي مع كلماته . وكنتُ صلْداً . لا أشُفُّ عن شيء . إلْتَهَمْتُ تعابيري الحسية واللفظية ، بلئامة . كنتُ مأخوذاً بأمور أخرى ، غير التي جعلَتْه يهذي . معاً مشينا ، كالكلاب في آخر الظُعون ، لاحقين الحشود التي ملأ ضجيجها المدينة . الهتافات تعلو . الفضاء الباريسي صار

صوتاً . وبعد لحظات من الصمت العميق الذي غرق فيه «الحداثقيّ» (ثمة صمت سطحيّ ، أو رقيق . كما سيقول لي ذات يوم) ، وقد ملأ خلال هذه اللحظات عينيه بمشهد الجَمْع الآسر ، أحسسته يتمتَّع بحيوية الحركة المتلاطمة كالموج العاتي . ويصيبه شيء من التوتُّر الذي كان يَسْري في المحيط . ذلك التوتُّر الهائل ، المُعَبَّر عنه بالحركة الإنسانية القوية ، وحرارتها المبثوثة في الوجوه والأفواه . يَتَمتَّع به ، حتى ليكاد أن ينفجر . أمّا أنا فقد شَغَفَتْني تلك الجُموع الإنسانية المتلاحِمة بشكل حرّ وعفوي ، مع أنه مخطط له بد قة ، والتي لَمْ أرَ لها مثيلاً خلال حياتي الأولى في دمشق .

ما أدهشني هو أنني نسيت ، سريعاً ، كيف كان الناس يعبِّرون عن أحاسيسهم ، هناك . فلم أعد أعرف كيف كانوا يتظاهرون . ولا كيف يصيغون الشعارات الملائمة لكل فئة منهم . ولا كيف . . . وفي الحقيقة ، أنا لم أشاهد في الشام إلاّ المظاهرات التي تصنعها السلطة ، وتتخذ منها دِرْعاً واقياً . أو تستعملها لتبيّن للناس ، زَيْفاً ، مدى جماهيريتها اللامسنودة في الواقع إلا من أزلامها . لم أرَ مظاهرة عفوية في دمشق ، إلا نادراً جداً . وإذا ماحدث و . . . كانت سرعان ما تُقْمَع ، وتُفَرَّق بعنف . ومَنْ يتفرّج عليها لا يهمه من أمرها شيء . فهو إما معاد لها لأنه مع السلطة . أو هو لا معنيّ بها ، أصلاً ، لأنه يعرف أنه لا يوجد مَنْ سيستمع إلى مطالبها ، مهما كانت أساسية ومحقّة . بئس الحال!

وفجأة ، يخترق صوته الواهن الذي غدا حاداً ذلك الضجيج الكوني الأصَمّ ليصل إليَّ . يصل محلِّلاً وشارحاً أوضاعنا . لكأن المشهد الكوني العارم حَجَّم إرتكاساته ، وحَدَّد رؤيته

الكوسموبوليتية ، فجعله لا يرى إلاّ ما عرفه من وقائع حياتنا العربية البئيسة . لكأن التَعْميم لا يقودنا ، في النهاية ، إلاّ إلى التَخْصيص . قال :

- استيلاء الدولة العربية على نقابات العمال ، فَرَّغ الحركة العمالية العربية من جوهرها ، وابْتَذَل دورها التاريخي الذي كان من الممكن له أن يكون حاسماً .

ولما رآني لا أتفاعل ، أو لم أتفاعل على الفور ، مع ما قاله ، مشى خطوة إضافية لكي يلحق بي تماماً ، قبل أن يضيف بعدائية أدهشتْني :

- لكنني أشكّ بذلك . أشك أن الدولة العربية ، وهي الوحش الكاسر حقاً ، أكثر من غيرها من دول العالم الأخرى ، هي ، وحدها ، المسؤولة عن مصائب العمال العرب وبؤسهم .

رآني أنْفُض رأسي بهَوَس ، وأنا بالقرب منه ، مثل كلب ينتفض ليزيل البَلَل عن نفسه . وقد فعلتُ ذلك قصداً ، وكأنني أتمنى عليه أن يكف عن الحديث . لكنه لم يهتم بانفعالاتي ، فتابعَ ، بعد خطوات قليلة ، كلامه :

- لا بد أن ثمة عوامل أخرى قائمة في بُنْيَة الحركة العمالية العربية ، نفسها . أقصد أنها ، هي ، أيضاً ، مسؤولة عن كثير من الفشل الذي تعانيه نقاباتها .

لم أنظر إليه ، ولم أقل شيئاً . لكنني بدأت أحس برجفة خفية تعتريني . حسبتُ أن سبب ذلك هو الإنفعال العنيف الذي أصابني من هول الحشود وضخامتها . وكان هو يرى ذلك الرَجَفان علامة على أنني بدأت أنفعل بشكل سليم ، بعد أن كنتُ محايداً كالخشب اليابس . وهو ما جعله ، ربما ، يستمر في حديثه المريب في

ذلك النهار الذي لن أنساه . فأضاف :

- تفاسير أُخرى كثيرة جديرة بالإعتبار . لكننا إنْ تابعنا التفتيش عن الأسباب ، كلها ، مع أننا لن نتوصل إلى حَصْرها مهما فعلنا ، فإننا سنصل ، في النهاية ، إلى تفريغ الحركة العمالية من جوهرها ، وإلى تَمْييع مواقفنا التي يجب أن تظل راديكالية . ودون فاصلة ، تساءل :

- لماذا؟ لأننا ، في هذه الحال ، لن نكون مع أحد . لا مع العمال المضطهَدين ، ولا مع الذين يضطهِدونهم . لنترك التعمُّق ، الآن ، جانباً ، إذن ، ولنتَّخذ الموقف المناسب لوَعْينا . وبعد عدد قليل من الخطوات المترددة ، تابع :

- عَلّه ، عَلَّ هذا الوعي الذي نأمل أن يكون نافذاً ، يقَرِّبنا ، قليلاً ، من الحقيقة . وإذا ما أبعدنا عنها ، فلا بأس علينا .

وبعد أن تطلّع إلى الحشود الصاخبة ، صرخ في أذني :

- دَعِ الحقيقة جانباً . المهم أن يكون لنا موقف واضح ، في الحياة .

وبعد صمت قصير ، تابَعَ بنوع من التَشكُّك النقديّ المتسائل ، كما يسميه :

- الحقيقة ؟! هي الأخرى ، لها وجوه ، ومصادر ، بعدد المصائر الإنسانية التي تعرفها هذه البشرية البائسة . لا تَنْسَ ذلك! قال ، وهو يهز سبابته في وجهي ، قبل أن يضيف : الحقيقة : هي اللا شيء . والبحث النظري المستمر عنها سيعيقنا عن الوصول إلى نقطة النهاية التي هي هدفنا الأساسي في الحياة . نهاية الشر ، والبؤس ، والإضطهاد . هذه هي الحقيقة الوحيدة الجديرة بالإعتبار . مع أنني أعرف أن تلك اللحظة لن تأتي قبل أن أموت .

من عمق الصمت الذي ملأ كياني ، ممزوجاً بالدهشة الأولى لي في الأول من أيار بباريس ، أخرجني صوته الطفوليّ الغاضب وهو يشير ، بنفور واضح هذه المرة ، يشير بيده الممدودة التي بدت لي يداً مستعارة من تاريخ الإنسانية المستاءة ، إلى الحُشود ، قائلاً بقَرَف :

- أُنْظُرْ!

لكأن تلك المسيرة الهائلة التي كانت تسحبنا كالأطفال اليتامى في ذيلها ، لم تكن تعني له أكثر من مهزلة بلا نتائج تاريخية . وأسطوريتها تنبع من كثرة المشاركين فيها ، لا أكثر . وهي ، في النهاية ستذوب في همجية هذا الواقع اللاإنسانيّ ، على حد تعبيره ، دون أن تخلِّف أثراً . وأشار ، من جديد ، وهو يقول باستياء مُعْلَن :

- أنظُرْ! قبل أن يسألني : أترى إلى هذه الحشود؟!

وأتى بحركة بدتْ لي عملاقة ، ماسحاً بها الجموع بسبابته ، بدورة واحدة ، وكأنه أبوها الذي أوجدها ، وهو يُؤكِّد :

- لو شاءتْ حقاً لقَلَبت ، الآن ، وفي التو ، كل شيء . ولدمَّرَت كل عائق يقف في وجهها . لكن البشر غريبو الأطوار ، ولا أحد ، حتى ولا ماركس ، نفسه ، يعرف ما يريدون . ولا متى يستاؤون ، فيتحرّكون . لذلك ، أضاف ، دعنا نمشي خارجهم ، ونتحدث بهدوء عما يهمنا .

كدتُ أضحكُ ، وقد عبرت الفكرة البلهاء رأسي : ولكن ، مَنْ نحن ؟ لكنني ابتلعتُ كلماتي السرية ، وكأنها لُعاب ، وغرقْتُ في الصمت ، من جديد . وفجأة ، أضاف ما أدهشني بعمق ، لأنني ، في دمشق ، كنتُ أعتقد أن العكس ، تماماً ، هو الصحيح . كنتُ أُقَدِّس الجموع ، وأعتبر أن حركة التاريخ لا يمكن أن تستمر بالدوران

دونهم (أو هكذا علّموني) . وأن الكتلة البشرية دائماً على حق ، حتى ولو أخطأَتْ . وأن الفرد المتفلّت كالبعير المعَبّد لا أحد يَقْرُبه . وهو ، في أحسن الأحوال ، مُعْد . قال :

- الكتلة البشرية الهائلةُ التي تراها ، كتلة سكونية برغم حركتها الظاهرة . وهي تظل عاطلة عن الفعل إلى أن تلتقي بمحرِّض ، يُثَوِّرها .

فيما بعد ، وبتأثير كلماته هذه ، ربما ، سأكتشف أنني في قبولي للاعتبارات البليدة ، كنتُ أَلْحَق الجُموع كالكلب الأليف . ولم يكن لي موقف خاص ، حتى من حياتي . وليس لي فكر محدد ، أو تصَوُّر شخصيّ عن العالَم . كنتُ كالغَيْم المحتَقِن بالسحبِ ، تهطل آرائي حيثما شاءت لها الريح . أو كالرضيع أَمُصُّ ثديَ الأمة دون أن أجرؤ على بَصْق ما ملأ دماغي من حماقاتها . و . . .ولما رآني أتململ في صمتي ، وكأن أفاعي كلماته لدَغَتْني ، قال بهدوء ، وهو يفسح الطريق للعابرين الذين مرّوا بنا كالبرق لتنظيم الشغب الذي اندلَع في طرف المظاهرة القصيّ :

- الثورة دائماً فردية . لا تَنْسَ ذلك (مرة أخرى! قلت في صمتي) .

وهزّني من ذراعي قبل أن يضيف :

- وكما قلتُ لكَ ، من قبل ، لا تنتظر من أحد شيئاً من أجل أن تحيا كما تحب . إفعَلْ ما تريد أن تفعله ، وحدكَ . أما هؤلاء (وأشار إلى الجموع الهادرة ، من جديد) فزُمَرٌ . ولا أحد يعرف ما يفكر الآخر فيه ، حتى ولو أفصَحَ له عمّا يدور في نفسه .

ولّما استتَبَّ له إصغائي الكامل ، أو عندما أحس بأنني صرتُ من جديد تحت تصرّف كلماته ، أضاف :

- فالكلام لا يُعَوَّل عليه .

وبعد أن نظر في عينيَّ الهائمتين ، أكمل بهدوء :

- حتى عندما تقول لأحد : أحُبُّك ، لا ينقل الكلام إلى السامع إلا القشور . أما الزبدة ، كما يقول أحد المفكرين ، فغالباً ما تضيع بين الأُذن واللسان .

بعد ذلك ، تابعنا المشي مضطربين قليلاً . وفيما يخصُّني كثيراً ، وأكثر من الكثير . ومن جديد ، حلّ الصمت بيننا . لم يكن ذلك الصمت عائقاً أمام الفهم ، على العكس ، كان مهلة حيوية لكي يستوعب رأسي ما يُقْذَفُ به من أحابيل . لقد أدركت أنه لا يمكن لأحد أن يحصل على شيء دون أن يدفع الثمن . وأننا ، أحياناً كثيرة ، ندفع أثماناً باهظة دون أن نحصل على شيء . فـ للحيازة شروط ، كما يقول ، وعلى رأسها عاملان أساسيان : الزمن والصدفة . وليست الصدفة بالنسبة إليه ، إلا الصُحْبة النقدية مع مَنْ هو جدير بتحريضنا .

مرَّتْ فترة طويلة كان يتطلع خلالها إلى الأرض . وكنتُ أنظر الجموع المتماوجة كالشلالات ، وأنا أفاوض نفسي حولي أمور سرية كثيرة . لَـمْـلَمْتُ ، أثناءها ، قواي النفسية ، وإدراكاتي التي تشتَّت . فأحسستني مستعداً ، من جديد ، لتلقّي أطروحاته التي بدأْتُ أتوَجّس منها ، وأشتهيها . وقبل أن أذهب بعيداً في هواجسي ، سمعته يحكي منطلقاً من النقطة التي وقف عندها ، قبل قليل :

- ولكن إذا كانت الثورة فردية ، فالوعي كونيّ . أقصد أن الوجود وعي . أما الثورة ، أو ما يمكن أن نسميه تعسفاً كذلك ، فهي ليست أكثر من نشاط مشهديّ عابر ، مهما طال أمدها ، أو انْشَغف بها الناس .

وفجأة توقف عن السير ، واستدار دون سابق إنذار ليصير وجهه في وجهي ، وهو يقول برأفة ظاهرة بي :

– وأنتَ ، أنتَ عليكَ أن تتخلّص من «الوعي البسيط» ، وَعْيكَ الأولي الذي جئتَ به من هناك . أقصد :«وعي البقاء حياً على قيد الحياة» . ورأيته يَكشُّ حتى ليكاد أن يصير قنفذاً ، وهو يضيف بقرف مخيف : أرأيْتَ إلى أي حد يمكن لنا أن نَسْتَسْهِل الوجود ، ونبتذله .

أزاح نظره عن وجهي الذي اكفَهَرّ ، وتشاغلَ برَبْط خيوط حذائه الكاوتشوكيّ العتيق ، وهو يزفر من الجهد الذي قام به مُقَرْفصاً . كدتُ أدْفُرُه بقدمي التي صارتْ خلفه ، لألْقي به على القاع ، وأنهزم . لكنني أمسكتُ قدمي حتى لا تزلّ . ووقفتُ في مكاني كالمغْروس في الأرض ، بلا حراك . ومنذ أن أعتدل في وقفته ، صار يتطلّع بارتياب ، وهو يرسل نظراته الغامضة في الجموع المتلاحمة حولنا . وفجأة ، اقترب مني حتى صار لصقي ، وهو يقول بنوع من التأنيب المسْتَتِر ، وكأنه يحسدني على وصولي إلى هنا :

– أنتَ ، الآن ، في مدينة كونية ، ولا زلتَ تحلم بالعودة إلى مدن ثانوية ، أو أنها صارت ، اليوم ، كذلك . وإنْ كانت الأشياء ليست ثابتة ، ولا القِيَم التي نُدَثِّرُها بها ، أيضاً . ولكن ، لا مفر لنا من الإعتراف ببعض الحدود من أجل أن نتقدم في الحياة . وبعد أن تَلاحَظ معي بهدوء ، أكمل بنوع من السخط : موقفك السكونيّ المتَعطِّف ، هذا ، خطأ قاتل في عُرْفي .

قال ذلك ، وهو يُبْعِد عينيه عن عينيَّ ، قبل أن يضيف :

– ومهما كان تبريرك النفسيّ أو الأخلاقيّ له ، يبقى كذلك . فنحن لا نتغذّى من التبريرات . والأخلاق لا أجنحة لها لكي

تنقلنا إلى أطوار جديدة في الوجود .

وبعد هنيهة من تأمل القاع تحت قدميه تابع ، وكأنه يريد أن يشرح لي ما خُفِي عني :

- الأمكنة العاقِرة التي لا تُرْضِعنا وَعْياً نقديّاً ، ولا تسمح لنا بأن نَغْرف من العلم ، أو الفكر ، المبثوث في فضائها (هذا إذا كان يوجد في فضائها شيء منه) لا قيمة لها عندنا ، ولا ذكرى ، حتى ولو كانت أمكنتنا الأم ، أو أمكنتنا الأولى التي درجنا فيها .

وصار يهزُّ هامته الملْساء ، وهو يُبَرِّر استياءه الذي بدا لي ، آنذاك ، مثيراً :

- فالمكان كالكائن ، إما أن تتفاعل معه ، ويعطيك ممّا عنده ، فيزيدك وَعْياً . أو أن يصدُّك بكتامته ، فتنفر منه ، ولا تَعود إليه ، حتى وأنت تقيم فيه .

إيحاؤه الظاهر لي بأنه يُحيط بكل شيء عِلْمًا ، أو يكاد ، هو الذي سيدمِّر الكثير من الوشائج بيننا . وهو الذي سيبعد ، في النهاية ، أحدنا عن الآخر . لم أعد أتَحمَّل الكشف المبتسر حتى ولو كان هو الذي يقوله . هذا الكشف الماكر والمخيف هو الذي سيطيح بما كان يربط بيننا ، أو هكذا صرتُ أظن في تلك اللحظات . ولكن ، منذ متى بدأتُ أشعر بذلك؟ وفجأة قطع الصمت الثقيل الذي سمح لي بالإرتداد إلى أعماقي لبرهة شديدة القِصَر ، ليسألني :

- تعبتَ؟

قال ذلك ، وكأنه يلومني على خفوت الهِمّة ، إذْ رآني ، ولا بد ، أتَماهَل في سَيْري . وحسبْتُه يريد أن يقول ، كما خطر لي : هل أدركْتَ مما قلتُ شيئاً ؟ أو أنه أراد أن يقول شيئاً قريباً من هذا .

- من المشي؟ لا . لم أتعبْ ، بعد . قلت .

ورأيته يهزُّ رأسه ، وابتسامة غامضة ترتسم على بلْجُمَيْه . كنتُ أتصوَّر أنه ، برغم إدعاءاته المطمئنّة إلى حقيقتها ، لا يعرف الكثير عني . ولكن مَنْ يدري؟ لقد كان عقلي مشوَّشاً ، بما فيه الكفاية . وكـان عـقله مملوءاً بالكثـير من الأسـاطير . لكن ذلك لا يعني أنه يجهل ما أجهله أنا . ولا يعني ، أيضاً ، أنني في تصوراتي المغرضة عنه على حق . الحياة أكثر تعقيداً مما تبدو لنا ، والمعرفة كذلك . لماذا لا أتواضع قليلاً عندما أحكم على الآخرين؟ وفوق ذلك ، هو يتمتَّع بقوة إقناع خارقة يستمدُّها من اعتقاده المخلص بما يطرحه من آراء ، حتى لا أقول بما يدّعيه . وهو ، كـما يزعم ، لا يدَّعي شيئاً ، ولا أمـراً . العـالم مـعروض أمـامـه ، كـمـا هو ، وهو ينتـقي منه ، فكراً وسلوكاً ، ما يتناسب مع أهوائه . لماذا كل هذه السهولة؟ لأنه ، كما يَتَبـاهى ، لا يخـاف من النقـد . وآراء الآخـرين ، عنده ، لا تشكل عقـبة في سـبيل بلوغ ما يريد أن يصل إليـه . هو مـعزول ؟ لا! إنه مستاء ، أو مستقْبليّ ، أو كائن نَقْديّ ، كما يحب أن يصف نفسه بلسـانه . وعلى أية حـال ، هو شـديد الإعتناء ، والإعتـداد ، بفكره وآرائه . إنه . . . ولـكن أنّى لي ، في هذا الزخم البـشـري الهـادر ، أن أُحدد موقعه ، وموقعي ، في الوجود؟

***

لكأننا في عـرس كـوني هائل ، لكنه لا يخـصُّنا . أو هذا مـا قـرأْتـه أنا على وجـهـه . مع ذلك كـان ثمـة مـا يملأ القلب ، قلبي ، بالغـثيـان ، والنفس بالتـوتر والإحـبـاط . كنتُ ، فعـلاً ، على حـافـة الإنهيار . مشـهد الحشـد المحتدم أفْعَمَ نفسي بالمَوَدَّة مع أنني صرتُ

أحـاول ، منذ حين ، أن أتجنَّب الإنفـعـالات التي لا جـدوى منهـا . وهاأنذا أقع ، اليوم ، على خَشْمي في معمعة لا ترحم . أما هو . .؟ لقد كنا على طَرَفيْ نقيض ، ومع ذلك كنا نلتقي بمودة ، حتى ونحن نتحاور بكثير من العدائية ، أحياناً . تعلَّمْنا كيف نُسَيِّر إنفعالاتنا . وكيف نخلق منها واقِيات نحتمي بها من الإنكسارات . وفجأة ، قطع الصـمت وهو يقول باستيـاء ، وكأن الحشد الذي كان يسحبنا في ذيله داسَ على جثة أمه :

– لقـد صـدق الأقـدمـون عندمـا سـمّـوا هذه الجمـوع الهـادرة العـامـة . فـهم عـامـة الخلق . أو هم عُـمـومـه ، أي عِـمـاده ، وأسـاس بنيـانه . لكنهم لا يضطلعون بدورهم التـاريخي الحـاسم ، إلا نادراً . وهذه الندرة ، بالتأكيد ، غير مفيدة .

وبدأ يخاطبني ، وهو ملء عينيّ :

– تَصَوَّرْ! وسكت قليـلاً قبل أن يقول : لو انتـفضـوا لقَلَبوا كل شيء ، كمـا قلت لك قبل قليل ، لكنهم غير جديرين ، إلى الآن ، إلا بالتألُّم والتَشكّي والإنصياع ، باستثناء بعض الحالات التاريخية النادرة .

واستدار ليبعد وجهه المكفَهِرّ عن وجهي وهو يُبَرْبِر :

– مع ذلك ، لا تنْخَدع بهم . إنهم ، أيضاً ، قوة الجهل الكبرى التي يتّكيء عليها القامعون ، والطغاة . وكلما تمكَّن اللاوعي منهم ، تَمكَّن الطغاة منا أكثر . نحن ، في الواقع ، ضحية هؤلاء مثلما نحن ضحية الإستبـداد السلطويّ . وبخاصة ذاك الذي نعرفه ، ونعاني منه ، في العالم العربي ، اليوم .

وكاد يمسكُ بخناقي ، ويشاجرني ، وكأنني المسئول عن كوني أنا الآخر ضحية (وسأدرك فيمـا بعـد أنه كـان على حق في هذه

النقطة) . بلى! أمسك بخناقي ، فعلاً ، وأوقفني في عرض الطريق وهو يتساءل في وجهي :

- ما هي السلطة ، أصلاً ، ولْنَقُل العربية منها؟ ومَنْ يسندها ويدعمها ، إنْ لم تكن هي الحُشود العربية التي لا ماهيَّة تاريخية لها في الوقت الراهن ، والتي ، لا بد ، لها أن تحوز ، ذات يوم ، هذه الماهية التي ستمدها بطاقة خلاقة لا تُقْهَر .

وبعد أن أفرد أصابعه العَشْر في وجهي ، وباللصق من عينيَّ ، حتى أنني ابتعدتُ قليلاً لئلاّ يَطْرُف عيوني بأصابعه ، تابع بعنف أكبر :

- والآن ، جماهيركَ هذه التي تظل تعول وتصيح ليس لها عقل ناقد ، وإنما لها ألْسِنَة لا تحصى . ألسنة بارعة تعرف كيف تمدح المسيئين إليها . وتلهج بحَمْد مضطهِديها . لكن الوضع لن يدوم على هذه الحال . والتاريخ مليء بالمفجآت العظيمة ، والشئيمة ، كذلك . والمشهد الذي تراه ، اليوم ، برغم ضخامته ، هو لا شيء بالتأكيد . إنه الهباء المطلق . لكننا نأمل مشهداً آخر يبدع ، ذات يوم ، حياة جديدة ، بدلاً من التمسّك العبيط بهذه . وسَكتَ .

مشينا ، بعد ذلك ، مسافات طويلة صامتين ، قبل أن يستدير نحوي وهو يقول بهدوء غير متوقَّع :

- حشود العامة هم كل شيء إذن ، أو يكادون أن يكونوا كذلك . هم السند الحقيقي للطغمة الحاكمة . وذراع القمع الطويلة التي يستعملها المستبد عندما تدعو الحاجة إلى ذلك . هم أيضاً الإنتقاضات العظمى التي حررت الإنسانية منذ حركة سبارتاكوس ، وثورة الزنج ، والقرامطة ، و . . . هل سمعتَ؟

ولم ينتظر ردي لأنه تابع بنوع من الاحتداد :

- لماذا هم كذلك؟ لأن استسلامهم لحماقات السلطة ، ووضعهم أنفسهم في خدمة الدين وخدمتها ، يشرح لنا دورهم العائق ، والمجحف بحق أنفسهم ، وحقنا . حالتهم ، هذه ، هي التي تلغم الحياة الإنسانية ، وتكاد أن تكون العائق الأساسي في وجه التقدم والعدالة . مع أنهم أحيانا يقودوننا نحو النور .

وبعد أن فكّر طويلاً قال

- تصوّر حجم الطاقة الإنسانية التي تختزنها هذه الجموع العملاقة من البشر التي تزحف أمامك الآن ، وقوة انفجارها لو لَمْ تُهْدَرْ بهذا الصراخ العبثيّ . وهذه الحال في عالمنا العربي اليوم تكاد تكون ظاهرة معممة ولا علاج لها .

ودون أن ينظر إليَّ ، أضاف ، مكرِّراً من جديد مقولته التي سأدرك أنه شديد التمسُّك بها ، والإعتزاز :

- فالتاريخ كالكائن ، هو الآخر ، يمكن أن يكون رجعياً . ولما رآني مرتبكاً ، أوضح : لا تقلق بشأن المؤرخين الكَذَبة

وأخذ يمشي مُتَهدِّجاً ، وهو يدير ظهره النحيل لي ، متنقِّلاً بنظراته الثاقبة المتَفَحِّصَة بين الحشود المتزاحمة فوق الإسفلت . وبتصميم غريب تابع ، من جديد ، وكأن الشيطان دخل فيه :

- لا تَغُرَّنَّكَ نبرة الجهل المتسامحة عندهم . لو شاؤوا فهم جديرون بكل شيء ، حتى بالتغيير الجذري الذي ننتظره .

أحسستُ بالكلام يَطْفُر من فمي ، فقلت متسائلاً :

- ولكن ، كيف يشاؤون وهم يجهلون؟

- الجهل ليس عذراً . نحن لا نطلب منهم تحليل الكون وتركيبه ، ولكن الدفاع عن مصالحهم ، وأكاد أقول ، وعن مصالحنا . فليس ثمة حل لأمر لا يتدخلون هم فيه بشكل حاسم .

وقبل أن يرتَدَّ لساني إليَّ ، سمِعْتُني أقول محتجّاً بشكل مباغت ، مُحْتجاً على الفصل المُلْتَبَس بين التحليل والتركيب المعقَّد للكون ، وبين الإدراك البسيط لضرورة العمل من أجل تحسين المصير الشخصيّ للكائن . قلتُ ، باستفْهام نقْديّ ، كما يحب هو أن يسمّيه :

- وإنْ كان هذا مرتبطاً بذاك؟

ورأيته يتوقف عن المشي ، فجأة ، وكأنه ثُبِّتَ في مكانه . توقف وفمه مفغور ، وعيناه تَلوزان بتوتر في محجريه ، وهو يتساءل بتَحامُقٍ مصْطَنَع ، مشيراً إليَّ بسبّابته :

- ماذا قلتَ؟

وقبل أن أرد ، وهل كان لدي ما أقوله ، أصلاً ، مشى متعجِّباً ، ساحِلاً قدميه الفَطْحاويّن على الأرض ، وهو يَقول :

- صحيح! لامحدودية الفكر هي التي تجعلنا نثور على العالَم ، مع أن الجهل شكل من أشكالها!

-١٨-

افترقنا ، وأنا ممتلىء بالهيبة والاضطراب . أفكر في أطروحاته الشيطانية ، حول ضرورة «نقد الحياة» . وأهمية المجابهة . ورعب المصائر ، وما شابه ذلك . لم أكن أدري أنها البداية فقط . بداية تصوُّر آخر للعالَم سيتعمَّق ، يوماً بعد يوم ، حتى يصيبني في القلب ، ويجعل تماسكي القديم نثاراً . لم أكن أتوقَّع (وهل كان لدي الوعي الكافي لأتوقع أمرًا مثل هذا؟) أنه سيتابع نقده المقلق حتى لما لا يستوجب النقد ، أصلاً (وتلك كانت فكرتي البائسة عن تقسيم الحياة والعالَم إلى : ما يُنْقَد ، وما هو غير قابل للنقد!) أما هو فيؤكد : لاشيء يقع خارج نطاق النقد ، حتى ولا الفكر الأسمى ، نفسه ، هذا إنْ وُجد شيء منه فوق القاع .

كنتُ أحسبُ أنني سأنسى سريعاً ما قاله أثناء المظاهرة الباريسية العملاقة ، ما قاله عنها ، وعنهم ، وما قاله بعد ذلك عن أمور أخرى عديدة . ولكن لا! لم أنسَ شيئاً . إذْ لم يعد من الممكن لي ، بعد اليوم ، التلاعب بعواطفي وعُقولي (صرتُ أفضل ، الآن ، استخدام كلمة : عُقول بالجمع ، على المفردة : عقل . لأن الكائن كما سأدرك مُؤلَّف من عشرات العقول ، والعواطف أيضاً . وهذه التعددية الذاتية ، أو هذا التعدد اللامتناهي للنشاط الفكري

والعـاطفيّ عند الكائن ، هو الذي يسـمح لنا بمواصلة الحـيـاة ، رغم مصاعبها ، وبالرقيّ بها ، أيضاً) . والآن ، أغلق القوسين ، وأعود إلى حيث كنت . . . لم أنْسَ ، إذن . وليس عدم النسيان ، وحده ، الذي سيقود خطاي ، بل ستساعدني ، أيضاً حُمّى الإلتصاق به ، مع أنني سأُعاني منها كثيراً .

عَبْر التصاقي الهادِف به ، كنتُ أبحث عن تحسين إدائي الفكري والعاطفي . وسأكتشف أن ذلك ضروري . وأن علينا أن ننتظر كثيراً ، وطويلاً ، قبل أن نمشي خطوة سليمة على درب الحياة . فنحن لا نتطوّر قَفْزاً ، وإنما نأخذ الدنيا غِلاباً . نأخذها بالتمَثُّل والإستيعاب . والزمن ضروري لمثل هذه المعادلة . وعلى أي حال لقد بدا لي ، بالرغم من تَمْلمُلي واستيائي ، أن إغواء التغيّر ، وصعوباته ، أقوى من الاستسلام المريح للعادات ، وأكثر متعة منه . وسيتكفَّل الزمن بالباقي . حيث لم يبْقَ ، مع الوقت ، من القلادة الإجتماعية الخانقة التي كانت تَلْتَفُّ حول عنقي ، بعد أن تبَعْثَرتْ حَبّاتها ، سوى خيط رفيع من التاريخ . من تاريخي الشخصيّ ، أنا . والآن؟ الآن ، أنا ذاهب لألتقيه .

في اللوكسمبورغ التقينا ، من جديد . جلسنا على المقاعد الخشبية الخُضْر القاسية ، بهدوء وصمت . وأخذ كل منا يتنَظّر حوله بتدقيق غريب . لكأننا نريد أن نَنْبُش القاع لنعرف ما ذا تخبيء لنا في جوفها . كان الوقت عصراً . والناس يتنزهون في أنحاء الحديقة بهدوء باذخ . وكنتُ سعيداً بلحظات الصمت التي بدت لي عملاقة ، ونحن مُتَجانبَيْن . لكن ذلك لن يدوم طويلاً . كنتُ أشعر به يتَحَرَّق وكأن النار تسري في أحشائه . ولم أكن أعرف كيف أُوافيه . ولا كيف أتصرَّف . فبقيتُ ساكتاً ، أنتظر الأعاصير .

وفجأة، أخذ يتَمَرَّخ في عراء الحديقة الفضفاض، ويتَهَوَّل من الطقس، مع أنه كان جميلاً. واعتبر أناقة الناس التي تُبْهج القلب زائدة عن اللزوم (ومَنْ هو ليقرر شأن الأمكنة والكائنات؟ قلتُ في نفسي). وصار يحدِّق فيهم، وكأنهم الكارثة التي يراها بعينيه اللائزتين مثل الدحل على أرض من الصُوّان. وما يهمني من ذلك، فكرتُ صامتاً وأنا أتصنَّع التَمَتُّع بالنظر إلى البشر والأشجار.

وفجأة، قال، وكأننا لم نبرح أمكنة حوارتنا الماضية، ولا أوقاتها التي ولَّتْ (ولأول مرة شعرتُ أنه يكاد أن يكون خارج الوقت والحياة مع عمق ملاحظاته، وصوابها كذلك). وهذه المفارقة ستشغل فكري طويلاً وعميقاً دون أن أجد لها تفسيراً سليماً. قال، بعد أن تَمَرَّخ، من جديد، مادّاً ذراعيه إلى أقصاهما، ومستنشقاً كمية كبيرة من الريح، في ذلك العَصْر الجميل: لعِلْمكَ، لا شيء يقع خارج نطاق النقد، وقبل كل شيء: المُسَلَّماتَ. وأذا أردتُ أن أكون منصِفاً، أقول: لا مقدَّس على وجه الأرض إلاّ الكائن. وحتى هذا علينا أن نُشَرِّحه، باستمرار، وخاصة، إذا أقتضى الأمر ذلك. وغالباً ما يقتضيه.

لم أكن أتوقع (مرة أخرى) أنه سينال بنقده كل شيء. وأنه سيضحك، كثيراً، من اعتباري اللامنطقي والمتساح مع «اللامرئيات» كما يسميها، والتي هي مصدر بؤس الإنسانية المبثوثة على ضفتّيْ المتوسّط، بشكل خاص، على حد قوله. ويوماً بعد يوم، في ضفاف اللوكسمبورغ، وتحت تأثير نسائمها الصافية مساء، سوف يُمَنْهج «مشروعه النقدي» الذي اعتقدتُ، مغتبطاً، به، واعتبرته مشروعي أنا أيضاً. وهو ما جعلني أستمع بصبر ورصانة إلى أطروحات كثيرة أخرى، كان يَنْثُرها حوله، بلا خوف.

بلا خوف من الخطأ ، أو العقاب . أطروحات «ستُشعل» النار في قلبي وفي عقلي . لكن أُطروحته الأخيرة التي ألقاها عليَّ ذلك المساء ، ببساطة فائقة ، هي التي أثارت الشكوك لديّ . لكأن الطريقة الوحيدة التي ستمكنه من ابتلاعي حيّا ، هي التلاعب بالمفهومات والأقانيم ، وكنتُ جَهولاً بهما . وهو ما كان ، بلا رَيْب ، وراء غزارة إفرازاته النفسية ، وتوتُّراته اللامفهومة .

سأكتشف ، عَبْر صمودي أمام ابتكاره النقدي وتعمُّقه ، أنني أتمتّع بكثير من المقاومة ، والحرص على البقاء . وأنني قادِر حتى على فَهْم ما لا أفهمه . تلك المقاومة السرية هي التي ستحميني من الذَوبان السَهْل ، وتمدُّني بوعي شخصيّ ، يُبَيِّن لي الطريق الذي عليَّ أن أسلكها ، وإنْ كنتُ ، أحياناً ، سأضطرُّ للإنحراف عنها . إنحراف يجعلني أستقيم في المرة القادمة ، وأتَشَبَّث أكثر ، بالدرب : درب الحياة التي أخترتها منذ الآن على قَدّ عقلي . ولكن مَنْ يدري؟ أقول في صمتي . هذه الشكوك هي التي ملأت قلبي لوعة ، حتى كدتُ أبكي . من قبل ، كنتُ أرتعب من البكاء لأنه مرتبط بالجوع ، والظمأ ، والأفاعي ، والأشواك ، والفضاء اللامحدود الذي ينبسط أمام العَيْن في الصحراء ، ومن السَراب اللاممكن الوصول إليه برغم السير نحوه ساعات وساعات . لكنني منذ أمد قصير فهمتُ ، أو كدت أفهم ، أن التلوّع هو أول الغيث : أول غيث الوعي الجديد الذي نكتسبه عندما نستمر في المقاومة . ولكن ، مَنْ يدري (مرة أخرى)؟

سأنْأى عنه جافيًا ، بصمت ، ومملوءاً بالخيبة ، وقد احسستُ أنني أفتقد ، أو أكاد أن أفتقد ، ما يسميه : الحس النقدي لدى الكائن . وهو ، حسب عرفه ، أحد أبعاد الإنسان الأساسية التي

تجعل منه إنساناً . كنتُ اكتشف ، لأول مرة ، أنني لم أفكّر بشيء مثل هذا من قبل . ومما زاد في تعاستي ، واضطرابي ، تكراره لمقولته الجديدة عليَّ ، قائلاً : أنظر إلى كل شيء بريبة ، وكأنك ستلاقي حتفك فيه ، وبخاصة ، إذا بدا لكَ بديهياً . ولا تنْسَ أن نقد البديهيات أمر أساسي ، بل هو أصل النقد ، كله . لماذا؟ لأن البديهيات اللعينة تخترق روح الكائن ، وتلوّث نفسه ، وتمنعه من رؤية صحيحة في الحياة . ولَـمّا أحس ، أن اصغائي كاملاً ، أضاف بنوع من التأكيد : إنها الأكثر فعالية لتوجيه مصائر البشر (البديهيات) ، وهي الأبعد أثراً في تخضيعهم . ومَنْ لا يدرك ذلك لا جدوى من حياته التي ستخنقها «بديهياتهم» ، ذات يوم .

وأضاف ، ناظراً في قلب عيني : إنها قادرة على الْتِهام كل شيء ، بما في ذلك العقل ، الذي ستَلْتَفُّ حوله كما تفعل الأفعى الجائعة مع فريستها . ودون أن ينظر إلى وجهي الذي امتلأ بضوء الغروب الباهت ، فازداد صُفْرَة ، قال محذِّراً : انْتَبِه !

-١٩-

يعود مساء إلى الساحة . في مواجهة مقهى «دانتون» المليء بالنور يقف . يرتكي على الساعة البَكْماء المنتصبة في قلب البقعة الباريسية الصغيرة ، حيث يقوم التمثال الشهير لأحد أعمدة الثورة الفرنسية : مسيو «دانتون» .

عندما قامت الثورة الفرنسية ، عام ١٧٨٩ ، كان دوره ثانوياً . نشأ في عائلة بورجوازية صغيرة . أبوه كان محامياً . وعائلته تعده ليصير كاهناً . لكنه تخلّى ، سريعاً ، عن هذا التوجه الديني ، والتحق لعدة أشهر بكلية الحقوق ، بجامعة «ريمس» ، «عاصمة» منطقة «الشامبانيا» الفرنسية الشهيرة . بعد ستة أشهر «اشترى» شهادة الليسانس في الحقوق ، وكان ذلك مسموحاً به آنذاك . وسريعاً ، صار محامياً ، ولكن في باريس ، حيث تزوّج أبنة «صاحب مقهى» ثري . في هذه المدينة التي كانت ، آنذاك ، تغلي بالثوار والأفكار ، وفي وضع مضطرب وغير مستقر اجتماعياً وفكرياً وسياسياً ، لم يمارس عملياً مهنة المحاماة ، بل تفرّغ للمقاهي الباريسية التي كانت بؤرة حقيقية للثقافة والحياة . في هذه المقاهي التقى بأصدقائه ، وأعدائه . حاورهم وحاوروه . حاربهم وحاربوه .

وساعد الوضع المتأزِّم على تفجير الوعي الإنساني التقدميّ

لديه ، كما لدى آخرين كُثُر غيره . كان خطيباً مفوّهاً . وسريعاً التقى بدوره التاريخي الذي سيقوده ، مرفوع الرأس ، إلى المقْصَلة . وسيكون المسئول عن«قَصْله» صديقه ، ورفيق نضاله ضد الطغيان الملكي : «روبسبيير» .

دافع «دانتون» عن حق الاعتقاد ، مع أنه كان ملحداً . وناهض «الطغيان الثوري» الذي كان يمثله ، ويقوده ، الثوري العنيد «روبسبيير» . وهو الذي قال : «بعد الخبز ، تبقى الثقافة أول ضرورة من ضرورات الحياة عند الشعب» . وفي الخامس من نيسان ١٧٩٤ ، وضع رأسه على طاولة الموت ، منتظراً سقوط الساطور المرعب ، من عَلٍ ، على عنقه . كانت آخر كلماته :«لا تنسوا أن تعرضوا للشعب رأسي» . في ١٧٥٩ ، ولد «دانتون» .

وفجأة ، أخذه الصوت :

– هيهْ! أنتَ هنا؟

الْتَفَتَ مضطربًا لأن أحداً يناديه . كانت المرأة الملبَّدة بالوسن والنعَاس ، ذات الرائحة الحامضة ، تقف لصقه ، وبها نوع من الشموخ اللامألوف . لكأنها عَثَرَتْ على الجِزَّة الذهبية . عثَرَتْ عليها دون عناء ، بعد أن يئسَتْ من لُقْياها . لم يتسَرَّعْ في الإجابة . كان رأسه لا زال يدور . الوحدة التي أغرق نفسه فيها ، بدتْ له قاتلة . لم يكن قد تعوّد على مثل هذه الإنقباضات ، من قبل . لكن الدنيا ، كما قال له صاحبه : لا تأْبَهُ بالعادات . ولا تقيم للرغبات وزناً . إنها تَهْذِبُ بنا مثل فَرَس جَموح نحو مصير قد لا نكون نحلم به . وقد يكون أبأس مما نتصوّر ، بكثير . وهذه المرأة ماذا تريد؟(سأل نفسه مرة أخرى ، وكأنه يسألها للمرة الأولى . لكأن ما يمر به لم يعد يعلق في ذهنه) .

نظرإليـهـا ممتعـضـاً . لكأنهـاسـرقَتْ منه لحظة الزمـان التي بدأ يقبض عليها بشغاف قلبه . وتوَلاّها بصمت ، وهو يتابع الغَرَق في حلم لا إنفكاك منه . حلم سيطَرَتْ عليه عبارة صاحبه الملتهبة ، لكن المؤثِّرة بعمق ، عندمـا قـال له ، وبلا سـبب واضح (بالنسـبة إليـه) : كل كائن يستحقُّ نهايته . وتعَثَّر الكلام في قلبه : أتكون هذه المرأة هي نهـايتي ؟ وكـاد أن يصـرخ : لا! لكنه تماسك عن الهـذر ، وابتسم لهـا ببرودة قاتلة ، وهو يردُّ تحيتهـا بأسوأ منهـا . لم تَرْتَبِك هي ، بل صَفَّتْ بلحمـها الغزير لصق عظامه المنحوتة (فقد ظل أشهرًا شبه جائع ، وبه كسوف وخسوف . تغيَّرت الدنيا عليه ، وتغَيَّرَتْ حاله . وبعض هذا التغيُّر يراه ، الآن) .

كـانت السـاحـة الصـغيـرة تمتليء بالقـادمين إليـهـا على موعـد ، ودون موعد . ورآها تتملَّى الحضور الكثيف بنوع من المتعة والتفوُّق ، وهي تكاد أن تحيط خصره بذراعيها . لكنها لم تشأ أن تعكّر أجواءه النفسية اللامفهومة بالنسبة إليها ، معتبرة سلوكه الغريب من أسرار الشـرق . اسـتند ، مثلهـا ، بجـذعـه الـهـزيل إلى شـجـرة السـاحـة العـمـلاقـة ، آمِنًا . لقـد أحس أن الكتلة البـشـرية التي تحـيط به ، ستحميه حتى من نفسه . لكن تسلُّط صاحبه عليه لم يتضاءل . لكأنه يحـيـا خـارج الزمن . أو كـأنه يقـبع داخل رأسـه . لا شيء يحـمـيه منه . ولا أحـد يمنعـه من قـول مـايريد ، متى يريد . اللعنة! أحس به يتكلم في أُذنه وهو في أشـدّ حـالاته تَحَـفُّـزًا ، دون أن يسمعه أحد غيره ، ياللبؤس! لكأنه يريد أن يُدْخِل كلماته في رأسه بالقوة . يتكلّم معه بحَزْم ، طالباً منه (دون أن يقول ذلك صراحة) أن يدرك كل شيء دفعة واحدة (فالحياة قصيرة ، وأماثيلها كثيرة) .

وسـمـعـه ، أو هكذا أحس ، وقـد انتـهى للتَـوّ من تَلَفُّظ جـملتـه

الأولى يضيف إليها بسرعة : أما بدايته فتصنعها نهاياتُ أمور كثيرة أخرى . قال ذلك بنوعٍ من الإلحاح . ولمّا اطمأنَّ إلى استسلامه الصامت ، أوضح قائلاً : «البدايات ، دائماً ، واحدة ومحددة أياً كانت ، أما النهايات فيمكن ابتكارها إلى ما لا نهاية» . وبعد أن لَوَى جسده الغضروفيّ ، متمَرِّخاً في رطوبة العصر الصغير ، كرَّر عليه مقولته الأثيرة : «لكل كائن نهايته التي يستحقها ، حتى ولو كانت مفروضة عليه» . وكأن ما يهمه من الموضوع ، من موضوع الوجود ، كله ، هو ، فقط ، تلك النهاية المخيفة التي دَوَّخه بها من كثرة ما رددها أمامه . وكأنما يمكن للكائن أن يجتزئها من الحياة ، وأن يصوغها ، أو يصنعها ، كما يريد . لقد بدا له الأمر في ذلك المساء الباريسي الجميل مُرْهِبًا وكابوسيًا إلى حد بعيد . ولكن مَنْ يشرح له ، هذا المساء ، صدره؟ و . . . وتخيّله يسأله بامتعاض : فهمتَ وهَزَّ رأسه بلا صوت : نعم . ولا! ورأَتْه . فاضطرَبَتْ .

أرادت أن تسأله عما يحدث في نفسه ، لكنها امتنعت عن التحدث ، واكتفت بالنظر حولها ، بلا تعيين . لقد غزت فؤادها مسحة سوداوية مفاجئة ، هي الأخرى ، وبلا سبب واضح . بسببه! قالت لنفسها . ومَنْ غيره؟ تساءلَتْ ، وكادت أن ترمي جسدها عليه . وقبل أن تفعل ، رأت عيونه الساخطة تلاحق طيف عينيها بلا انقطاع . علامَ يُدَوِّر؟ قالت في قلبها بصمت هائب ، وأجابت نفسها «جو مانْ فو» ! أو مامعناه : هذا آخر ما يهمني . وبدأت تشتعل استياء ، وهي على حافة البكاء . لكنها ، بشجاعة الرغبة التي لا تُغْلَب ، تصدَّتْ لإنفعالها ، وقَهَرَتْه .

ظلَّتْ واقفة لصقه ، وكأن صمته كان دعوة لها للبقاء . أوكأنه كان معها على موعد ، مع أن وجودها ، بالنسبة له ، لم يكن إلاَّ

صـدفـة . لكنهـا صـدفـة بدأت تتكرر وكـأنما خطط لهـا أن تكون كذلك . الرائحة الغريبة التي ترافقها ، وكأنها لاتستطيع أن تحيا دونها ، هي التي كانت تملأ نفسه بشعور مثير من الغَثَيان . مع ذلك ، حافظ على اتزانه المهزوز ، قائلاً بصوت مسموع ، وبمودة تفضح بهجة خفية لديه بلقائها :

– المساء جميل .

– فعلاً . قالتْ موافقة على الفور ، وأضافتْ : هل تريد أن ندخل «دانتون»؟

سألَتْه فرحة ومُتَحَمِّسة . ولما أحسَّتْ به يتردد ، أسرعتْ بالقول :

– أم «تريدنا» أن ندخل مقهى آخر؟ وكادتْ تقول : نكون فيه أكثر اطمئناناً . لكنه قال ، في اللحظة نفسها ، بنوع من النفور المؤدب :

– تفضّلي . ولم يزِدْ .

كانت هذه هي المرة الثانية ، أوالثالة ، التي يلتقي بها في تلك الساحة الجميلة . كان يحب أن يقف فيها ، في ساحته الصغيرة ، لامعروفاً ، ولا مألوفاً . يحس أن عدم الاهتمام به يحرره من كثيرمن الالتزامات السخيفة التي دمرت حياته في الماضي . لكنه سرعان ما بدأ يضيق بمثل هذه الحال الشقية . وصار يطمع ، من آن لآخر ، في الحديث مع أحد العابرين . لكنه لايتقن اللغة بشكل يسمح له بالكلام ، بكلام متسق ومفهوم . وسيكون الحديث ، في هذه الحال ، مجرّد تصويت . وهو ما اضطره ، ربما ، لكي يلْحَق بها كالكلب الأليف ، وليقعي بالقرب منها في المقهى المليء بالنور ، ساكتًا ، منتظراً أن يحدث مايتوقَّع حدوثه ، مع أنه يجهل كل شيء

عـــمّــا ينتظره . ومع أنه واثق من أنْ لا شيء ســيــحــدث ، على الإطلاق ، فقد أحس ، برغم ذلك ، باضطراب غامض يملأ فؤاده من جرّاء إنتظاره .

منذ أن استقر بالقرب منها ، بدأت صُوَر حياته تتداعى في رأسه كالبروق المتلاحقة . وهو يحب أن يستعيدها : حياته الأولى ، والأخيرة ! فمن المستحيل أن يولَد المرء في حياته مرتين ، مهما أدَّعينا ذلك ، ووجدنا له من المسوِّغات والأكاذيب . ومهما أسْرَفْنا في نفاقنا الفكري لأنفسنا التي تملؤها الخيبات . كم من مرة قال لنفسه : تحتاج الحياة إلى معجزة لتصير محتملة . ومع ذلك كان يحب أن يتلَمّظ بمذاقها ، تلك الحياة التي صارتْ ، الآن ، بعيدة . وبخاصة ، في حضور أحد آخر يستطيع أن يصوم عن الكلام دقائق .

وهو يُمارس ذلك التَلَمُّظ ، تأخذه ، غالباً ، موجة من النشاط المدهش ، فيصير يَتَفَلَّتُ ، ويقوم ، ويقعد ، وكأنه يحس أن عليه أن يطير ، لا أنْ يظل ساكناً في مكانه . فالسكون موت ، كما قال صاحبه ، قبل أن يؤكِّد له : أن تقفز في فضاء مجهول ، برغم خطورته ، لهو خير لكَ من أن تظل ساكناً في مكانكَ . ولكن كيف؟ وقبل أن يبتعد كثيراً في تخرّصاته ، سَحَبَتْه من طرف كُمّه ، قائلة بامتعاض : أُنْظُرْ !

-٢٠-

كـان المسـاء يحط على العـالم ، ومـعـه يحطُّ عليـهـمـا صـديق الحديقة الثقيل . من أين جاء في مثل هذه الساعة ؟ وهو يقول في صمـته هذا ، أحس بقلبه بارداً مـثل جُرْف صـخريّ لم يرَ الشـمس منذ دُهور . أي شـقـاء هو تَحَمُّل كـائن لا يحب المرء أن يتـحَمَّله ، أحيـاناً ، حتى ولو كان مَشْغوفاً به ، أو كـان اللقاء في مصلحـته ؟ ليكُن ! فكَّر صـامـتـاً . عند هذه النقطة ، أحسَّ بانفـراج مـفـاجيء يُخَلْخِل الانقـبـاض الأسـود الذي اعـتـراه ، ويملؤه بغبطة مـفـاجـئـة أدهشَـتْه . ولكن ، لماذا توَهَّجَتْ نفسـه لمجيئه اللامنتَظَر؟ ولماذا ، في الخفاء الأرْعَن للذات ، الخفاء الذي لا يعرف المداهنة ولا الكذب ، شعر بأنه سعيد فعلاً لوصوله في هذه اللحظة ، وفي هذا المكان؟ ما همّ ، إذن ، أن يُظْهِر غيـر ما يُبْطِن؟ ومـتى كـان للكائن وجه واحـد فقط .

كَمْ مـرة قـال له صـاحـبـه ، هذا ، الذي شُـغِفَ به في البـدء ، وصار يراه ، الآن ، ثقيلاً مثل كَوْم من التراب ، كَمْ مرة قال له ، وهو يهزُّه في فضاء الحديقة : لا يعيش بوجه واحد إلاّ الأحـمق . يقول ذلك وهو يتطلَّع في عينيه ، وكأنه يريد أن يصل إلى روحه عَبْرهما ، قـبل أن يضـيف : تعـدد وجوه الكائن إنْ دلَّ على شيء ، فـهـو يدل

على تعدد مستويات الحياة الفكرية عنده . ولا تنْسَ أن أيّاً منا لا يمكن أن يحيا كما يحب إلاّ إذا تَلَبَّس وُجوه الحياة ، كلها . ولم يكن يتركه قبل أن يطمئنَّ إلى أن ما قاله وصل إليه ، تماماً . وعندها ، يصير يدور في مكانه وهو يتساءل من قفاه : ومَنْ باستطاعته أن يفعل ذلك ، أن يتعدَّد دون أن يتبدَّد ، غير كائن ذكيّ وجَسور ؟

وعندما يراه اغْتَمَّ ، أو اضطربَ ، بسبب كلماته التي أَلْقاها عليه ، بلا حذر ، مثل صخور الجبل المَهْدود ، يضيف متهَدِّئاً ، وناقلاً دفة الحديث إلى جهة أخرى لم تكن منتَظَرة ، قائلاً بتودد : ولكن ، احذرْ! إحذَرْ من الأفكار الصائبة! أو التي تبدو كذلك . وبعد قليل من الصمت ، يعود إلى الحديث رافعاً بَصَره إلى الغيم :« يجب ألاّ تتبع فكرة واحدة حتى النهاية ، وبخاصة عندما تبدو لكَ صائبة . لأن الأفكار الصائبة ، غالباً ، ما تكون مميتة» . يقول له ذلك ، دون مبرر واضح بالنسبة إليه ، ويسكت . أو أنه صار يرى الأمر ، اليوم ، على هذه الشاكلة . آنذاك ، لم يكن يطمئن إلى سُكوته المفاجيء الذي يعقب هَوْجَة الكلام ، فيصير يفكِّر : لا بد أنه أراد أن يقول شيئاً آخر ، غير ما قال . ولكن مَنْ يدري ماذا يدور في عقل كائن يَتَذَرَّعُ بالصمت سوى الشيطان ؟ ومن جديد ، يتساءل بلا أمل في الجواب : وإلاّ لِمَ تراه يقْطَع الكلام ، فجأة ، وكأنه شَرِق بأقواله ؟

الآن ، هاهُوَ ذا صديقه يُرسل ، منذ أن جلس ، نظراته الوقحة حوله بلا تهذيب . لكأن عيونه تتحوّل إلى ألسنة عديدة تتكلّم مع الأشياء ، وتقول لها أكثر مما ينطق به لسانه بكثير . وكاد أن يحسد الأشياء على لغتها الخرساء التي تتبادلها مع نظراته الشيطانية . لكنه سكت ، هو الآخر ، وكأنما أَلَمَّ بفكره عَطَب مفاجيء . اكتفى صاحبه ، في ذلك الغروب الممتليء بالنور ، بعد أن استَتَبَّ له

الأمر ، بأن رفع رأسه إلى الأعلى وهو يَتَشاهق ، وكأن الصمْتَ الذي يسبق الكلام أكثر إفصاحاً من الكلامُ نفسه . تساءل ، مرة أخرى ، صامتاً : لماذا جاء الآن ؟ . إلاّ أن الآخر بدأ يحكي بصوت عال ، وكأن الآخرين لا وجود لهم . قال :

- بحثتُ عنكَ في الحديقة . مشيتها جيئة وذهابًا أكثر من مرة ، ولم أعثر عليكَ . وخِفْتُ . خفتُ عليك من السأم واليأس ، وهو احتمال كبير عند مَنْ لم يحدد بوضوح موقعه في الحياة .

ولما رأى الدهشة تملأ نفسه ، قال مُلاطفاً :

- أذكر أنك قلتَ لي إن مشاريعكَ كثيرة ، وإن الوَضْع الذي تَرَحَّلْتَ عنه لن يستمر فيكَ طويلاً . لكن كائناً مُغْتَرباً ، مثلكَ ، لكَيْ لا أقول مُضطرِباً ، قد يحيد عن الطريق ، حتى ولو لم يُرِد هو ذلك .

بقيَ صامتاً يستمع ُبانتباه شديد إلى صوته اللاموسيقي الذي يضرب أصداغ الجالسين بالقرب منهم . من صمته ، حَسبَ صديقُهُ أنه مشدود إلى ما يقول ، فتابع كلامه الذي بدا مقْحَمًا على التاريخ ، والكائنات . وهَمَّ أن . . . لكنه لَجَمَ نفسه . فهو لا يريد أن يثير الغبار الآن حول وَضْعه ، ولاحول علاقتهما التي بدأت تتخَثَّر بهدوء مثل حليب أمه في الفلاة . فظل يتابع ، بلا أسَفٍ ، إصغاءه الأنيق . كان يعرف أنه لم يَصِرْ ، بعد ، على مستوى الإدراك اللازم لكي يهرب من الإستلاب . استلاب الرُؤى واستلاب السلوك . فاكتفى بأن أمال رأسه حتى كاد أن يلامس شفاهه علّه يلتقط كل كلمة من كلماته التي يَتَفَنَّن في كيفية إخراجها من بطنه هَمْسًا . وتابع صديقه نَفْثَ الألفاظ ، وهو ينظر في عينَيْ جليستهما المشدوهة من البَلَه والإمتعاض :

- في الحـيـاة ثمـة مَنْ يتَكلَّم ، وثمـة مَنْ يتَـعلَّم . والدَوْران متكاملان ، ومتبادَلان . لا تمْنَعْ نفسكَ ، إذنْ ، من التمتُّع بالاستماع إلى الآخرين . الأحرى بكَ أن تحرّضها إلى أقصى حد ممكن على فعل كـهذا ، وأن تختزن في وعيك كل ما يمر عليك من حركات وكلمات .

وأكَّدَ ، بعد أن أراح لسانه قليلاً :

- أن تختزنه في وعيكَ ، وليس في لاوعيك . لأن اللاوعي لا وجود له . أو هذا ما أعتقد أنا به .

ولما شَعَر صاحبُه باضطرابه اللامفهوم ، ولكن المتوَقَّع (فهو لا زال خارج حلقة الفاهمين ، أو الـمُدْركين ، بالنسبة إليه) أراد أن يشرح له ما الْتَبَسَ عليه . فتابع طَحْن الكلام فوق رأسه :

- أنت حديث العـهـد بالخـروج ، وليس أمـامك إلا الانتبـاه والحركة ، حتى تكتسب الوعي الضروري والمعرفة اللازمة لمتابعة الطريق .

وقبل أن يستوعب كلماته التي قالها له بدَفْقَة واحدة ، أضاف دون أن يهمه أي ارتكاس يصدر عنه ، وقد رآه يغلق عينيه ، ويكاد يصمُّ أُذنيه ، لئلاّ يرى أحدًا ، أو يسمع حِسّاً :

- انتبه! كل حركة يمكن أن تكون مغامرة . مغامرة ممتعة وجميلة . وإن لم تكن كذلك ، عليكَ أن تحيلها إلى ما يُشبه هذه ، وبطريقتكَ الخاصة .

وكأنه أراد منه أن يفهم عكس ما يرمي إليه ، تطلّع مبتسماً نحوه ، وهو يتناول فنجان قهوته التي بَرَدتْ ، قبل أن يقول :

- أنا مـثلكَ جـئتُ من منطقـة «القَمْع الأعـمى» ، منطقة «الكاؤو» ، إذا أحببتَ . المنطقة العربية التي لا تنظر إلاّ إلى سرتها

العفنة ، والتي لم تجد ، إلى اليوم ، من وسيلة لتأكيد ذاتها سوى . . . التقليد . التقليد السيّء ، ولتوافه الأمور .

وبعد أن رشف قليلاً من قهوة «دانتون» اللامُحَلاّة ، فهو يكره أن يخلط القهوة بالسكر ، قال ، وكأنه يريد أن يغيِّر مجرى الحديث ، وقد رآه يحرك السكر في فنجانه :

- لا تمزج الحلو بالمر ، إلاّ إذا أردتَ القضاء عليهما ، معاً .

ودون أن يتطلّع إلى وجهه الذي بدأت التعاويذ ترتسم عليه ، أضاف :

- وكل مزج سيء إلاّ مزج الكائن بالكائن .

بَدَأَت الأفكار تغلي في نفسه : أتراه يحب أن يتكلم معي بكل هذه الصراحة ، أو الوقاحة بالأحرى ، فقط ، لأنني لا أرى إلاّ أعماقي المليئة بالرماد ، رماد القمع المتراكم منذ سنين ، وهو لا يريد إلاّ إنتشالي منه ، كما يزعم؟ أم هو يفعل ذلك لسبب آخر ، سبب لا يريد أن يكشفه ، الآن ، لي؟ أم أنه يستسيغ الكلام معي ، لأسباب أخرى شديدة التداخل والتعقيد حتى لَيتعذّر شرحها بكيفية مناسبة في الظرف الذي نحن فيه الآن؟ أم أن ذلك كله ليس أكثر من ذريعة ، كما هي الحياة نفسها؟ أم . . .؟

أم أنه لا زال يعتقد بأنني لستُ إلاّ بَرَدى ، إلاّ نُهَيْراً صغيراً يَخْتبيء بين أشجار غوطة محدودة . يكفي إلقاء حجر فيه ، ليتعَكَّرماؤه ، ويَخْتَلُّ هدوؤه ، ويَخْرَب نقاؤه . وأنا أحسُّني شيئاً آخر . لَمْ يعد يخيفني لا الصمتُ ، ولا الكلام ، بعد أن قَطَّعْتُ وُثوق الحياة الدمشقية التي كانت تكبّلني . الآن ، صرتُ أشعر بحاجة عميقة إلى معرفة الكثير من خفايا الحياة . تلك «الخفايا» التي كانت تُعَدُّ ، قبل اليوم من البديهيات . كدتُ ابتسم لمصيري

المعجون من الكلام : مصير الريح الخفيفة مثل طيف الحرارة الناعس في «الجزيرة» . ليتَكلَّم ، إذن!

ورأيتـه يروزني بعـينيـه ، وكـأنه يريد أن يقَـدِّر ، تمامـاً ، وزني التـاريخي . فـهو ، كـثيـراً ، ما حكى لي عن هذا العـامل الحـاسم ، الذي يحدد مكانة الكائن في الحياة ، قبل أن يقول :

- الكـائن الـلاواعي (وهَزَّ إصـبـعـه في وجـهي) مِـثْل الثـور الأعـمى . يمكن أن يَنْطَح جداراً ، أو أن يَتَمَرْغَل فوق زِبْله . إنه طاقة عنيفة بلا دليل . ومن هنا تنبع خطورته المتعددة الأبعاد .

مَنْ يعني ؟ تساءلتُ صامتاً دون أن أحظى بجواب . وبعد أن استردَّ أنفاسه التي بدأت تتقَطَّع مع تسارع الكلمات ، أضاف :

- وإلى أن يبدأ بالنظرالواعي إلى نفسه ، وإلى الآخرين ، يلزمه الكثـيـر من الجـهـد . ومنذ أن يعي ذلك يصـبح كـائناً آخـر : كـائناً تاريخياً ، بعد أن كان يَثْوي خارج التاريخ .

وسَكَتَ .

مـاذا أراد أن . . .؟ وإلى أي نقطة يحب أن يصل؟ تسـاءلـتُ صامتاً ، وأنا أُلاحق الأنوار .

-٢١-

أحسُّ بنوع من الراحة في حضوره ، برغم ما يعتريني من هَزّات . لم تكن العزلة هي ما يجعلني أغتبط بوجوده ، ولا التوَحُّد ، ولا الطمأنينة التي كنتُ أشعر بها بالقرب منه ، ولا الأشياء الأخرى كلها التي يمكن أن تخطر على البال . لا . إنها القارعة ! إنها الطريقة البَرِّيّة التي يُمارِس بها النقد . الطريقة التي يتوجّه بها إلى الآخر ، أقصد إليَّ ، دونَ أي حذر أو لَبْس أو إهتمام بمشاعره ، هي التي أغوَتْني . وفي النهاية ، أنا لم أجيء إلى هنا ، ولم أترك مضجعي الأليف ، من أجل أن أتَمَرَّغ كالضبع على رُفات الكلمات ، وبخاصة ، بعد الخمود الدمشقيّ الطويل حيث لم يكن يَسُودُ إلاّ التَفْريغ المتعمَّد لجوهرالكائن ، وعدم الإهتمام بإرادة الفرد .

ما عثَرْتُ عليه في طريقي ، بدأ يحرِّضني . هل أتخلّى عنه بسبب اعتبارات أخلاقية ، أو هَيَجانات مشاعرية؟ لا . بالتأكيد . فليتَكلَّمْ على هواه ، طالما أنني سأكون المعنيّ بالأمر والمستفيد الأخير منه . وهو لن يزيدني إلاّ تصميمًا على تغيير مجرى حياتي بأي شكل كان ، ومهما يكن الثمن . لم أعد أريد أن أظل واقفاً في نفس النقطة القديمة . لقد صرت مستعداً ، منذ الآن ، للوصول إلى الهاوية . في دمشق ، كنتُ اكتفي بالنظرة السطحية إلى الناس .

ابتسامة لطيفة من أي كان تكفي لأذوب فيه ، وبخاصة عندما يكون أنثى . علاقتي اليومية بالعالم الذي يحيط بي لم تكن تقتضي أي تعقيد ، أو تعمّق ، أو حذر من الآخرين . أحوالي البائسة لم تكن تفسح الطريق لعقلي ليسلكه حتى النهاية المُفْزِعة : نقطة الشك بالآخر . ودون الشك لا مجال لنمو العقل ، ولن نتعلّم من الحياة غير السذاجة . وهي لا تكفي لوقايتنا من الانهيار ، كما سأدرك ، فيما بعد .

هذا مافكَّرْتُ فيه يومذاك ، وأنا أنتظره في الحديقة ، مستعيداً ، بعض ما قرأته عن ثراء الرحيل عند كافافيس ، حيث يقول :

« لتكن إيثاكا في فكركَ دائماً ، والوصولُ إليها هو مقصدُكَ .

لكن ، لا تتعجَّلْ في سيركَ . الأفضل أن يدوم السفر سنوات عديدة ، وأن تصل إلى الجزيرة عجوزاً ، غنيّاً بماكَسَبْتَهُ من الطريق .

لا تتوقّع أن تعطيكَ إيثاكا ثراء . لقد منحَتْكَ الرحلة الجميلة .

فما كنتَ لتخرج إلى الطريق لولاها .

وما دمتَ قد صرتَ على هذا القَدْر من الحكمة ،

ولكَ كل هذه الخبرة ، فلا بد أنكَ قد فهمتَ ماذا تعني إيثاكا» .

منذ أن وصل ، ألقى نظرة فاحصة على المرأة التي كانت تنهار بالقرب مني . وعلى الفور ، أدار رأسه الصغير عنها ، وهو يرسم على وجهه علامات الاستياء العميق (هي الأخرى صارت تعرف مواقيتي ، وتأتي أحياناً لتثرثر معي ، وأحيانا تغفو قليلاً كما هي حالها اليوم) . وبدأتُ أُفكّر مضطرباً : «أنا لا أعرف شيئاً عنها مع أننا تلاقَيْنا أكثر من مرة» . وصرتُ ألوم نفسي على قماءتها ، وأنا استرق النظر إليها . وأحسستُني استحق اللوم فعلاً ، لأنني

استهنْتُ بوجودها إلى هذا الحد . ولم أجد ذلك مدهشاً ، لأن المجتمع الدمشقيّ الذي نشأتُ على تعاليمه لم يكن يرى من الكائن إلا مظهره ، أو غِناه ، أو سلطته ، أو جماله . وهذه ، لا تملك أيّاً منها . ذلك هو السبب ، ولا بد ، في تجاهلي إياها ، أو عدم إهتمامي بها . لو كانت أكثر جمالاً ، أو أكثر أناقة ، أو لديها إغراء جنسي ظاهر ، لأنبطَحْتُ أمامها كالكلب الجائع . ولركِبَني الهوس والإصرار لإيقاظها ، والتكلّم معها . ولكنني لم أرَ ، لم أحاول أن أرى ، فيها أية ميزة ، بعد أن قمْتُ بمَسْحِها الفوريّ ، منذ أن وصلَتْ .

أحسَّ بارتباكي ، ولا بد ، لأنه قال بخفوت ، بعد أن حط رأسه تحت أُذني :

- لقد . . .

لم يُكمل سؤاله ، أو كلامه ، ولا حتى فكرته . ووجدتني أرد ، أنا الآخر ، بشكل آليّ :

- آه . لقد . . .

كانت عندي رغبة عميقة في أن أكون غير دقيق في هذه النقطة ، وفي تلك اللحظة بالذات . وسأعرف فيما بعد : «أن عدم الدقة هو الدقة نفسها» . وقبل أن أذهب بعيداً في أفكاري ، كرر كلامه الغريب :

- لقد نامَتْ .

بقيتُ صامتاً . أنظر في البعيد إلى ذُرى الأشجار المليئة بالرطوبة . الحديقة جميلة وزاهية . وفي الخريف تبدأ ألوانها بالتجلّي . وإلى الألوان الأساسية تُضاف لُوَيْنات عديدة تحتاج إلى عين مدققة لتراها . مِنْ هذه الفُروق اللُوَيْنيّة امتلأَتْ سلة نفسي

بالكثير من المشاعر والأفانين . في الصحراء التي غدت بعيدة كنتُ أعمى تقريباً . أرى الأصفر وتجلياته ، فقط . وأحب الأخضر الطالع من القبر ، من قبر الرمال المسطحة إلى ما لا نهاية . الآن ، أحس بالرجفة تعتريني كلما ابْتلَّت الغصون ، فتَخالَطَت الأشعة في ذُراها ، فتبدَّلَتْ ألوانها . أعادني صوته الحَصَويّ إلى الأرض وهو يقول بنوع من الغموض :

- سئمتُ من نومها الذي لا نهاية له . لكأنها تموت .

ولّما رأى اضطرابي اللامفهوم ، إذْ لم أكن ، كما حَسِبَ ، معنياً بالأمر ، أضاف بازدراء :

- استمرار الاشياء على ما هي عليه مخيف . حتى العمر الطويل مريع .

وإذْ بقيتُ صامتاً كالحجر ومأخوذاً ، في الوقت نفسه ، بمن حولي من كائنات الحديقة ، وأشجارها ، دون أن يثير صخبُه اهتمامي ، أكملَ باستياء ، وكأن صمتي كان رفضاً له :

- ألا تريد أن نوقظها؟

كنتُ أحب أن أقول له : لا . لا يحق لنا أن نوقظ نائماً لا تربطنا به أية علاقة . وحتى لو ربطتنا به علاقة غاشمة . مَنْ نحن حتى نخرّب نومها العميق . وهل تدري بأية أحلام تحلم الآن ؟ كدتُ أقول . لكنني لم أقل شيئاً . وهذه هي النقطة الأساسية التي صار يطرحها عليَّ «وضعي الجديد» . أُفكِّر . والوقتُ يمر . والأمر يتبدّل مع تبدُّلات الأمزجة . والصمت يغدو هو الحل الأمثل . ومع ذلك ، عليَّ أن أتصرَّف بنفاذ إذا ما أردتُ أن تنقشع العاصفة في رأسي ، وأن أصل إلى حيث أريد . ولكن ، أين يقع هذا الـ حيث الذي أبحث عنه؟

مبتعداً عنه ، صرتُ أبعثر التراب بقدميّ ، وألمس جذوع الأشجار المليئة بالقشور ، وأتعجّب : كم من السنين مرّتْ على هذه الجذوع التي كانت ، ذات يوم ، أغصاناً طرية ، وشاخت ؟ ولا أعذّب نفسي في التمادي في الكلام . على العكس ، وقفتُ في مكاني لبرهة ، صامتاً ، وأنا أمعن النظر فيما حولي ، وقد شَغَفَتْني الآلاء التي كنتُ أراها . محيط الحديقة الآخذ في التباهي بألوانه التي لا تُحصى ، هو الذي سيملأ قلبي بالسكينة ، ويجعلني أحس بنعاس في غير أوانه . لكأن أوراق الأشجار الهائلة الروعة رَشَّتْني بمسحوق سحري جعلني أتخلّى عن مبدأ الإحباط الذي كنتُ أعيشه بشكل يكاد أن يكون عفوياً . ووجدتني أتساءل بصمت : من أين تولد هذه الأساطير اللونية في الطبيعة ؟

شعرت أنه ينتظرني بفارغ الصبر (وكنتُ قد تركته منذ قليل متصنعاً حاجتي للتبوّل ، وظل هو جاثماً على المقعد الخشبيّ بالقرب منها) ، فعدت بلا استعجال إلى مكاني . حسبتُ أنه تَجاوَزَ موضوع المرأة الغافية بعد أن تحاورنا حولها ، وحول أمور أخرى متباينة وكثيرة ، وقد غبْتُ عنه وعنها ، فترة . ولكن ، لا! هو لا يَنْسَى أحداً ، كما صرتُ أعرف ، ولا يُهْمِل شيئًا . لأن كل ما يمر بنا يستحق اهتمامنا الكامل ! يقول . ولا ينسى أن يضيف : هذه الحياة المليئة بالمساويء والمزايا ، إنْ أهْمَلْنا بعضها ، لِمَ ترانا سنهتَمُّ ببعضها الآخر ؟ وهو يريد أن يكون عادلاً إزاء الأوضاع ، كما هي الحال مع الكائنات . ولكن ، لماذا كل هذه الغلَبَة البادية على سحنته التي أصبحت مريبة؟ وأصير أتصوَّر الكثير ، حول القليل الذي أراه . لكن تصوُّراتي لا تصيب دائماً . وفجأة ، قال :

- لقد أطالت النوم ، ياصديقي .

لم أجب . بمَ كان يمكن لي أن أجيب عن كائن لا أعرف عنه شيئاً؟

بدأتُ أتوجّس خيفة من التنظير في الآونة الأخيرة ، وبخاصة بعد أن أكتشفتُ أننا يمكن أن نكون سعداء دون أن نُبالغ في المعرفة والتصدّي لتحليل كل شيء وتركيبه . لكنه قال :

- أنا لا ألومها على النوم الهانيء الذي تغرق فيه ، لكنني لا أُحب الإطالة مهما كان مبررها .

قال وهو ينظر إلى عينيّ اليابستين من الدهشة . لكأنه أراد أن يطمئنني بعد أن أحسّ باضطرابي الداخليّ . كنت أتوقع منه أي تفسير إلا هذا . وعندما أدرك ما وقعتُ فيه من حَيْرَة ، أضاف ببساطة ، وكأنه أفتعل «المشكلة» ، كلها ، لكي يبرر ما سيقوله ، الآن :

- الجميل جميل لأنه لا يدوم . لأنه ينتهي . لأنه انتهى . . .

كان يتكلم وهو يضع نفسه في عينيّ ، وكأنه يريد أن يرى عَبْرهما ما يدور في عقلي . وللحظة أحسستُ بالخوف من نظرته الشيطانية هذه : نظرة العارف ، والتي كان أحياناً يسميها نظرة الغارف ، الذي يغرف ما يجول في ذهن المحاور . لكنه سرعان ما كَفَّ شَرَّ عينيه عني ، وتابع :

- كل شيء يمكن أن يصير جميلاً ، وأن يَسْتَحْوذ على قَدْر كبير من عواطفنا ، وحتى أن يجعلنا نحبه بعد أن كرهناه ، عندما ينتهي . العاصفة ، نفسها ، بعد أن تمر تبدو لنا جميلة . وقد نَحُنُّ إليها بعد أن كانت تملأ نفوسنا بالرعب .

- ماذا تريد أن . . .

بحركة سَيْفيّة من ذراعه قاطَعَني بنفاذ صبر ، قبل أن أكمل

الكلام الذي بدأْتُه . لقد بدا له ، وحتى لي أنا ،«كلاما لا جدوى منه» ، لأنه ، منذ اللفظة الأولى ، أبان عن خصائصه المُرائية ، وبدا وكأنه يتجاهل الأمر الأساسي بدلاً من أن يواجهه بصراحة . قاطعني ، وقال مركِّزاً على كل كلمة من كلماته :

- لاتكُنْ ، أبداً ، لا مع أحد ، ولا مع وَضْع ، لا تؤمن به ، ولا تدرك كل أبعاده . لماذا؟ لكي تُجَنِّب نفسك عناء الدفاع المُتَعنِّت عنه ، أو التَهَيُّج الأحمق بسببه . وحتى لا تكون مضطراً كيْ تُزَيِّف مشاعرك ، فتحاول أن تعطي ما لا تعرف كيف تعطيه ، لِمَنْ تجهل كيف سيستقبله منكَ .

وبعد أن استشَفَّ مفعول كلماته الهُوج ، في نفسي ، وكان قد بدأ يهدأ قليلاً ، وأصبحت ذراعه القصيرة في جيبه ، تابع :

- وإذا أردتُ أن أوضح أكثر ، أقول : حتى الحياة ، نفسها ، تُسمّى : «حياة» لأنها لا تدوم .

كدتُ اسمع صرخته الخبيئة : «فهمتَ ، يا غبي»؟! وبلا تردد قام واقفاً ، وخَطَا الخطوة الأولى ، وهو يقول : لنَمْشِ .

-٢٢-

لكأن رحيلي الذي كان خطوة كبيرة في حياتي ، أخذ يُعَرْقِل خطواتي اللاحقة على درب الحياة . أو كما يحب هو أن يقول : «على درب الوعي» . يقول هذا ، وكأنه يريد أن يريني مشارف مشعَّة وظلالاً . يجعلني أفتح عينيَّ اللتين أصرُّ على إغماضهما . ويوصلني ، في النهاية ، إلى أن أجمع بين النقيضين . فأنا لا زلتُ أتَوَخّى الراحة ، وأتجَنَّب العذاب . وكثيراً ما كان يشير بأصبعه إلى الفضاء الباريسي المُدلَّه به ، قائلاً : أُنْظُرْ ! ويصير يَلوزُ بعينيه مثل صقر أعمى يبحث عن طريدة فَرَّتْ منه ، ولم يعد يستطيع تحديد مكانها . فينَقضُّ على الفراغ . يَخْبطه بمخالبه الحادة . ولا يحظى بشيء غير صَفْق أجنحته في الريح . وأنظُرُ بنُبْهَة ، ولا أرى سوى الشعاع الأخير للشمس الغاربة في البعيد .

كان المساء الخريفي ، ذلك اليوم ، قد بدأ يرسل أفواج ظلامه الذي تصدَّتْ له أنوار باريس التي لا تُحصى ، فجَعلَتْه شفيفاً مثل سُجُف من حرير . مع ذلك ظل شيء من الضوء الأخير للشمس يرقى السماء عالياً ليرينا أشعته الصُفْر البُرتقالية قبل أن تتلاشى بهدوء في مقلة العين . وأُعيد النظر من جديد ، ولكن إلى النقطة التي سَحَرَتْني : بُؤرة الظلمة التي بدأت تعلو فوق جناح الشمس

المُقَوَّس الذي صار أسوَدَ من شدة الإحمرار . صرتُ حساساً لما أرى؟ بلى! وكنتُ ، من قبل ، لا مبالياً ، ولا شَغوفاً . هنا ، صرتُ أشعر أن الأشياء ملكي . أقصد ملك حواسي .لا يُنازعني أحد عليها . ولستُ مضطراً إلى تسوّل رغبتي لفعل إي شيء . هذا الاحساس العاتي بالحرية الداخلية هو الذي دَوَّخَني . أن أنظر إلى شيء ، أو أن أُغمض عينيَّ عنه . أن أريد ، أو لا أريد . أن أُلْقي نفسي على التراب ، أو على المقعد الخشبي المهترىء . أن أكون وحيداً ، أو برفقة المرأة التي . . .

لكنني سأتساءل ، سأكون مضطراً ، في الحقيقة ، على طرح السؤال الأثير على نفسي : هل كان ثمة ما يمنعني من النظر في دمشق ؟ لا! كان جوابي الصريح لذاتي . لكن النظر كان له طعم آخر : كان بلا طعم . كان فارغاً . أو بالأحرى لا يملؤه شيء ، ولا هو قابل للامتلاء . تظل الاشياء خارجه ، وكأنها لا تعنيه . وهو كان فارغاً لأن نفسي كانت محشوّة بالغَمّ . هل فهمت شيئاً؟ تساءلتُ صامتاً ، من جديد ، وعلى وجهي علامات استياء عميق ، وقد أدرَكْتُ أن خسارتي لا تعوَّض . ونَفَرْتُ منه . ليس لأنه السبب ، ولكن ، لأنه جعلني أرى .

في أفق الضوء الأخير الذي كان يهيمن على فضاء الحديقة ، ذلك اليوم ، رأيته يَتَلَخْلَخ . لكأنه أضاع مفتاح قلبه . يريد أن يراني ، وأتخابأ أنا عنه خلف الجذوع العملاقة . يستدير حول محور جسمه الهزيل باحثاً عني ، ليملأ عينيه الباهتتين ، ولكن المتقدتين ، من وجهي الذي امتقع ، ولا يرى سوى التراب . كانت الأشجار الخرافية قد سَحَبَتْني نحو قبة السماء لأرى ذوائبها تحت الغيم . كنتُ ممتلئاً ، إلى حد التُخْمة ، بنفسي ، وبدأتُ ، اليوم ، أرى الوجود

بشكل آخر . بدأتُ أحسّ أنني بحاجة إلى أي شيء ، ما عدا وجهه الذي بدا لي ، في مساء الحديقة الرائع ، نقيضاً لكل جمال طبيعيّ . فتجاهَلْتُه . وكان ذلك ، ولا بد ، بتأثير ما يعتمل في أعماقه (وفي أعماقي أنا ، أيضاً) من مشاعر ، ومخاوف ، واضطرابات . فابتعَدْتُ عنه ، وعني .

أشجار الخريف جَذَبْتني بكتلة ألوانها الآسرة . وأخذ فعلها اللونيّ يَتَغلْغل في أعماقي . فصرتُ أنْأى عن كل ما عداها ، لأقترب منها أكثر ما يمكن . ووجدتني ألجأ ، بغبطة عميقة ، وبنوع من الشغف المفاجيء ، إلى الفضاء المليء بألوان الأوراق الخريفيّة المتعددة المَصائر : الآيلة إلى السقوط منها ، أو التي تتهيّأ لكي تلامس القاع برهافة . والواقفة على شفا الهاوية ولا زالت تتشبث بعُرَيْق ضئيل . أو تلك التي تريد أن تسقط ، ولا تسقط . لكأنها تَهْوى أن تتحرر من غصنها ، وهو لا يريد . وربما كان العكس هو الصحيح : هو الذي يدفعها بعيداً عنه ، وهي لا تقوى على فِراقه .

ذَكَّرَني ذلك بحالي ، فأدرتُ رأسي نحو الجهة الأخرى سريعاً وأنا أتَشاجر : يكفي! لا بد لي من مواجهة كل شيء . من مواجهة الحياة الحقيقية ، بحقيقتي ، أيا كانت . اِنْشَغَل عني ، هو الآخر ، بالنظر إلى الأشجار التي كانت تهتزُّ ، بأُبَّهة ، فوق رأسه ، فتابعتُ تقْريع ذاتي ، ولَوْمها : يكفي الإختباء داخل الذات الذي يعطِّل الحس والعقل . وأظن (وليس بعض الظن إثماً) أن سوء الواقع الذي كنت أعيش فيه ، ونَكَده ، هوالذي عَطَّل حواسي ووَسَمَني بهذه اللامبالاة الزائفة التي ترتديني . وقد أصبح الخلاص منها ، اليوم ، لا مفرّ منه . فجأة ، إلْتَفَتَ إليّ . والْتفتُّ إليه . وتراءيْنا . كان صمتنا

كاملاً . لا هو تَحَرَّك . ولا أنا .

الشعور بالرهبة أمام ألوان الخريف المحترقة ، هو ، وحده ، الذي ملأ نفوسنا بذاك الصمت العميق؟ لا . ثمة أمور أخرى كثيرة كانت تشغل قلبي أنا ، على الأقل ، ولم أكن قادراً على الإمساك بها ، أو الخلاص منها . كانت متعة الصمت التي اغتبَطْتُ بها في البداية ، قد وصلَتْ إلى حَدّها الأقصى . وبدأتُ أحسُّ أن ما لا نستهلكه ، سيستهلكنا هو ، في النهاية . فليس ثمة عَطالَة في الوجود . لكنني كنتُ لا زلتُ أبحث عن المفتاح الذي يُمْكِنُني أن أفتح به القَبْو الدمشقيّ في نفسي ، لأتحرر من أسمالي الأخلاقية التي لم أعد أطيق احتمالها . وكأنه يسكن قلبي ، قال فجأة ، عندما وصل إليَّ ، وقد تصنَّع العثور عليَّ بالصدفة :

- تشغل روحي أسئلة عديدة حولكَ . وطقوس الصداقة (ولم يقل هذه المرة الثورية) تقتضي مني أن أحكيها لكَ . أن أحكيها بصراحة ، حتى ولو أثارت في نفسك السوء والإمتعاض . وبعد أن استعاد نَفَسَه اللاهث أضاف بهدوء : أنت رحلتَ لأنك كنت تعتقد ، كما أظن ، مثل كل الجهلاء في العالَم ، أن الفردوس هو المكان الذي لا نكون فيه . بمعنى آخر : الجحيم هو مكاننا . أو هذا ما خطر لي .

لم أقل شيئاً . لكأن كلامه لا يعنيني ، مع أنني أغتبطتُ بالإستماع إليه . وبعد لحظات من الهدوء العابر ، أكمل :

- ومع أن ذلك يمكن أن يكون حقيقياً ، إلا أنه مُتْخَم بالكثير من الإحتمالات . ونحن ، من هذه النقطة بالذات : نقطة الإحتمالات اللامتناهية نريد أن نبدأ الحياة عَلّنا نثوِّرها ، أو على الأقل ، نُغيِّرها .

- نحن متفقون .

إنفلَتَ الكلام من لساني وكأنه طلقة لا إرادية ، إلا أنها قاتلة . إذْ رأيته يتوقف في مكانه محدقاً باستياء في شجر الحديقة ، وفي فضائها المترع بالألوان ، قبل أن يرفع رأسه ليقول لي بصراحة :

- لا ! نحن لسنا متفقين . بيننا اختلاف عميق أنتَ لا تراه .

ولكي يُعمِّق «اختلافنا الوَهْميّ» أو الذي بدا لي كذلك ، والذي لم أكن على علم به ، قال بعدائية وكأن الحياة لا تستقيم إلا بالشِقاق ، موضحاً ، وحريصاً على أن يكون كل شيء في محله :

- وكلما بدا لكَ أننا على إتفاق ، كان اختلافنا أعمق .

- بشأن ماذا؟

قلتُ دون رهبة ، هذه المرة ، لأنني لم أعد قادراً على تحمّل جهلي .

- بشأن كل شيء . بشأن تلك المرأة الصافنة التي كانت تغْفو مُرْتمية مثل جدار مهدود ، مثلاً .

- وما يهمّكَ منها؟

كنت أريد أن أنتهي من استغلاله لي كموضوع للاستماع السلبي . أن أُوَسِّع الهُوَّة بيننا ، عَلّني أعثر على سِمات حياتي «الجديدة» . صِرْتُ مملوءاً بكلام لا هوية له ، ولم أعرفه في نفسي من قبل . لكأن انفجارًا مفاجئًا حدث في عقلي . وأول ما فكرتُ فيه هو : ضرورة السيطرة على هذا التفَجُّر . فسكتُّ . عندما سكتُّ ، شعرتُ بفراغ حولي . لم أكن أحسب أنه توقف عن المشي منذ هنيهات . لم يكن بالقرب مني ، كما هي عادتنا عندما نتَسايَر . هذه المرة ، تَخَلَّف عني كثيراً . وحينما الْتَفَتُّ إليه ، لم يكن ينظر إلى جهتي ، وإنما إلى فضاء مُكَدَّس فوق رأسه . أحسستُني

مسؤولاً ، بشكل من الأشكال ، عَمّا لحق به ، أو لَمْ يلحق . فوقفتُ في مكاني منتظراً أن يصل إليَّ . استَغْرَق ذلك لحظات بدتْ لي طويلة جداً . ومنذأن وصَلَ ، قال :

- كل شيء في الوجود يمكن أن يكون موضوعًا للإهتمام .

- للإهتمام! بلى . لكن ما علاقة ذلك بالتدَخُّل في شؤون الآخرين ، وبالتَعَدّي؟

عندما قلتُ ذلك بكل تلك الثقة العمياء حسبْتُ أن حجَّتي لا تُدْحَض . لكنني ، خِفْتُ وأنا أرى إلى احمرار وجهه المفاجيء الذي غدا مخيفاً . لكأنني حقَنْتُه بالسمّ . وبنوع من العنف اللامُسَيْطَر عليه ، قال :

- تسمّي نقد الواقع ، أو بمعنى أدق : نقد الوضع والكائنات ، تعدّياً؟ وأتساءل : على مَنْ؟ وكيف؟ أَوَلسنا نحن المعْنيّين بكل ما يحيط بنا؟ أم أنكَ لا زلتَ تَجْتَرّ تلك المقولة البائسة : لا تتدخل فيما لا يعنيك ، فتسمع ما لا يرضيك ؟

الْتَفَتَ إلى الوراء وكأنه يَتَحَسَّب من لِحاق أحد بنا . ولما كان الظلام الباريسيّ يستقر بلا تعكير ، ولا زَوْلَ في آلأُفق القريب ، أعاد نظره إلى حيث يقف على الأرض . وبدأ ينبش التراب بمقدم حذائه ، كما كان يفعل في لقاءاتنا الأولى . لكأنه يريد أن يذكرني بما أصابني من قمع ، وبما عرفته من عَسْف وطُغيان . ويذكّرني ، بالخصوص ، بالمرات الكثيرة التي أراد فيها دفعي إلى إعلان ذلك ، والتشهير به ، وفضح ما مرَّ عليَّ ، وماكابَدْته من عذاب . وكنتُ في كل مرة أُسَوِّف ، وأُماهِل ، لسبب لم أكن أدركه تماماً . وأيّاً كان الأمر ، لم أكن مقتنعاً بما يدعو إليه . ولم أجد ما يغريني عنده ، في هذه النقطة بالتحديد . ولم أتبعه .

كان شعور آخر يملأ جوانحي . شعور أقرب ما يكون إلى الحلم . إلى حلم جميل غير معطوب ، ولا بذيء . شيء جديد لم أتذوَّقه ، من قبل . يلَخِّصُه ، ببساطة : أحساسي المغتبِط بأنني أقترب من أمكنتي الأولى كلما ابتعدتُ عنها . لكأننا عندما نَنْفُرُ من بلداننا نَنْشَطِر ، كما هي الحال عندما نتركها قَسْراً . ولا يعود الجَمْع بين شطرينا ممكناً ، إلاّ نادراً . وعندما يحدث ، ونحن بُعَداء عنها ، كما في حالة النَأْي القسري ، مثلاً ، لا يكون تَشْهيريّاً ، ولا لامبالياً ، إلاّ عند بعضنا . ونصير ، على عكس ما نتوقَّع ، حريصين على الوحدة النفسية الجديدة التي صارتْ تجمعنا بأمكنتنا التي تركناها ، أو التي أُجْبِرْنا على تركها ، بالأحرى . شعور التوَحُّد معها الذي تَحَقَّق لنا ، أخيراً ، في المكان البعيد ، يغدو عزيزاً علينا ، وكنا ، ونحن نقيم فيها نفتقده بعمق ، بسبب القمع واللامساواة . وهو ما لم أكن قادراً ، آنذاك ، على شرحه له ، ولا لنفسي . ولربما لم يكن ، هو ، حساساً لذلك حتى لو شرحته . ومهما يكن الأمر ، فإن الحياة بالتأكيد أوسع من هذه التخطيطات الفكرية البائسة . فليتكلّم .

أحسستُ أنه يدور حولي بتوتّر وامتعاض . لكأنه يريد أن يشقّ رأسي ليتأكَّد بشكل مباشر ، ممّا في داخله من عَفَن ونفايات . وكنتُ ، أنا ، نفسي ، مقتنعاً بهذه الفكرة التي كانت تملؤني بالإحتقار الشديد لتاريخي الشخصي ، ولحياتي بالكامل ، بما فيها ما لا يستحق أن يكون تاريخاً . مع أنه أنَّبَني ، أكثر من مرة ، على هذه الفكرة المقيتة ، كما يسمّيها . وشرح لي رأيه حول هذه الملابسات ، قائلاً : الحياة ، كلها ، عظيمة ، لُبُّها وقُشورها . أعاد الجملة مرتين ، وهو يتبَحَّر في عينيَّ ، وكأنه يوصيني : لا تنس هذا أبداً . لكن ذلك ، كله ، مضى . ونحن اليوم في حال أخرى .

تكلَّمْنا كثيراً . وتَحاكَيْنا حول كل شيء . وهو ما غدا اليوم سلاحاً ضدي ، بدلاً من أن يكون معي . أو هكذا صرتُ أرى الأمر .

كنتُ أتصوّر أنه يكفي أن ألعن الحياة التي عشتها ، وأن أهمل الماضي البائس الذي عرفته ، أو أن أُعْلِن استيائي العميق من كل ما مرَّ بي ، ومن كل شيء ، حتى أصير كائناً جديداً . لكنه لا يقبل تصرفاً ملتبساً ومبتذلاً مثل هذا . ولم يعد يرضى ، بذلك الموقف الفكري الغامض المُتَّسم بالإعلان المجاني عن مواقف هُلامية لا محددة ، ولا مفهومة أحياناً ، حتى ولو كانت في منتهى الجذرية والرفض . فهي (مواقف كهذه) يمكن أن تخص أي كائن ، وأي وضع ، دون أن تضر بأي منها(من الأوضاع العربية الفاسدة) ، كما يقول . ماذا يريد ، إذن؟ يريد أن أن أُخَصِّص ، وألاَّ أُعَمِّم . أن أفضح ، وألا أتَسَتَّر . أن أمارس السلوك المناسب لفكري ، وألاّ استحي . أن أكون أنا الذي صرتُه الآن ، هنا ، وأن أتخلّى عن ذاك الذي كنته هناك ، أو على الأقل . . .

وبالفعل ، بدأ يُداوِرني ، أو يُراودني عن فكري ، وهو يُذكِّرني بأنني لم أَفِ بوعودي حول نقد الوضع الذي عشته . ولم أقل كل ما في نفسي . ولم . . . ولكي أغيّر الحديث المعاد ، والذي صرت أحس بعدم جدواه ، رفعتُ ذراعي عالياً وأنا أشير إلى الغراب الجميل الذي حطّ فوق رؤوسنا ، على غصن الشجرة التي كنا نقف تحتها متقابِلَيْن . وبدأتُ أثرثر معه (مع الغراب) بعفوية مثلما أفعل مع صديق قديم . ورأيته يهزُّ هامته بأسف ، وانفعال ، وهو يَتَكَمَّش بي ، وكأنه يريد أن يتحقق من وجودي إلى جانبه . أو لكأنه خشي من أن أطير مع الغراب . ولمّا استَتَبَّ حالي ، وتأكّد من بقائي إلى جانبه ، قال ، بعد فترة من الصمت العميق :

- تريد أن تَتَسَتَّرَ عليهم ، على منْ اضطهدوكَ ، وأبعدوكَ ، كما تدَّعي ، هذا شأْنكَ . لكن ، لا تُلْقِ دروساً في الاستسلام المجاني . وخاصة عندما يبدو لمن يستمع إليكَ (ولم يقل له) أنك مهيّء بشكل مسبق لهذا الاستسلام ، وبلا ثمن .

وبعد أن استَرَدَّ أنفاسه التي تلاحقَتْ بشكل سريع ، ينبيء عن احتداده اللامعهود ، نظر إليَّ ، وإلى الأشجارالمتهادية في فضاء الحديقة ، وهو يقول :

- ما يدهشني هو حيادك الكاذب ، وتَردُّدك ، عندما يتعلق الأمر بشأن مصيريّ ، كاتِّخاذ موقف صريح من الأنظمة القمعية التي لا زلت تخشاها ، مع أنك صرت خارج قبضتها . وبالخصوص ، ما يرتسم على سحنتكَ من «مسحة عَفْو دينية» تَتَخَفّى تحت غلالها وأنت تتكلّم عمَّنْ تحقد عليهم ، كما تزعم . وفي الحياة ، لا مكانَ للزّعْم ، لأن كل ما ينطق به الكائن حقيقيّ ، حتى ولو كان كذباً صريحاً . «فالكائن لا ينطق إلاّ عن الهوى» ، وإلاّ لِمَ تراه أختار هذه النقطة وليس تلك؟

وبلا توقّع مني ، أضاف بصوت نصف خافت : عَذَّبْتَني ! وسكت . سكت قليلاً ، قبل أن يعود أكثر احتداداً .

- تهرب منهم ، وتحرص على ألاّ تفضحهم؟ هذا آخر ما أتوقعه منكَ . أفهم أنك لا تريدأن تهاجِم أحداً ، ولا أن تفضح أحداً ، لأنك ، كما أتصَوَّر ، ستهاجِمُ نفسك وتفضحها ، لـ شدّة جهلك (والجاهل ، لعلمك ، كائن ضعيف حتى ولو كان ملكاً) . ولكن ، ألاَّ تستوعب ما يُقال لكَ بوضوح جهنميّ ، ذلك ما يثير استيائي .

بعد لحظات من الصمت الذي أراحني فعلاً ، وقد بدأ دماغي ينتفخ ، بفعل كلماته القاسية ، لم أجد مناصاً من طرح السؤال

البليد ، والذي شعرتُ به كذلك ، حالما طرحته ، مع ذلك كنتُ سعيداً بأنني بصقتُه ، لأن حاجتنا للكلام أحياناً أقوى من طاقة العقل على الإستمرار في الصمت :

- ولكن من هم؟

قلتُ متسرِّعاً . وسكَتُّ ، نادماً ، على الفور . لكأنني أردتُ أن استعيد كلماتي من الريح لأبتلعها قبل أن تصل إلى أُذنيْه . لكنه لَقَفَ الكلام ، وأعاده إليَّ بنبرة احتقار ظاهر :

- تسأل منْ هم؟ وأشار بسبّابته إلى القاع وهو يقول ، هُم الذين هَجَّرونا ، والذين سَدّوا الآفاق العربية ، وجعلوا خيرة أهلها ينتشرون كالذباب في زوايا الكون . أنسيتهم؟ ههْ! ههْ! صار يَنْحطُ وهو يَرْفُس الأرض ، وينثُرُ التراب ، ويحكي : هم الذين صادروا إمكانية الحياة الحرة من أجل تَدْجين البشر ، واستيعابهم ، وبخاصة ، أولئك المستعدّون منهم بشكل عفوي ، وكذلك الذين لا زالوا يعتقدون ، مثلكَ ، بـ فضيلة الحياد التي هي ، في الواقع ، شَرّ الرذائل .

وبعد أن فرك لُغْدَيْه براحة كَفَّيْه ، فَرَكهما ، بعنف ، عدة مرات وكأنه يستعين بكل نفسه ليستَحْضِر ما يريد أن يشرحه ، وقد بدا عليه إحتداد غامض ، وهو ينظر الأرض بعينيه المَكْبوبَتَيْن ، وكأنَّ مَنْ يغْنيهم يركعون أمامه طالبين العفْوَ منه . ولكي يوضّح لي ما كان خافياً عني حَدّق جيداً في عينيَّ ، وتَنَهَّد ، قبل أن يستعيد المقولة المعروفة التي سبق ذكرها قبل قليل :

ـــ عليَّ أن أُذكِّرك بأمر أساسي في الوجود ، وهو : عدم تدخلنا في شؤون الحياة ، حتى فيما لا يخصنا منها ، هوالذي علينا أن نلغيه ، بعد اليوم ، نهائياً من أنفسنا ، ومن سلوكنا . فحقيقة الحال تقتضي منا أن نتدخل بكل ما يمس حياتنا ، من قريب أو

بعيد ، مهماكان شأنه ، ومهما سَبَّبَ لنا ذلك من متاعب .

وجَرّني من زندي بقوة ، وهو يرهبني :

– ولا تنسَ أنكَ ، على العكس مما تعتقد : عندما تتَدَخَّل فيما يُعْنيكَ ، سَتسْمَع ما لا يرضيك . لماذا؟ لأن مَنْ يتحَكَّمون بنا يكذبون . ولا يرضيهم ، أو لايكفيهم ، إلا أن يتحكّموا بكل شيء . لا بالحياة الإنسانية ، فقط ، وإنما بمصائرنا ، أيضًا .

وبهدوء مفاجيء ، تابع :

– وبكلمة واحدة : هم يريدون أن يسيطروا على الفضاء العربي : كونه وكائناته . وهم جديرون بأن يختلقوا ما لا يحصى من الأفكار والحِكَم والأمثلة من أجل تحقيق هدفهم اللئيم هذا .

وسَكَتَ . سكت طويلاً ، هذه المرة ، وكأنه يستجمع ما تشَتَّت من أفكاره ، أو ما تَناثَر منها أثناء حديثه المحتَدِم ، قبل أن يتابع :

– وتعاليمهم ، أيّاً كان مصدرها ومعناها ، هي ، ببساطة ، دعوة للاستسلام . لاستسلام العقل ، قبل كل شيء . وتَرْك شأن الحياة العامة والخاصة لهم ، يُديرونها ، ويتصرّفون بها ، كما يَشاؤون .

ضربة جديدة جعلَتْني أتحسس رأسي . أتحسس قلبي الذي شعرت به ينخرط في صدري . وعلى الرغم مني اخترقَتْني العبارة الغبية :

– لم أكن أدري .

– لم تكن تدري!

عَلَّق بدهشة . وهو ينُطّ كالطابة التي اشتَدّ انتفاخها . يَنُطُّ ، ويحفر الأرض بقدمه كالثور الهائج . يتطلّع إلى الغيم ، ومن ثمّ إلي ، ومن جديد إلى الغيم . وأخيراً ، استدار قليلاً ليصير في مواجهتي ، تقريباً ، قبل أن يُفْلِتَ كلماتِه التي بدَأتْ تهطل فوق

دماغي كالحالول :

– لماذا هَجَـرْتَ أهلك وبلادكَ ، إذن؟ أمن أجل النقـود فـعلتَ ذلك؟ وهو ما سيخيِّب أملي فيك كثيراً . أم من أجل معرفة أعمق ، وسلوك أفـضل؟ أقـصـد من أجل فضـاء حـر ، يجـعلك ترى العـالَم باتِّساع عينيكَ .

وبعـد أن ملأ رئتيـه هواء منعـشاً ، اسـترد بعض نشـاطه الذي كاد أن يخبو ، أو هكذا بدا لي . وبقوّة لم أكن أتوقعها ، أكمل :

– أم أنك رحلتَ لتروي ظمأك الجنسي البائخ ، فقط؟ أم تراكَ ، أنت الآخر ، وصلت إلى هنا بالصدفة ، مثل كل الأغبياء الباحثين عَن لاشيء ، أوعن شيء لا يستطيعون حتى توصيفه؟

ورأيتـه يَخْـمُش بطنه ، ويفـرك جبـهتـه التي احـمَرَّتْ ، وكـأنه يسائلهما عَمّا تكلمنا به منذ شهور ، حين التقينا أول مرة . وفجأة ، قال :

– بلى! أنتَ قلتَ لي :« بالصدفة» . قلتَ لي ذلك في أول لقاء تَمَّ بيننا . وأضحكني الأمر ، آنذاك ، كثيراً . لكنني لم أشأْ أن أُعلِّق عليـه . وبعـد أن صـمَتَ قليـلاً ، أضـاف : وإنْ كنتَ لا زلتَ في هذه النقطة المؤسـفـة ، فليكنْ بعلمك أن الصـدفـة لا تحـدث ، أبداً ، صدفة .

وبعـد برهة لا أعرف كم طالتْ ، قال بنوع من الرِضى العمـيق عن الذات :

– والآن ، بعـد هذا الشـرح القـصـيـر ، يحق لي أن أسـألكَ : فهمت؟

– تسمي ذلك شرحاً؟ قلتُ متذمراً وكأنه يسألني أن أزحف على القاع .

- خُذْه كما شئت . من جديد ، أعيد عليك سؤالي ، بأخوية حقيقية : فهمتَ؟

لم أُجِبْ .

وقبل أن يسير مبتعداً عني ، وقف ، من جديد ، في مواجهتي ، وحدّق في عينيّ الغائمتين ، وهو يتردد بين الصمت والكلام ، ثم قال :

- لستُ منظِّرًا محترفاً ، ولا أنت تلميذ نجيب . لا تعتقد ، إذْ تسمعني أتكلم باستمرار ، أنني أفضل منك حالاً . لا! قد يكون العكس هو الصحيح . لكن ذلك لا علاقة له بصواب الأفكار وخطورتها . فنحن كثيراً ما نتعلّم من الحمقى ، أولئك الذين بلغوا الدرك الأقصى من الفطْنة .

استولَتْ فكرة التَعلّم من الحَمْقى على نفسي . وبدا عقلي إزاءها مشوَّشًا ومَرْعوبًا . للحمقى في قلبي آثار . ولهم في نفسي أماكن خفية ومقفولة . عشتُ معهم في طفولتي وصباي . هم أهلي وجيراني . وامتزجت الحماقة عندي بالحُبّ . الفَطِنُ كان غريمنا . ماذا أراد أن يقول؟ أسأله؟ ساءلتُ نفسي صامتاً ، وأنا أحسُّ لأول مرة بحاجة حقيقية للسؤال . وكدتُ . . .لولا أنه اقتَنَصَ الكلام ، بقوة .

- أنا صديقك . وباعتبار ما مُعلِّمكَ . أستطيع أن أفعل كل شيء لتخليصك من الجهل . لكنني عاجز عن أي فعل في مواجهة الغباء .

-٢٣-

يهـرب منه؟ ولكـن إلى أين؟ إن لـم يكـن إلى . . .التـاكـسـي العـتيـقة المنطلقة من سـاحـة «المَرْجَة» والذاهبـة إلى «المـزَّة» . فـيهـا جلسَتْ بالقـرب منه المرأة الصـغـيـرة ، ذات الوجنتين البـارزتين ، والشفتين المتهدّلتين قليلاً ، وعليهما غشاء رقيق من أحمر الشفاه . جلسَتْ صامتة ومتلهّفة ، لكأن بها أمراً . من تحت جفنيه اليابسين نظر إليها ، بتواطؤ ، وهو لا يعرف كيف يبادرها بالحديث . ولكن عَمَّ يريد أن يُحَدِّثها ، والصيف في أحر أيامه؟ والقائظة تحقن الأجساد بالإثارة والشـوق؟ من أين له بالكلام ، وهو الذي يكاد أن يكون أخرس ، تقريباً؟ بيأس أدار رأسه عنها ، وصار يعد الدور المسرعة بالاختفاء على يمينه .

كانت الحرب المتقطِّعة ، آنذاك ، لا تُنْبيء بالموت ، وإنما باليأس . والجو الساكن في دمشق العتيقة لا يوحي بالبهجة وإنما بالملل . شيء كثير من العتمة الروحية يخيّم على الناس . مع ذلك ، وجد نفسه مبتهجاً ، وكأنه ليس«أحداً» . اشمأزّتْ نفسه من هذا الاحساس الفَرِح المقيت . لكأنه ليس منهم . كاد أن يبصق «على التراب» ، كما هي العادة ، لكنه تماسك قبل أن يأتي قبيحاً . وكأن المرأة الصغيرة ، ذات الإطار الصدريّ المكشوف ، أحسَّتْ بذائقته الشيطانية ، كادت

ابتسامتها الخفيفة أن تصيب منه «مقتلاً» . لكنها ، هي الأخرى ، أدارت الأمر بمكْر كبير في قلبها ، وهي تتصنّع الالتفات إلى الجهة الأخرى ، لتعُدّ الدور المتسارعة الاختفاء على يسارها .

أمور كثيرة بدأَتْ تتخلّق في رأسه . تظهر وتغيب . لم يكن يعرف كيف يداري غربة روحه ، وتوقه إلى ملامسة المرأة التي كانت تَلْتَمُّ على نفسها بالقرب منه . لكأن السرعة والحَرّ الشديد أيقظا في نفسه رغبة كان يكبتها منذ أمَد بعيد . وصارَتْ هي ، الأخرى ، تَتَمَلْمَل بجانبه . تَتملْمَل وتَتَقفَّع وكأن النمل يَدْبي على جلدها . أو لكأنها تتهيّأ لاتّقاء اعتداء مدبّر مسبقاً عليها ، ومنه هو بالذات . لم تكن تدرك أن اعتداء الكائن على ذاته هو ، وحده ، الذي لا يمكن مقاومته ، أو الخلاص منه . ماذا تفعل ، إذن ، غير أن تستدير بعيداً عن عينيه الملتهمتين الحارقتين كالبارود المتَهَيِّء للاشتعال .

كانت «المَزّة» تقترب بسرعة البرق . لحظات الطريق مَرَّتْ مثل الثواني الطائرة في الريح . ستهبط المرأة ، بعد قليل ، قبل أن يقول لها شيئاً . وعندما هَدّأ التاكسي من سرعته ، وقد قارب الوصول إلى المكان الذي طلب الذهاب إليه ، ليسمح له بالهبوط ، اعتذر متلعثماً بأنه أخطأ . وشرح للسائق بأن عليه أن يعود معه إلى «المَرْجَة» ، في قلب دمشق العتيقة ، ليرى صديقاً نسي الموعد معه ، للأسف . قال له السائق ، ستدفع مرة أخرى . وضحك بهدوء وهو يهزّرأسه بالإيجاب . وتمتم في قلبه الذي التهب بالشغف لملامسة المرأة اللاصقة به ، أوتكاد : سأدفع . سأدفع لكَ ما تريد ، ولكن زِدْني طولاً من الوقت (ولم يكن معه إلا القليل) .

فَهِمَ السائق . وفَهِمت المرأة . واستدارت شاحبة الوجه نحوه ، وكأنها تريد أن تقبّله . ولكن أنّى لها أن تفعل ذلك ، والحرب في

عنفوانها ، والرغبة تلتهم روحها؟ وتذكّر «أبو عَرّوج» ، وحكاياته عن مكر النساء . وبهدوء مَدَّ يده إليها ، برغم نظرات السائق المندهشة في المرآة . وكأنها لم تكن تنتظر إلا هذه الحركة ، أخذَتْ يده التي اقتربت منها بشغف ، وبيدها الطرية خبَّأتْها . وبدأت الأصابع تتكلّم . وتفاهَما . بدأ الدم يصعد إليه ، وإليها . الحدث أكبر مما توقَّع . «والحدث» هو ، دائماً ، كما سيقول له «صديق الحديقة» ، من بعد : لقاء بين كائنَيْن لم يخطط أيّ منهما لِلقاء الآخر (أو هذا ما فَهِمَهُ هو) . وخارج هذه اللقاء العفوي والناجز الذي يشبه ثمرة ستسقط حتى وإنْ لم يمسها أحد ، خارج فضاء هذا اللقاء الممتع والمثير ، كان «صديقه» يضيف ، ليس للحياة من عَمَل سوى أنها تمر بالرغم منا .

بعد زمن طويل من ذلك اللقاء العاصف ، وفي مكان آخر لم يكن يحلم ، حتى ، بالوصول إليه ، سيدرك ، فعلاً ، أن جدوى الحياة ، كلها ، تكمن في مثل هذه اللقاءات الحاسمة بين الكائنات : الحب ، والثورة ، والجنس ، والعقل حتى . وهو ما سيجعلهُ يَتَخَيَّر الناس والأوقات بقَدْر ما يستطيع . وسيدفع به إلى أن يَتَجنَّب تبذير الزمن بمصاحبة الأغبياء والمبتذلين من البشر(كما كان يفعل من قبل) . أن يَتَجَنَّبَهم حتى ولو عرضوا عليه وجودهم «مجّاناً» .

ولكي ترد له الجميل وضعَتْ في كفه المرتجف رقم هاتفها ، وهي تفتح الباب متهيّئة للنزول ، ساحبة معها أبنتها الصغيرة الفاحمة العينين التي لم تتوقف عن التحديق فيه بعدائية ، حافِرَةً ، بنوع من الحَدْس الطفوليّ النابه ، في عقلها الطازج ، وجهه الذي ابتَلَّ بالعرق والجناس . لكأن الطفلة السوداء العينين كانت تعرف ، سَلَفاً ، كل ما سيحدث لأمها ، من بعد ، دون أن تُدرك ماهيته .

-٢٤-

هذا اليوم ، دخل الحديقة بعد أن لَمَّ أشتات نفسه ، وهو يستعيد بشغَف غامر تلك الحكاية الصغيرة التي عاشها في تكسي الشام . لم يكن يدرك ، يوم عاشها ، أن أثرها سيكون عميقاً وسيسعده إلى هذا الحد ، إلى حد تخْليصه من إرهاق مأساويّ ، وفي قلب مدينة الأنوار التي كانت ، آنذاك ، حلماً غامضاً في رأسه . لكأن تلك الحكاية البديعة أنعشت روحه ، وأعطَتْه من السعادة أكثر مما أعطَتْه باريس المهيبة التي لا يكفُّ عن الطَنين في فضائها منذ شهور ، مثل ذبابة الحقول الزرقاء ، أيام القَيْظ ، في الجزيرة .

دخلها صامتاً ، ووحيداً . العالم الجديد الذي يحيا فيه يُلائم العزلة التي كانت ، بحكم الظروف الجديدة ، مفروضة عليه . أراد أن يمشيها هذه المرة ، وحده . أن يراها بعينيه ، هو . أن يتحسس أُبّهَة أشجارها ، وروعة ألوان الخريف التي بدأت تكسوها . ولكنه بدلاً من أن يغمرها بنور عينيه الكئيبتين ، أرْخى رأسه إلى الأرض وكأن الوجود قائم تحت قدميه . صار مؤمناً بأن القَدَم هي التي تقود الكائن إلى مصيره . إلى مصيره اللامحتوم ، ولكن الذي يكاد أن يكون مؤكَّداً . هنا ، بدأ يخشى الإلتماعات الآسِرة التي تتفاعل

بعنف في نفسه ، مُخَلِّفة في قلبه اضطراباتها الخانقة التي لم يألَفْها ، من قبل . لكأن الوجود انْقَسَمَ قسمين : قسم الماضي ، وقسم الذي يمضي بسرعة كالبرق . برق مَزْن الربيع في الجزيرة الذي يَسُحُّ مِدْراراً .

لم يعد يريد أن يبقى هنا ، لكنه لا يستطيع أن يعود إلى هناك . لكأن المشاعر المتلاطمة في أعماقه بَحْرٌ هائجٌ لا يسمح له برؤية وقائع الحياة ، حياته المحدودة ، ولكن الشديدة العذاب . و . . .ومع ذلك ، كان قد بدأ يرتاح ، للتَوّ ، من كوابيس حياته . وأخذ الهدوء النسبيّ يتسلّق معارج جسده وروحه . لكأن البعد عنه ، عن القارعة ، ولو لأيام قليلة ، رحمة . لكن الرحمة والهدوء لا يكفيان لكي يشعر بأنه صار آخر . صار مَنْ كان ينتظر أن يصيره . ولم يكن يعي ، بعد ، أن ذلك الإنشغاف بأن نصير . . . ليس أكثر من حلم ملتبس ، وإنْ كان يدفعنا لكي نظل نتجاوز أنفسنا باستمرار . و . . .وفجأة ، نَبَغَ له من تحت القاع مثل جنّي الحكايات الأثيرة . ودون مقدمات ، وحتى قبل أن يسلم عليه ، قال بنوع من الإنتصار المعلَن ، وكأنه عَثَر عليه بعد سنوات من البحث والجهد ، وكانا قد تَتارَكا قبل أيام قليلة :

- أخيراً ، هاأنذا ألقاكَ .

وبعد أن وضع كامل وجهه في عينيه إِرْتَعشَ مثل طير مبلول ، وهو يتأسف :

- لكنني ألقاكَ وأنتَ في أقسى حالات الخيبة واليأس! علام؟

لم ينتظر منه تعليقًا ، أو إجابة من أي نوع ، بل اقترب منه حتى كاد أن يلامسه ، وهو يحكي بمودة ، بعد أن غَيَّر لهجته ، هذه المرة :

- لم أكن أتوقع أن أجدك هنا في مثل هذه الساعة من النهار . جئتُ باحثاً عن لحظات الغروب في هذه الحديقة المملوءة بذكريات التاريخ . فوجدتُ غُروبكَ .

وبعد أن استدار حول نفسه ليرى القريب منه والبعيد ، تابع ، متمعِّناً فيما يرى :

- ولكن ، لِمَ تراكَ تمشي ورأسك أهطَل؟ عـيناك انطفـأ النور فيهمـا . ولا يُرى منك إلا اضطرابك العميق . عجباً! وأنت الذي قلتَ إنك تركت ذلك العالم القديم من أجل لقاء هذا العالَم الذي أخترته أنت بنفسك ، كما تدّعي . ومنه ستستمد طاقة وجودكَ ، وحيوية نظرتك الجديدة إلى الكون ، كما زعمت لي .

وسكتَ ، فجأة . لكأن حَبْل الكلام إنقطع في رأسه . لكنه بعد قليل أكملَ ، متذكراً حياته الأولى بحنان (ولم يكن يوحي ، من قبل ، بأن له ، مثل بقية الخلق ، حياة ماضية ، وكان يحبها . لكأنه وُلِد كاملاً ، بوعيه النقدي الذي يتلبّسه حتى وهو . . .) . وعندما بدأ يتكلّم صار يتلَعْثَم . لكأنه نسي ، أو أراد أن ينسى قصداً ، هجومه اللامبرر عليه . وبات من الضروري أن يجد مسقطاً آخر لكلامه ، أو لكلماته التي لم تكن منسجمة مع الوقت والمكان . فقال بما يثير الشفقة ، وكأنه يعتذر عن هَفْوَة قاتلة ارتكبها دون إرادة منه (وهو ما بَلْبَلَني كثيراً) :

- في بلدتي العتيقة التي أصبحت الآن بعيدة ، كل شيء كان في متناول البصر . رؤيتك للشيء تعادل تَمَلُّكه . والقناعة التي هي كنز لا يفنى ، لأنها لا تُسْتَهْلَك ، كانت علاجاً ناجعاً ، أو مُخَدِّراً فعّالاً . في تلك البلدة الصغيرة التي تكاد أن تتلاشى من ذاكرتي ، وكأنها لم توجد قط على سطح الكوكب الأرضي ، كانت الحياة

نوعاً من التسلية ، ولكن اللامجدية ، مع الأسف . والآن يخطر لي أن أتساءل : أبهذه السهولة ينسى الكائن مرابع طفولته وصباه؟ وإذا كان ذلك حقاً ، لِمَ ترانا نتفانى في سبيل . . . ؟

وسَكتَ ، فجأة . وبعد فترّة قصيرة من الصمت والخمود ، أكمل ، وكأنه انتهى ، للتو ، من النَبْش في جُفور ذاكرته الميتة ، عن مآثِرَ أخرى لأرض لم تعد تعني له شيئاً . أو أنها صارت في خانة اللاموجود ، أو اللامبحوث عنه ! وإلا لِمَ تراها ماتتْ وهو لا زال حيّاً؟ قال :

- كان فيها الكثير من الشجر . وزروعها تملأ وجه الأرض . وأشواكها كذلك . لكن ذلك ، كله ، كان بلا تاريخ . بلا تاريخ يهمُّني ، على الأقل .

تنفس عميقاً ، من جديد ، وكأنه يعتذر عن خطإ اقترفه بلا قصد (والخطأ ، دائماً ، مقصود . كما يقول) . تنفَّس بكل أعضائه ، قبل أن يكمل حديثه :

- لا تفهَمْني خطأً ، أرجوك . كل الأحياء لها تاريخ ، كما تعرف . وكل تاريخ يستحق الوجود . لكننا لسنا في مجال الإنصاف ، الآن .

ولما بقيتُ صامتاً ، صمتَ هو الآخر برهة من الوقت ، قبل أن يستمر في شرح ما لا يهمني شرحه ، أو هذا ما ظننتُه ، قائلاً :

- لا أكذب ، إذن ، إنْ قلتُ إن كل ذرة في الكون لها تاريخها الخاص . لكن الأمور لا تنطلق من هذه النقطة المبدئية ، ولا تتوقف عندها . لماذا؟ سأل نفسه ، وأجاب : لأن الحياة الإنسانية مبنية على الكَذب والزيف . والمسَيْطرون عليها هم الأكثر اسرافاً في ذلك . لكنني ، أكّدَ ، أُفضّلُ كذباً مُحرِّضاً وديناميكياً على حقيقة باهتة

وساكنة . وبعد أن تطلّع بمكْر إليّ ، تابع شرحه :

- الصدق لا أهمية له إذا افترق عن حيوية الحركة ، ولم يدفع بالحياة إلى الأمام .

كنتُ مأخوذاً لا بكلماته ، وآرائه ، في تلك اللحظة ، بل بلقائه اللامتوقّع . لكأنه اغتصب بعض حميميَّتي ، وشرودي . كنت أريد أن أكون وحيداً بعض الوقت قبل أن أعود إلى «إقامتي الباريسية» ، لأنام . وحتى هذه الأمنية تبخرتْ . فهاهوذا يلاحقني إلى قرارة الصمت الذي ملأ نفسي ، إذْ قال :

- وأخيراً ، أنت لا تجهل ، كما أظن ، أن هذه المفهومات «اللغوية » ليست إلا أعراضاً أخلاقية لمرض انساني أعيا شفاؤه الفلاسفة . ومن جهتنا ، نحن ، لم يعد أمامنا إلا أن نعترف بأن الحياة لا تستقيم بالصدق والحقيقة ، وحدهما . وإذا أضفت إليهما الإخلاص غدت ، تماماً ، مستحيلة .

أغربت الشمس على اللوكسمبورغ . وأُسْدِلَ على الفضاء الجميل شحوب أول الليل الباريسيّ الآسر . اقتربت ساعة العودة إلى المَراح . سأكون مضطراً لتوديعه (مؤقتاً ، على الأقل) . فأنا لازلتُ أشعر بانْهِدام داخليّ عميقٍ ، مثل جُرْف يتكَسَّر بتأثير سيل عارم . لم يعد يهمنّي السبب الذي دفعني إلى الرحيل . فهو لم يكن أكثر من ذريعة . والذرائع ، كلها ، متساوية . وهي ، في الحقيقة ، ليست سوى مبررات للسفر والابتعاد عن مكان يسوؤنا البقاء فيه . متى أدركتُ ذلك بمثل هذه الصراحة؟

-٢٥-

بدأتُ أتعب في رأسي ، وأنا لا زلتُ في بداية الطريق؟! لا جدوى ، إذن ، من اللجوء ، أو الإختباء ، خلف اللمعان الزائف لمعدننا الصديء والرخيص . ومهما طَلَيْناه برذاذ بَرّاق ، سينجلي الأمر ، ذات يوم ، ونصير نبدو على قماءتنا المثيرة للغثيان . صرتُ مؤمناً فعلاً بأن الإهتراء يمكن أن يصيب كل شيء ، وكل أحد(كما سيقول) : الوجوه ، والأجساد ، والمذاهب ، والمعتقدات ، والأفكار ، والأنظمة السياسية ، والأخلاقية ، وحتى المعرفية منها . ووجدتُني أضجُّ في رأسي ، صارخاً : اللعنة! مَنْ يحاصرني بكل هذا الأراجيف والسخافات ؟

ولأفُكّ الحصار الوهميّ عني ، تفرُّ نفسي (منه ، ومني) ، مرة أخرى ، إلى «أبو عروج» . وأجده مُقْعِياً فو ق القاع . مصالباً يديه وركبتيه . بائساً أو يكاد . وأنا أقترب منه في قلبي ، أفكر : ألا نستطيع أن نحيا مثل بقية الناس ، بلا مماحكات وانهماك فيما يسميه «ضرورة المعرفة» . وعن أية معرفة يتحدث؟ أنا لا أحب إلاّ . . .ويجذبني أبو عروج : تعال يا عَجيّ! تعال . ويسألني بمودة قديمة تملأ نفسي بالإنشراح : سمعت «حكاية بائع الحليب»؟ لا! تعال أسولف لك .

ويبدأ الصوت الرخيم الهادىء الألوف بالسَرَيان في أعماقي التي غدتْ سُوداً كالرماد : كان بائع الحليب جارنا ، أو جاراً لجارنا . نراه من بعيد ونتحاشاه . له إمرأة سليطة اللسان . وبنت جميلة مثل القمر . عنده عَنْز سوداء رشيقة القوام ، بضرْعين هائلين . عنز مُدرَّة وأليفة . يظل يحكي وحده ، وكأنه مُرافَق من جنيّ . يعيش على أطراف النَزْل ، حتى لا يُؤْذي ، ولا يُؤذَى .

ويتابع ، بهدوء مفعم بالحب والمودة : كان «بائع الحليب» يثير إهتمامنا ، صغاراً ، حتى وهو يقضي حاجته في البرية الشاسعة . أكان ذلك بتأثير ابنته المليحة؟ أم بسبب غرابة أطواره؟

أحياناً ، نلحق به من بعيد . نسترق السمع إلى حكاياته الغريبة . نعرف الكثير من أسماء الجن التي يتحدث إليها بحس عالٍ . لم يكن يتحاشى الصغار ، لأنه يحسب ، ولا بد ، أنهم لا يفقهون في أمور الحياة شيئاً . ولا يهمهم منها إلاّ اللعب والخُباثات . ولا يُخْشى منهم أذى . وكان مخطئاً في هذه النقطة ، بالذات .

ويصمتُ قليلاً ، وهو يتملّى التراب اليابس الذي لم يحظَ بالمطر منذ أعوام ، قبل أن يتابع : إسمَعْ! يُؤكِّد عليَّ ، الآن ، أعرف أن الأمر كان أكثر تعقيداً من ذلك بكثير . صرت أعرف ، يا عَجيّ ، ما يشغل بال الناس ، وما يجعلهم يتحمّسون لأحد ، أو يتحسسون من مجرد اقترابه منهم . الناس خُبثاء ، وأنت لا تعرف ذلك ، الآن . وستعرفه فيما بعد .

ويستدير ليرى النسوة المنبثقات من الغمام البعيد ، وكأنهنّ أفراس محملة بالكوابح ، وهو يقول : ما هَمَّ! «بائع الحليب» ، اعتصر ثدي العنز ، ذات يوم . وحطّ الحليب ، كله ، في قُلَّة كبيرة من النحاس المسَوَّر بالجلد . وهيّأ نفسه لِيَسْريَ ليلاً ، يبيع حليبه ويعود .

وقبل أن يفعل ذلك تحدث مع امرأته التي لا تتَوَقَّفْ عن لَوْمه ، وتقريعه ، وكأنها أمه التي أنجبَتْه . وتحمَّل هو غلاظتها بصبر كبير ، وهو يُخَبِّيء في نفسه آلامه ورزاياه . لقد كان «بائع الحليب» حسَّاساً ، وكَتوماً . وهو ما جعله صَموتاً مثل دَنٍّ من الفُخّار . يكتم انفعاله ، حتى وهو على حق ، فكيف به إذا كان يشك في الأمر . إنه أشبه ما يكون بعَجين لم يَخْتَمر بعد ، ولا نفع من خَبْزه ، قبل الأوان .

وبعد أن تَلاحسَ ، وهو يتأمّل النسوة وقد اقتربن منا ، مثل قطّ انتهى ، للتو ، من أكلة خفيفة أثارت شهيته لاصطياد فأر سمين ، يعود إلى حكايته التي شغَفَتْني صغيراً : وقبل أن يَسْري ، غافل أبنته القَمَرية ليتملّى ملامحها بهدوء . أسعده النظر إليها كثيراً . كانت «تفاحة نفسه» كما يقول . أحبَّ أن يودعها : بُنَيَّتي ، لا تقلقي سأعود قريباً . لكنه لم يشأ إزعاجها في ذلك الفجر البارد . فجر حَماد«الجزيرة» الصارم . فجر سُهوب «الذُرو» الصاقع كالثلج . دَثَّرها ، على العكس ، بدثار مبرقع ومَخْيوط . دثار من الوبَر والصوف والقشور . قشور جلود الحيوانات التي يحصل عليها عندما يتَيَسَّر أمره ويصيد واحداً منها .

وفجأة ، يصمت . يتنَفَّس عميقاً ، وهو يُمَسِّد على وجهه ، وكأن يُسَبِّح الرب في أعماقه ، ويتابع : أحس بامرأته تَتَعَقَّبه ، خلسة ، مثل سارق خيل مُدَرَّب ، ولم يُرِد فَضْح سرّه . فمشى بهدوء . فوق رأسه تستقر الطاسة العملاقة المملوءة بالحليب الأكثر بياضاً من البياض . رائحته الواخزة تبهج نفسه . وتُثبت لمن يريد أنه طازج ونظيف . سيبيعه بثمن مناسب ، ولابد . وسيرى ماذا سيفعل بثمنه ، وكيف يتصرّف ، مستقبلاً . وطال المسير . أخيراً ،

من الشرق ، ظهر الغمام الأحمر الذي يعرفه جيداً ، غَمام الفجر الذي يُخفي القرص ، قرص الشمس التي كانت تنام مثله ، قبل قليل . الشمس تنام؟ قال في نفسه . وكيف يثبت عكس ذلك؟ ومن جديد ، سَبَّح الرب ، وتابع المشي بلا اكتراث .

وطال المسير . وبدأ النور يعلو . نور الأزل الذي يشبه وجه أبنته . نور غَلاّب يتلاعب بالأمزجة والعواطف . يمحي صُعوبات الليل وكوابيسه . به يَهْتدي التائهون ، ويَطْمَئِنُّ الخائفون . وصار يتمتم : والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفَّس . وسَبَّح الرب وهو يتأمّل بهاء النهار بمتعة . ففي الحَماد لا مثيل لجَمال الصبح ، وأبّهته . سبحان الله . وبدأتْ رأسه تغلي بالأفكار .

وخطرتْ له الفكرة : أبيع الحليب . وبثمنه أشتري عَلَفاً . وتسمن العنز . وتلد سَخْلة . وتكبر السخلة . وتصبح عنزاً يلقِّحُها التَيْس ، فتلد أخرى . ويكثر الحليب . وبثمنه أشترى غيرهما . وأصير أبيع الصوف والحليب والسمن . وتكبر البُنَيَّة . وتغدو فتاة جميلة ساحرة . ويكثر قطيعي . وأصبح معتبراً بين الناس . وتذهب البنت إلى عَيْن الماء تستسقي . ويراها «الأمير الصغير» الذي لم يَرَ جمالاً مثل جمالها من قبل . ويهيم بها . ويتردد الخاطبون إليَّ ، وعلى رأسهم شيخ القبيلة . يخطب ابنتي لإبنه الذي سحَرَتْه بحُسْنها . لكنني لا أريد تزويجها الآن ، أقول . ويصرّون . وأصرّ : لا ، ليس الآن . ولكن متى؟ يسألونني بتَملُّق . ولكي أنتقم من إهمالهم لنا ، أقول : أبداً . هازاً رأسي ، هكذا ، بقوة .

وتَناثَر الحليب . عمامته السوداء ابْيَضَّتْ . وثيابه ابْتَلَّتْ . وقعد يبكي . يبكي لأن عرس ابنته الجميلة لن يتحقق . ولكن ، بلى! قد يتحقق . قال له عابر الطريق الذي مَرَّ في تلك اللحظة من هناك .

-٢٦-

لماذا لا أعيد إتصالي؟ بدأتُ أتساءل بعد أن أنقطَعْتُ ، من جديد ، عن المجيء إلى الحديقة منذ أسابيع عديدة . كانت قد بدأت تَنْتابني حالات غريبة تدفعني إلى الإنعزال ، والبقاء وحيداً . ولم أكن أعرف كيف أتصرَّف . أفكار كبرى ، ومقولات ، كانت تنْهَمِرُ من بين شدقيه فوق رأسي ، دون أن يكون مهتماً بشأني . دون أن يتساءل إنْ كنتُ ، أنا الكائن الصغير ، مهيَّئاً لتلقّيها . وبالخصوص ، مقولته الأخيرة التي أدهشْتْني : حتى الكلمات تهتريء ! حينما قذف بها في وجهي ، أضاف ، متطلِّعاً في عينيَّ ، وكأنه يحذرني من فعل الزمن ، قائلاً : لا تنْسَ ، أن الإهتراء يصيب كل شيء ، وكل أحد . وهو قانون الوجود الوحيد الذي لا يميِّز بين الأشياء والكائنات ، قبل أن يضيف : حتى الكلمات تهتريء ! وكنتُ أحسب ، لحماقتي ، أنها أزلية .

لم يكن إنقطاعي المفاجيء والذي طال كثيراً ، عفوياً ، إذن ، ولا خالياً من المعنى . لكأنني أُصِبْتُ بالتُخْمة من عباب أفكاره التي كانت تَنْصَبُّ فوق رأسي ، بلا انقطاع ، وأردت أن أقوم بعمل ما . لكن للتخمة ميزة أساسية ، كما سأدرك فيما بعد ، وهي أنها تفتح شهيَّتنا للإلْتِهام . لإلْتِهام أكبر قَدْر ممكن مما أُتْخِمْنا به . لكأنها

تُوَسِّع حَوْصَلَتنا الفكرية . وفي حالتي ، كنتُ أفضِّل الموت بشماً (من التخمة) ، على الموت جوعًا .

هكذا ، مثل حبيب لَوَّعَه هَجْرُ حبيبه ، وجدتني أعود ، من جديد ، إلى الحديقة ، وفي الساعة التي يمكن لي أن أجده خانساً فيها . فهو إنْ لم يجد من يتكلم معه ، يَلْبُد تحت ظلال الأشجار متأمِّلاً الكون والكائنات بصَمْت . عدتُ! مع أن الحصيلة الأساسية لذلك التدرُّب النفسي القاسي على الإنْصات اليوميّ إليه ، وأحياناً أكثر من مرة في اليوم ، لا تسرُّ . أو لم تكن دائماً تسرُّ المستمع الذي هو أنا .

ما همَّ! أحب أن أعود . هأنذا أصل . أجلس ، مصالباً رِجْليّ ، وعلى عينيّ تسيطر إغْماضة لا مجال للخلاص منها . كنتَ لا أرى الماضي إلاّ إذا أغمضتُ عينيّ . لكأن الحاضر الذي يمر أمامي يُعَرْقِل رجوعي إلى مَنْ كنتُ ، وإلى حيث كنت ، ويمنعني ، هكذا ، من استعادة غبار حياتي . ما كدتُ أضع نفسي على الكرسي الأخضر الصديء ، بالقرب من مقهى الحديقة ، حيث كنا نتَجالَس ، عادة ، حتى أحسستُ بهفيف روحه يحوم حولي . وقبل أن أفتح عينيّ من إغماضتهما القصيرة ، استقرَّ في جانبي ، وهو يتساءل بعجب مصطنع :

- أنت هنا؟

قال ، وهو يرمي بكَوْم جسده الهزيل على الأرض . كان أحياناً يحب أن يجلس على القاع متمتِّعاً بملمس الحصى والتراب . وأصير ، أنا الآخر ، أُقلِّده في كثير من الأحيان . لكنني ، هذه المرة ، بقيت فوق الكرسي القاسي ، وأنا أجيب بلا حماس :

- كما ترى .

استمر في جلسته الأرضية ، صامتاً ، بعد ذلك . وبقيتُ أنا

على جلستي التي بدت لي في غير محلّها . هو واطيء بحكم قَعْدَته على القاع ، وأنا أعلى منه مجلساً . لكنني قاومتُ نفير الذات الداعي إلى النزول عن مكاني لأصير مساوياً له . إلا أنني ، من العلو النسبيّ لمجلسي ، صرتُ أصيخُ السمع وكأنني أنتظر ، أو أريد ، أن أسمع الرعيد المتَكَرْكِم في آخر الكون . وأطلقتُ لعيوني حرية التبَصُّر في الفضاء المحدود الذي أغرق فيه ، منتظراً ، مثل ظاميء ينتظر القَطْر ، سُيول كلماته التي كنتُ أراها تَدُبُّ في قلبه قبل أن تصل إلى لسانه .

من طرف خفيّ شَزَرْتُ إليه ، لأتأكَّد مما خطر لي (وأدار رأسه عني ، قبل أن يعيده إليَّ) . نظرة عينيه الغائمة التي بدت تروز الكون ، وتنبش خفايا العالم الذي يمر حولنا بسرعة ، أخافَتْني . لكأنه يقرأ العلامات المسطورة في الفضاء . ولا يريد أن يحكي . وكأنني مدفوع بهاجس خفيّ للدفاع عن نفسي أمامه ، أو لتحسين الصورة التي رسمها لي (وهو لن يغيّرها مهما قلت ، كما سأعرف ، من بعد) تهيَّأْتُ لمبادرته بالحديث . ولأنه بدا لي مشغولاً بأشياء أخرى كثيرة ، طمَسْتُ هذا الشعور البغيض فوراً ، وتصنَّعْتُ اللامبالاة . وفي أعماقي ، هيَّأْت أجوبتي التبريرية استعداداً لأي سؤال قد يبدر منه .

في الحقيقة ، لم أكن مطالباً بأي تبرير من أي نوع كان . وأنا ، في النهاية ، حر وراشد . مع ذلك ، أحسستني أريد أن أحكي له ما مَرَّ بي ، وما يملأ نفسي في تلك اللحظة . لكنني ، قبل أن أقوم باعترافي الكهنوتيّ ، ابتلَعْتُ صوتي ، بحَشْرَجة يابسة ، وكأنه سُمّ . وبدلاً من أن أقول له ما فكرتُ فيه ، قلتُ ، صامتاً ، لنفسي : لو كانت الأمور تجري ، أو جرَتْ ، وفق منحى آخر ، لكنتُ ، ربما ،

سعيداً . وعلى الفور أدركت مدى الغباء الكامن في هذه المقولة . لكأن التعاسة لطخة عار . وهي إنْ كانت كذلك ، فهو عار يخصُّ مَنْ جعلنا تعساء ، كما سأدرك فيما بعد . وقد بدا لي أن الكلام ، مجرد الكلام ، عن أمر كهذا ، مغامرة غير محسوبة العواقب ، في حضوره . فتابعتُ صمتي .

صحيح أنني ، منذ أن وصلتُ ، إلى هنا ، فَكَّكْتُ الكثير من قيودي . وحررتُ ذاتي من الكثير من المَثاقِيل والمُعيقات ، أو هذا ما أعتقده . لكن ما حُشِيَ به فكري وقلبي (ويجب ألاّ أنسى قلبي) يفوق الحَصْر . ويقتضي عمراً طويلاً لنبشه ، وإدراكه . هذا إذا لم تكن المسألة ، كلها ، نظرية بحتة : مسألة استعادة الفكر (والقلب) من الإحْماق . الآن ، صِرْتُ أشك بكل شيء (هل حدث هذا بتأثيره ، فقط؟ أم بتأثيرها ، هي ، أيضاً؟) . وهي لا تعرفونها إلى حد الآن ، وسيأتي ذكرها قريباً ، إذا أقتضى الأمر ذلك . أقول ، بدأتُ أشك لا بالقديم الذي تَلَقَّنْتُه ، فحسب ، بل حتى بما لا أعرف عنه شيئاً ، بعد . وهو ما كان ، ربما ، وراء اضطراب علاقتي بالكلام . فبعد أن كنتُ ألجأ إلى الصمت في بداية حياتي الجديدة هنا ، بدأتُ أميل إلى السهولة في الحديث . حتى أن أحد الأصدقاء الجُدُد ، أصدقاء شارع فوجيرارد ، صار يلومني بخُبْث ، قائلاً لي أكثر من مرة : «أنت تتكلّم بلا سنَد»! أو إذا شئنا الدقة ، أوضح : «دون مرجع علْميّ» . وكنتُ ، أنا ، عندما أسمعه يقول هذا ، أصير أفَرْفِحُ حتى لأكاد أسقط على قفاي من الضحك ، وأنا أردد مدهوشاً : «مَرْجع عِلْميّ»؟ ومن أين لي به ، وأنا بالكاد أعرف إسمي؟ وأضيف لأغيظه : وأنت تعرف بأي حال نترك الجامعات العربية ، وكيف يعلموننا فيها الجهل لا العلم . لكن لندع ذلك ،

الآن ، جانباً ، ولنتابع كلامنا اللامَسْنود .

أنا الآخر ، تحت ضغط الظروف الجديدة ، إذن ، بدأْتُ أحاول النظر حولي بتدقيق ، علّني أرى ما أبحث عنه . أو ألْتَقي بما يجعلني أقف على قدميّ إزاء الآخرين ، وعلى رأسهم «صديق الحديقة» المتَطَلِّب ، المُتَحَجِّج ، المُتَبَحِّر حتى في«المبتذل» من الأمور . فكَّرْتُ بذلك ، وأردتُ أن اعلِنَه . وليكنْ ما يكون (قلت في قلبي) . بدأ النمل يدُبُّ تحت جلدي . نَمْل المماحكات الدمشقية المبنية على الجهل ، والمنطلقة من التخاريف ، حينما كنا لا نخاف من الغلط ، ولا هيبة للكلام في نفوسنا . أما الخطأ (أو مفهومه المعرفيّ ، بالأحرى) فلم نكن نُدْركه ، آنذاك . لأنه فعل واعٍ ، ومنطَلِق من تصوّر شخصيّ للذات ولِلعالَم . وقد يكون أحياناً أهَمّ من الصواب بكثير . كما سيقول لي«صديق الحديقة» ، بعد سنين من أمسيات اللَّغْوِ في دمشق ، تلك التي ذهبتْ هَدْراً .

وهو(الخطأ) بهذا المعنى ، يضيف : مُبَرَّر ومقبول ، وحتى مستَحْسَن ، لأنه الخطوة الأولى ، والأهم ، نحو وعي الوجود . ولقد كان ذلك بعيداً عنا ، عني على الأقل . أُفكِّر صامتاً ، ومأخوذاً بذاتي ، وكأن الحديقة لا تحوي غيري . ولا بد ، أنه رآني أغيب عنه ، مستغرقاً في ثنايا نفسي ، فاتحاً عينيّ على اتِّساعهما ، ومُتَلَمِّظاً بأفانين الذكريات ، دون أن أرى شيئاً محدداً بالذات ، إذْ قال بنوع من التوتر والقلق ، وكأنه يقرأ أفكاري :

- أراكَ تحاول أن ترى ما حولكَ ، وأنتَ لا ترى شيئاً ، كما أرى . وبعد أن سكت قليلاً وهو يحاول أن يقرأ ما أفكِّر فيه على وجهي المُتَصامت ، تابع :

- لا تَعْجَبْ! الرؤية ليستْ مُلْكاً للعين ، وإنما هي من معطيات

العقل الذي يُرَكِّب عناصرها ، ويُحَلِّلها . وهو ، وحده ، قادر على شرحها بكلمات . شَرْح عناصر هذه «الرؤية» المحدودة التي تصير بفعله بحجم الكون .

عمّا يتكلَّمُ ؟ تساءلتُ ، وأنا أتردد فيما أريد أن أقول . وبعد أن أشاح بوجهه عني علامة على استيائه من إهمالي المتعَمَّد له ، وهو لصقي (أو هذا ما فكّرتُ به) ، أكمل مقولته الفكرية حول جدلية الرؤية ، فأضاف :

– عقل الكائن هو الذي يجعله يفهم ما يرى ، وليس العين البليدة التي هي ليست أكثر من عضو بائس في منظومة الكون . والعقل هو الذي يُضفي على الرؤية خصائصها . يعطيها بُعْداً شكليّاً تافهاً ، أو يجعل منها أسطورة لا تُنسى .

ولما أحس باضطرابي الخفيّ ، وكأنه قَلْقَلَ ارتكازي القديم ، أضاف بهدوء :

– هذا هو دَوْر العقل النابِه الذي لا نكاد نستخدمه ، أو لم نتمرّن على استخدامه بشكل مناسب ، في العالَم العربي .

ولئلاّ أذهب بعيداً في متاهتي الفكرية التي أحدثَتْها كلماته في نفسي ، بدأ يتودد إليَّ وهو يحكي ، كما كان يفعل في بدايات لقاءاتنا الأولى التي أخذتْ تتكرر ، حتى كادت أن تصبح طقْساً يومياً . وصرنا نحس أننا نسكن الحديقة أكثر مما نسكن بيوتنا . وفجأة ، أضاء وجهه بابتسامة بدَتْ لي غريبة ، ومثيرة للخوف ، وهو يتابع الشرح :

– الرؤية إذن هي أولى عوامل التحرر . أو هي أهمّ أدواته إذا شئتَ . أو يمكن أن تكون كذلك ، إذا تهيَّأت لها الظروف . أقصد إذا قام الكائن بما يجب لكي لا تُعْمى عيونه من التَحْديق المستمر في

نفس الفضاء ، وفي الوجوه ، ذاتها . لأن عقله لن يتحرَّض ، من بعد . فالعقل هو الآخر يمكن أن يتعوَّد على البلادة .

وكأنه أراد أن يجهز على مقاومتي ، أو على آخر ما تبقّى لي منها ، وقد أدرك أنني شديد التشبّث بأحوالي الأولى . وهو نفس السبب الذي جعله يحذرني ، ذات يوم ، قائلا باستفزاز : تاريخ الكائن ظله ! والمشكلة هي ، أضاف : كيف ، وهل ، يمكن له أن يُغافِله قليلاً ، ويتحرر منه ؟ واليوم ، استعاد ، من جديد ، تلك المقولة التي بدت لي مريعة لأنها أوْهَمَتْني بأننا سنظل محكومين بظلالنا إلى الأبد ، حتى ولو لم نكن نراها . استعادها ، ولكن من منظور آخر . إذْ قال ، هذه المرة ، بنَفْحة أمل في الخلاص :

- السفر ، أو الرحيل ، أو التَرْك ، أو الهَجْر ، إذا أحببتَ ، يحرر الكائن من وصاية عالمه القديم عليه . أو هذا هو المُؤَمَّلُ منه . لأنه يصير يرى أكواناً أخرى ، وبشراً آخرين .

وبعد أن استعاد صوته الذي تضاءل لسبب لم أدركه ، تابع بهدوء :

- وفي هذه الحال ، تكتسب الرؤية (التي تكلمنا عنها) أهميتها العظمى . لأن غبطة الرحيل تَنْبَجِس من نصاعة الرؤية ونفاذها ، ومن لا محدودية الإحاسيس التي تُطلِقها ، إضافة إلى كل ما تعنيه ، بعد ذلك .

ولكي يكون الكلام دقيقاً ، أضاف :

- يمكن للسفَر ، إذن ، أن يحرر الكائن لا من رُكام عالمه القديم ، فحسب ، بل حتى من سيطرة عقله القديم عليه . العقل الذي رحل به ، والذي لم يعد يريد ، أو صار لا يريد ، بعد أن رأى وتبصَّر ، أن يعودإلى حيث كان ، كما كان .

ونظر في عينيّ من قُرْب مليّاً قبل أن يضيف :
- وهذا ما يجب أن يفعله معكَ .

لأول مرة ، أحسستُني مدفوعاً بقوة إلى الكلام . إلى كلام غير متحقق منه . إذْ قلتُ بنوع من الحدّة اللامبررة :
- لكل كائن طبيعته .

ابتسم دون صوت ، وهو يُمَأْمِيء كالهر الذي رأى فأْراً في متناول مِخْلَبَيْه ، قبل أن يقول بنوع من الامتعاض :
- «طبيعة الشيء»! نعم . ولكن ليس للكائن طبيعة .

وبعد أن هزَّ رأسه المدورة ، نَفْياً ، وكأنه يحاول أن يُفَرِّغ رأسي من الأفكار ، أيّاً كانت ، أضاف :

- وخطورة الوضع ، في مثل هذه الحال ، وفي العالم العربي بالخصوص ، تكمن في الاحتمالات المتعددة المعاني والمستويات التي تُحيل إليها هذه الصِيَغ اللفظية الجَوْفاء مثل التي قلتَها ،الآن ، ولكن الخطيرة أيضا ، وبالتحديد لكونها جوفاء . لماذا؟ لأنها تُعَمِّم البلادة والخضوع .

وبعد أن تَمَزَّخَ قليلاً ، أكملَ :

- ومهما يكن الأمر ، صيغة لفظية مثل هذه ، مثلاً ، تريد أن تجعلنا نعتقد بأن طبيعة الشيء الثابتة والجامدة يمكن أن تُماثِل طبيعتنا . أو على الأقل ، توحي لنا بأن طبيعتنا ، هي الأخرى ، تميل (أو يمكن لها أن . . .) ، إلى الثبات والجمود . أقصد إلى الركود والخنوع . ولكن ، لا! أبداً .

ورأيته يفرك جبهته بعنف ، وهو يؤكِّد :

- نحن نكتسب طبيعتنا الإنسانية بالتمَرُّد ، لا بالخضوع . والشيء لا يتمرّد .

بعد أن قال كل ذلك ، صار يتطَلَّع في الفضاء بعينين لاهبتين ، وهو يتهيّأ للخروج ، ناظراً حوله بريبة . لكأنه يخشى أن يتعَقَّبه أحد . كيانه الطريّ صار يستَعِدُّ ، ويتعبّأ بالحركة التي بدأت تدبّ في أوصاله . لم يخطر لي ، انذاك ، أنه يمارس طبيعته التي كنتُ أجهل كل شيء فيها . لأنني ، ببساطة ، لم أكن أدرك خفايا الطبيعة الانسانية ، بعد . أحسستُ ، يومذاك ، أنني أكاد أختنق في فضاء اللوكسمبورغ الشاسع والجميل ، وكأنما لم يعد في الحديقة من الأوكسيجين ما يكفيني . أما هو ، فقد صار ، على العكس ، يتنَفَّس بعمق (لأول مرة أحس بأنه يستطيع أن يفعل ذلك) وكأنه تحرر ، أخيراً ، من كل الغازات السامة التي تلَوِّث دمه . ووجدتني أغني في قلبي : «ليس للحب مكان في قلوب الأنبياء» . وخطر لي أن استبدل المقطع بآخر ، أكثر ملاءمة لحالي : ليس للعقل محلّ في حياة الأغبياء . لكن المرأة الجميلة التي مرَّتْ ماشية بثقة واعتزاز ، هازّة أردافها الرائعة بدلال لا مثيل له ، وكأن بين فخذيها شيئاً تداعبه بهَزيزها ، قطعت لساني الداخلي الهاذِر ، وملأت نفسي بالصمت . لكأن مرورها العاتي كان اعتداء عليَّ ، مُدَبَّراً من قوة خفية تستلِذّ بجَلْدي كل يوم ، وبأكثر من آلة ، وأداة .

وبعد فترة من الصمت ، قال ، بعد أن وضع نفسه في عينيَّ ، وكأنه يحذِّرني من الوقوع ، مرة أخرى ، في«أغلاط» قاتلة ، وقد استحضر مسألة طبيعة الشيء التي ارتكبتُ حماقة قولها :

– وعلى قَدْر ما أعلم ، فإننا في العالم العربي ، اليوم ، قد نموت دون أن تكون لنا طبيعة واضحة المعالم ، أو كيان مستقل . أقصد : كيان فرديّ مُتَحَدٍّ ، لا يقبل بالتنازلات المطلوبة منا ، ولا يهتمّ بأحكام الآخرين المنتفخة بالعيوب .

وفجأة ، مشى .

وبقيتُ ساكناً في مكاني مثل لوح من الخشب المَمْطور . كان مساء الحديقة الجميل يوحي بالبهجة والإنشراح . وشيئاً فشيئاً أخذ مزاجي يتبدّل ، وكأنما رُشَّ بماء بارد . وبدأت الكلمات المريبة تختفي تدريجيّاً من فضاء دماغي . لكأن للكلمات أجنحة تطير بها منذ أن تُقال ، وكنتُ أحسب أنها ثقيلة كالرصاص . ولكن ، لا! هاهي ذي تتناثر حولي مثل ذرّات التِبْن في الجزيرة ، عندما تَنْسُفُها الريح . حتى أنني صرتُ استحضرُ ، بغبطة ، أُمثولات أبي التي ظَلَّ يكررها أمامي ، وبخاصة في الأُمسيات ، أُمسيات الحَماد الغارقة في الصمت والرهبة ، وهو يقول ، متَحَسِّراً : ليلة بليلة ، وليلة بألف ليلة .

وكنتُ أدور حول كلامه مسحوراً .

-٢٧-

رآها قادمة . وبدأ يَتَحَرَّقُ : من أين جاءتني هذه ، أيضاً؟ عندما تحضر يتغيّر كل شيء . ولكن ، مَنْ هي ؟ هي التي حدثتكم عنها قبل قليل . عندما تحضر ، يصير كل شيء أكثر وضوحاً وكأنه غُسِل بالماء والصابون . الرغوة التي تطفو فوق وجه العالم تذوب . ويمكن القول إنه تعلَّم منها الشيء الكثير . ولو قيل له ذلك في حينه ، وبمثل هذا الدقة ، فسيبدو له ، (ولها) ، غريباً ، ومضحكاً حتى . واليوم ، لم يعد ذلك الشيء الكثير إلاّ ذكرى ، إلا طَعْماً من طُعوم الحياة التي آلَتْ إلى الغياب . لكن ما نتذكره لا يغيب ، تعيد هي عليه قَوْلَة أبيه التي كان يرددها حينما يكونان معاً .

وقَعَتْ في عقله ، فكاد أن يستسلم لها . تثير العجب في نفسه ، والإطمئنان . عندما تغادره لا تتشبّث بشيء ، ولا بإحساس . لكأنها عرفت ما يمكن أن يثير القلق والتعاسة لديه ، فتجنَّبَتّه . وقبل كل شيء التعلّق به . ولقد بدت لها تلك الحالة غريبة ، وبخاصة ، عند كائنٍ مثله لا يكاد أحد يقترب منه . وإذا مااقترب لا يبقى معه طويلاً . وفهمَتْ هي ذلك على أنه تعويض متأخِّر عن خيبات كثيرة ، لم يعد الخلاص منها ممكناً إلا بإيذاء الآخرين . ومنذ أن أحاطتْ بإحساسه المَرَضيّ هذا ، عِلْماً ، تجاهَلَتْه .

عندما تفارقه ، تدير ظهرها وتمشي ، وكأنها لم تكن لاصقة به ، منذ ثوان . التولُّه العميق الذي تشعر به ، ويملأ قلبها بسعادة أكيدة ، تستبدله بسلوك حيادي رصين . لكأنها تحدس المعنى الأساسي للاشياء ، وتعرف ، شبه متأكدة ، أين تضع نفسها من قلبه ، وفي أي نقطة في فضائه تغرز رايتها التي لاتُقْتَلع ، من بعد . وهي لا تَشغل نفسها ، بما يجري بينه وبين صديقه غريب الأطوار ، أو أنه لا يهمها منه شيء . فذلك العَويل (كما تسميه) ، أو ذلك الحديث الذي يتبادلانه ، وما ينجم عنه من عواطف وعواصف ، لم يكن يحرّك الهواجس في أعماقها ، وإنما الرثاء . أما نقطة القوة الحقيقية في وجودها ، كما بدا له الأمر ، وأخافه كثيراً دون أن يدرك السبب (إلا إذا كان قد أحس بأن مصيره ارتبط بالرغم منه بكائن آخر لا انفكاك ، بعد اليوم ، عنه) أما نقطة القوة عندها ، فهي التَرَيُّث ، أو الخَنْق المتَدَرِّج للقَلَق والخوف عنده . لم تكن مستعجلة ، أبداً ، لكي تصل . وهو ما سيضمن لها الوصول إلى حيث تريد .

تهيَّأ له أنه رآها قادمة ، فأغلق عينيه مُسْتَسْلماً لها قبل أن تصل ، منتظراً أن تلمسه بيدها الرقيقة ، كما تعرف هي ، وحدها ، كيف تفعل ذلك بنُعومة . وبدأ يبتسم في أعماقه استجابة لابتسامتها الساخرة التي يغتبط بها قلبه كثيراً ، وهي تسأله بصوتها الأليف الذي يعلن حضورها الطاغي ، تسأله بقلق : لماذا تقف حائراً كالفاقِد قلبه؟ وطال الإنتظار . ولم يصل أحد . لقد كان في حالة من العطالة العاطفية الساحقة ، يسبح في شبه غيبوبة ، مثل مَنْ فَقَد كائناً عزيزاً منذ لحظات . ولكن ، لا! هو الآن في وضع آخر ، وضع لم يعد يهمّه فيه ماذا يخطط الآخرون ، ولكن من أي نقطة سيبدأ ، وإلى أين سيصل . صار مشغولاً بوجوده الجديد . ولم تعد

لأحد رقابة عليه . وإذا أراد أن ينكر الماضي فهو جدير بفعل ذلك ، أيضاً .

لم تعد الحياة مثل أُحجية . ولا هي مخيفة ، أومرعبة ، كما من قبل . مع ذلك ، ظلَّتْ لا مفهومة ، ولا مُسَيْطراً عليها . خطرها الحالي يكمن في احتمال الضياع . وهو أمر لم يعد يخيفه كثيراً . إنه لا يخاف ، الآن ، إلا من الموت . والموت صار بعيداً ، على الأقل في الأفق المنظور . وهو عندما يتحدث عن الموت ، فإنما يقصد موت الكائن الحي . التوقف عن متابعة الحياة . الاندثار . الدفن . آه! الدفن . منذ متى وهذه الخاطرة ، هذه المقولة ، تسيطر على فكره : الدفن .

وبدأ يتذكّر . يستعيد الموت القديم . البرد والمطر والزَخيخ . مطر الجزيرة الهَرَّار مثل غبارها الحريري الناعم . وترابها الأحمر الذي يستحيل تحت المطر إلى عجين . عجين من الوحل اللَّصِق الذي يبتلع الأرجُلَ والسيقان . منه كان يَشْمُط قدميه البائستين مثل خيطان الغزل اللامَفْتول ، يرفع إحداهما ، ويدوس على الأُخرى ، ريثما يتقدم قليلاً بعد كثير من المجاهدة والعناء .

ولكن إلى أين يريد أن يصل ، الآن؟ ومَنْ ينتظره في قلب هذا الدَماس الباريسي الآسر؟ هو يدرك ، اليوم ، أن للذكرى دوراً ثانوياً في الوجود . لكن التساؤل الذي يستولي على ذهنه لم يعد يتعلّق بقيمة الذكرى ، ولا بأهميتها في الحياة ، وإنما هو تساؤل حول «صيغتها» . حول صيغة الذكرى لا حول ماهيتها . لماذا توضَع الذكرى في مثل هذه الصيغة ، صيغة الوجود المنتهي الذي يستوجب التحَسُّر والعذاب ، وقد عشناها بكثير من التلَهُّف والامتنان؟ لماذا لا «تأتي» وكأنها الحياة التي مرَّتْ ، حياتنا التي لا

زالتْ حمولتها تسيل في عروقنا؟ ولماذا تتابع لعب دورها «الفاصل» الذي يشطر الكينونة إلى شطرين : شطر ما مَرَّ، وشطر ما يمر الآن، والذي أصبح منذ أن لُفظ في «صيغة الذكرى» الكئيبة .

من جديد، حَرَنَ في مكانه : الدفن! ومَرَّ كالبرق في ذهنه «أبو عَرّوج»، وهو يحكي له حكاية أخرى من حكاياته الكثيرة : حكاية «الجسد السعيد» . حكاية البنت التي ماتت مبتسِمَة لأنها كانت تؤمن بالحب . يحكي بنوع من الحذر وكأن الكلمات عقارب، قال : أسمع يا عَجِيّ! كانت البُنَيَّة تغني للقمر . وكان اسمه «قمراً» . وفي البرية التي امتلأت بالعشب في أوائل الربيع، خَتَلَ لها الذيب . وكان اسمه«ذيباً» . وبعد أن سحب نَفَسه الذي غاض فجأة من رئتيه الباليتين، تابع : كانت شمس تغني، وكان القمر بعيداً، والذيب قريباً . واعتقد الذيب أن شرفه إنخَدَش، أو أنه حدث شيء من هذا، أو أنه سيحدث لاحقاً . وقبل أن تقع المصيبة، قررالذيب الخَبيل أن يداويها من الأساس .

وصمتَ طويلاً . لكأن الكلمات أعيَتْهُ، فاستراح منها، قبل أن يتابع : لحَقها الذيب، سرّاً، وهي تتمايل وتتحايل، منتظرة لقاء القمر في أولَ الليل . كانت تغني . وتهتز . وتلْتَزّ . وهو يلاحقها مثل ظلها اللامرئي . وفي الغبش البارد، وهي تغني أغاني الحب والسَّعير، انبَطَح لها تحت كُثيبات الرمال التي كانت مبللة بالندى في ذلك الربيع الممتليء بالخير . وعندما حاذَتْه انقَضّ عليها كالضبع الجائع، وقَطَّعها تقطيعاً، وتحت الرمال الباردة دفنها . وراح . وبعد أن مسح البلَل في عينيه، قال : دفنوا حبيب.... واقتضى العرف أن يسألني : هل تعرف لماذا فعل ذلك ؟ ولا ينتظر الجواب مني لأنه يعرف أنني لا أعرف شيئاً . يعرف أنني مجرد ذريعة

للحكاية التي تعذبه منذ أن كان فتياً . وأوصاني : إياك أن تحكي الحكاية لأحد . حكاية الجسد الذي مات سعيداً .

ووقف ، من جديد . وقف في الظلام الباريسي البادىء . أنفاسه تتلاحق بسرعة مثل أنفاس المَطْرود من حقل الشوفان . وصار يتساءل : وهذا(يقصد صديق الحقيقة) ماذا يريد مني؟ من سمح له أن يشيل من «متاعي الفكري» ، ويحُطّ ، كما يحلو له؟ لكأن ما عشته من حياتي ، وما خَزّنْتُه في قلبي وعقلي ، نَبْتٌ سيء في أرض مهملَة يحق لأي كان أن يَدوسه ، وأن يَفْلَحه على هواه . وأحس بنوع من الإضطراب يملأ أعماقه الناشفة . وبدا له الوضع الذي وصل إليه مقلقاً حقاً . لكنه استمرَّ يتذكّر . يتذَكّر واقفاً في عرض الطريق ، ويحاور نفسه بامتعاض ظاهر : لماذا تراه يؤكد ، دائماً ، عكس ما أقول ، وكأني خلقتُ في جانب ، والصَواب في جانب آخر؟ ولِمَ يريدني أن أقذف بذكرياتي في الجحيم؟ بأي شيء أُقابل الحياة ، في هذه الحال؟ وبأي عتاد أقاوم الموت والعزلة والإنهيار؟

تذكّرَ . وحكى . وبكى .

تذكّرَ . عندما تَمَرَّدْتُ على صمتي ، وحكيتُ له ، ذات يوم ، شيئاً قريباً من هذه الحكاية العزيزة على قلبي : «حكاية أبو عروج» ، وقد غَيَّرْتُ فيها بعض الألحان والصفات ، لأنني وعدته ألاّ أحكي الحكاية نفسها لأحد . وأنا لا أخون وعدي معه . عندما حكيتها له ، ردَّ عليَّ بجدية مرعبة . وشَرَح لي القليل والكثير بشكل لا يقبل أي تفسير آخر . وهذه المرة ، بدلاً من أن يترك الأمور ملتَبَسة ، أو غائمة ، أو تقبل أكثر من احتمال ، حدَّد النقاط ، منذ البدء ، وكأنه لا يحب أن يعود إلى هذه المنطقة الحرام ، مرة أخرى . أوكأنه

يريد أن «يُفَرِّغ رأسي من محتواه» ، إذْ قال بصرامة : الحكاية هي فن الكذب . وهو يقصد بذلك أبو عروج كما تصورتُ ، لإنه أحس ، من حديثي عنه ، بمكانته في نفسي .

وعندما رآني مأخوذاً بما قال ، تَمَدَّد على هواه في ذلك النوء الفاخر . وبدأ رأسه يهتَزُّ قليلاً مثلما يحدث كل مرة يتحمّس فيها لأمر يحسب أنني أجهله ، تماماً ، وتابعَ : أقصد حكاية الحياة التي لا تُحْكى . لا أحد ، ولا حتى أنا ، يحكي حكاية حياته الحقيقية . لماذا؟ لأننا عندما سنمتلك الوقت ، والوعي ، لكي نحكي ما عشناه ، ستخدعنا الكلمات والأشياء ، لأنها تكون قد صارت في جانب ، ونحن في جانب آخر . سنحكي ، إذن ، حكاية أُخرى ، وإن كانت شديدة الشُبْه بحكايتنا-الأم . ونقدمها للسامع على أنهاحكايتنا الحقيقية ، وبخاصة لـ سامع غشيم (ولم يقل مثلكَ) ، مع أنها لا تحمل من الحقيقة إلاّ عَبَق الرائحة ، ومن الحياة إلاّ شذرات ظلت عالقة في الذهن .

تساءلْتُ صامتاً : ماذا يريد أن يقول ؟ وكأنه أدرك قصدي ، تابع : وأنا إذْ أقول هذا لا أحكم على أحد ، لا على الحكاية ، ولا على الكذب الذي أعتبره عنصراً أساسياً من عناصر الوجود ، إنْ لَمْ يكنْ هو أهم عناصره على الإطلاق . أقصد شيئاً آخر . أقصد حكاية صاحبك الذي تسميه «أبو عَرّوج» ، وربما«حكايتكَ أنتَ ، أيضاً . فمَنْ لا يعرف كيف يكذب لا يعرف كيف يحكي . ولئلا أظن به الظنون ، وأحسب بأن أمراً قد يمرُّ عليه دون أن يلْتقط هناته ، ويفْرز خطأه من صوابه ، تطلَّع في وجهي ، وهو يحذّرني : وعليكَ أن تعلم أن الكاذب ليس وحده الذي يعرف الحقيقة : حقيقة أنه يكذب . المستمع النبيه هو ، أيضاً ، قادر على اكتشاف التكاذُب

الكامن في صلب حكايته . لكن ليس من مهمته الإعلان عن شكوكه ، على الفور .

وبعد أن تَملّى شجر الخريف الباريسي المذهل الألوان ، تابع بتصميم : مفهوم الكذب ، إذن ، مثل مفهوم الشيطان لا يستند إلى أية حقيقة . وفي الواقع ، نحن نغرق في مستنقعنا الكاذب الذي أردنا إغراقهما فيه : الكذب والشيطان . هل تتصوّر أن أكثر من تسعين في المئة من حياتنا اليومية يقوم على الكذب ؟ وصمتَ . صَمَتَ طويلاً . حتى أنني صرتُ أسمع ، لأول مرة ، حفيف الشجر .

وفجأة ، لَقَطَني من طرف كُمّي ، وأوقفني في أرضي ، وهو يقول : مفهوم الحكاية النقديّ عندنا يختلف جذرياً عن مفهومها السكوني الذي يملأ فضاء الحكايات العربية ، اليوم . نحن نأمل من الحكاية ، بما تحويه من تصَوُّر نقديّ للعالَم ، أن تُفَجِّر ينابيع العقل المستنير في نفوسنا ، لا أن تَخُضَّ مستنقع عواطفنا الكريه الرائحة .

ابتعَدَ عني قليلاً ، وعاد إليَّ مسرعاً ، من جديد ، وكأنه نسي شيئاً مهماً ، وهو يقول : وعندنا : ليس هدف الحكاية قول الحقيقة . ولا مطابقة الواقع ، وإنما التحريض . وعلى الفور أضاف : والكذب دون نُطْفَة من التحريض ، يبقى كذباً محضاً . وعلى غير انتظار مني لَمَس كتفي بحنان ، وهو يقول مُطَمْئناً : لا تقلق يارجل! الحياة أقوى من الأكاذيب ، لكنها لا تُعاش دونها . ودون أن يسمح لي باستيعاب ما قاله ، أضاف بجدية كبيرة : لقد صار شعاري : اكذبوا تقولوا الحقيقة .

-٢٨-

عندما سنلتقي ، من جديد ، بعد وقت طويل ، سيحكي ، هذه المرة ، بحذر كبير ، حتى أنني بدأت أعتقد بأن الحياة ، عنده ، تحوَّلَتْ إلى لغة . إلى كلمات تشرح ما يريد . وهذا الشرح يكفيه ، وكأنه قام ، من خلاله ، بإتمام الفعل الأساسي في الحياة . يومها ، تَلَقّاني بمَرَح ، وبدَأ الحديثَ من حيث كنا . وكأنه لا زال لاصقاً هناك . أما أنا فلم يكن يلتصق بي أي شيء . كنتُ كالقَصَب النابت على الخابور : تُغْرِقُه الماء مساء ، ويُصْبِح ناشفاً ، وكأنما جَففَّتْه الشمس . سرعان ما أتقهقر في فهمي وملابساتي . أسمع شيئاً وأفهم غيره . علاقتي بالكلمات تستند إلى وعي جماليّ ، لا معرفيّ ، وعلى مدى قربها مني أو بعدها عني ، مع أنني لم أكن أعرف كيف أُحدد المسافة بيني وبينها .

وعندما أجوع ، كما هي حالتي الآن ، يضطرب عقلي ، وأصير عاطفياً . أكاد أبكي ، وأحياناً أبكي بقوة . والآن ، لا بد أنه أحس بأنني صرتُ على حافة البكاء . لأنه بدأ يهتز ، وقد رآني أتململ مثلما كنتُ أفعل في الأيام الخوالي ، حينما كنتُ في مدرسة «الجزيرة» ، والحياء يمنعني من أن أهْرُشَ جلدي أمام التلاميذ . ولكن كيف أشرح له الأمر؟ كيف أضع ذلك في سياق الحكاية؟

ولم يمنحني فرصة للشرح ، وأكثر من ذلك للإدراك ، إذ قال بامتعاض ، وكأن العالم أصبح مشكلة بدلاً من أن يكون حلاً .

ودون أن يربط الكلام بالمقام (أو هذا ما خطر لي) ، بدأ يحكي :

- أعذرني لأني أعود من جديد إلى ما سبق وتأمَّلْتُ بعضه معكَ . تصوّرْ مقولة من المقولات الكثيرة التي أتخَمَتْ عقولنا بالبلادة ، ومنها ، مثَلاً : «ليس بالخبز وحده يحيا الانسان»! هذه الأمثولة الساذجة لا تعتمد على سَنَد علمي ، وهي خاطئة ، تماماً ، فيما تؤكده بالمعنى المعرفي ، أيضاً . ومع ذلك استُعْمِلَتْ ، جيلاً بعد جيل ، كحقيقة لا جدال فيها . وأنتَ تعرف ، أو صرتَ تعرف ، أن الحقيقة لا تستقيم بلا جدال . وأن أهمّ خواصها ، كونها قابلة للنقض .

وبعد أن تريَّث قليلاً ، أكملَ بعنف واضح هذه المرة : وهذه (يقصد أُمثولة الخبز السابقة الذكْر) ليست سوى كذبة هائلة ، حجمها بحجم الإنسانية التي «ابتلَعَتْها» . تصَوَّرْ خطورة مثل هذه المقولة التي نجترُّها طيلة حياتنا مثلما تجترّف الأبقار أعلافها طيلة الليل . نجترُّها وكأنها حقيقة مطلقة . وليس ثمة مُطْلَق في الوجود . الكل نسبيّ . أكَّدَ ، وتابع : وحتى لو كانت كذلك (يقصد : حقيقة مطلقة) ماالذي يدفعنا إلى ارتكاب حماقة تَصْديقِ مقولة فظيعة مثل هذه؟

وبعد أن ابتَلَع ريقَهُ الناشف ، صار يُتَأْتيء : الحقيقة ! الحقيقة ؟

وما إن استعاد بعض هدوئه ، واطمأنَّ إلى إصغائي إليه ، حتى قال :

- ولكن ، ما الرابط بين الحياة والحقيقة؟ وهل من الضروري لكي تستمر الحياة أن تَتَّسِم بالحقيقة؟ أو أن تكون الحقيقة أُفقاً لها؟ مَنْ يمكن له أن يؤكد ذلك ، أو ينفيه؟ نحن لا نجهل ، اليوم ، أن

شؤون الحياة لا تقوم على الحقائق وحدها ، كما قلنا من قبل . لماذا ، إذن ، يكبِّلوننا «بالحقائق» اللاموجودة ، أو «اللاضرورية» ، والتي تكاد أن تكون وَهْماً مطلقًا ، أحياناً؟

بعد أن قال ذلك بكثير من الإستفزاز ، وضع رأسه بين يديه . وتَبَحَّر في القاع ، وكأن الأرض هي الحقيقة الوحيدة في الوجود . وصار يَهزُّ رأسه بطريقة غريبة مليئة بالتفَجُّع والإمتعاض ، قبل أن يتابع :

- خذ واحدة أخرى ، مثلاً : نحن لا نسبح في النهر نفسه مرتين ، أو ما شابه ذلك .

وقبل أن أغوص في التحليل والتركيب ، تابع :

- أنا لا ألجأ إلى المقولات الإنسانية العامة هرباً من مواجهة المقولات المحلية ، أو العربية الخاصة . ولكن لأن الحياة العربية ، هي الأخرى ، كانت ضحية لهذه المقولات ، وصارت اليوم أكثر تبعية لها بعد إنهيار السُدّ العقلانيّ الخَلاّق فيها . حيث أغرق فيضان التفاهة والإبتذال كل شيء . إضافة إلى ذلك ، لا تنْسَ أن الحِكَمَ والأمثال التي ينتجها العقل العربي مليئة ، هي الأخرى ، بالبلادة والغباء . ودون أن يهتم بما كان يعتمل داخل نفسي ، قال مُحَرِّضاً : لنتابع :

- هذه المقولة الخطيرة التي تتَّسم بالجَرَيان الشكلي البسيط ، أو بالحركة السَيَلانية الطبيعية للماء ، ضَلَّلَت الإنسانية خلال أكثر من عشرين قرناً . لأنها شَبَّهت الزمن بالنهر . وطبيعة النهر الجريان المستمر . لكنها لم تذهب أبعد من ذلك . ولم تَرَ جوهر الوضع الإنساني الأكثر تعقيداً من جريان النهر بكثير . لم تَتساءل ، مثلاً : بأية سرعة يجري النهر؟ وبالنسبة لمن هو يجري؟ وإلى متى ؟

وأسئلة أخرى كثيرة ، سيثيرها أينشتاين ، ويؤكِّد خطأ هذه المقولة ، بعد أنَ بيَّن أن الزمن ، مثل أي شيء آخر في الوجود ، نسبيّ .

أحس ، ولا بد ، أنه قال ما لا طاقة لي على استيعابه ، وهو يتكلّم بتلك السرعة ، وتعلو محيّاه إمارات الإستياء ، فهدَأ من غلُوِّه ، وهو يحكي :

- ولكي تقتنع بما سبَقَ ، أقول : جاءت علوم الفيزياء الحديثة لتبرهن بشكل قاطع على خطأ تلك المقولة ، ولتُبَيِّن ، أكثر من ذلك ، أن الزمن نفسه ليس مُعْطى أساسياً في الوجود ، وإنما هو مُعْطى ثانويّ وتابعٌ لمعطيات أخرى كثيرة . وبالتالي ، فإن الكائن البليد الذي لا يتطوَّر ، يمكن له أن يستحم بماء النهر ، نفسها ، عشرات المرات . هل فهمتَ ما أريدكَ أن تفهمه؟

لا بد أنه أراد ، ذلك اليوم ، أن يشرح لي الكثير مما كنت أجهله . ودفعه إلى ذلك إحساسه الغامر بإرادة السيطرة على عقلي . إذْ كثيراً ما كان يُردد أمامي مقولته المخيفة : منْ يستطع أن يُرَوِّض عقلاً ، يُرَوِّض الإنسانية ، كلها ! لهذا السبب ، ربما ، كان مدفوعاً بقوة لمتابعة الحديث ، وكنت مستعداً لسماعه . فأضاف ، شارحاً ، بعد أن استعاد نَفَسَه الذي كاد أن يُوَلّي الأدْبار :

- والزمن الذي نعرفه اليوم ، أو نعرف صفاته التي وضعناها نحن له ، هو الزمن الديني ، توحيديّاً كان ، أم وَثَنيّاً . أو هو زمن الآلهة إنْ شئْنا ، بدءاً من حمّورابي البابلي ، مروراً بزيوس الأولمبي ، والفراعنة ، وعلى رأسهم أخناتون (الذي كان قرص الشمس ، أو مسارها الخَطّي البسيط المتكرر بين شروقها وغروبها هو الدليل الكوزموسيّ الذي أسَر عقله ، فقَدَّسَه) وصولاً إلى مفهوم الزمن في الأديان التوحيدية الثلاث التي تعرفها . وغيره كثير .

وفجأة ، سكتَ ، وهو يَتطلّع إليَّ بتواطؤ وكأنه يقول لي : الآن ، أمسكتُ بخناقك الفكري ، وسأريك إلى أي حدّ أنت جاهل ، ومتزَمِّت . وبعد برهة ، تابع حديثه الجهنّميّ بمتعة ظاهرة ، قائلاً :

- مفهوم الزمن المقدّس ، هذا ، الذي أنتجته فلسفة المتوسط السكونية القديمة ، والذي يسود الآن الشرق العربيّ والغرب الأوربيّ ، على السواء ، نشأ تحديداً في المشرق العربيّ ، واليونان ، ومصر . وكانت هذه المناطق تشكل كتلة معرفية واحدة متداخلة . إضافة إلى أنها مركز جغرافيّ محدود . مرتبط ببعضه بقوة . ومن السهل انتقال الكائنات ، والأفكار ، من بؤرة إلى أخرى فيه . لقد كان مكاناً واحداً . ومنه ، من هذا الفضاء المتوسّطيّ ، انتقل هذا المفهوم إلى أنحاء الكون الأخرى .

وكأنه رأى السؤال يقف فوق لساني متهيّئاً للإنبثاق ، أشار بيده الرطبة القصيرة ، كابِحاً جِماح عقلي ، وهو يجيب بالفعل على السؤال الذي خنَقْتُه في ضميري :

- تريد أن تسألني كيف انتقل؟ إنتقل بطريقين : الغزو والتجارة . ومهما يكن الأمر ، فهو قد مَثَّل زمن الديمومة بامتياز . أو الزمن السكوني الدائري الذي يذهب ليعود دون إنقطاع . فهو لا يُبْلى ، ولا يَهْترِيء . لا يزول ، ولا يحول . وظلت الإنسانية أسيرة له ، ولفكره التَكَرُّريّ ، إلى أن حرَّرَتْنا علوم الفيزياء الحديثة ، ونظرية النسبية منه ، ومن آثاره الإسطورية الآسرة . . . .

وقبل أن أستبين آثار كلامه في نفسي ، وما سبَّبه لي من شكوك ، وأفانين ، إلْتفَتَ بعيداً عني ، وكأنه يتَهَيَّب السؤال التالي ، ويدفع به إلى اللاشعور . أو كأنه يعترف بعجزه ، مسبقاً ، عن الذهاب إلى أبعد من ذلك ، قائلا ، بشكل عفويٍّ ، أو يكاد أن

يكون كذلك (طالما أن كل شيء نسبيّ) :

- لا تسألني ، اليوم ، أكثر من هذا . لأن ذلك يتطلّب معرفة وجهداً لستُ أهلاً لهما . وعليكَ أنتَ تقع مسئولية البحث ، لو شئتَ أن تتأكد من الخطأ والصواب

وفجأة ، وقفَ . ووقفتُ .

تطلَّعَ هو إلى الأرض . وتطلعْتُ أنا إلى أعذاق شجر الغروب .

وافترَقْنا .

-٢٩-

في الصباح الصغير يمشي «شارع المدارس» الباريسي تحت رذاذ الخريف الفاتر . يمشي سعيداً . يكاد يضحك وحيداً ، في هذا العالم الذي بلا إنْس . لكأنه يدوس الندى في سهول الجزيرة الغامرة . السهول المروية من مطر الشتاء الذي لا يكف عن الإنهمار . سُهول صباه البعيد مثل غيم في أطراف الصحراء العربية الكبرى ، حين كان أبوه يسوق النوق وهو يرقد راكِباً فوق ظهورها . إلى أي الأصقاع كان يَجُرُّهم الجَرّار؟ وفي أي النقاط من ظهر الأرض سينصبون خيامهم السود المبقَّعَة بالرماد؟ رماد حطب البُطْم الذي كانوا يصطلون على ناره في ذلك الشتاء القارس . أبوه يحكي ، مُشَمِّراً عن أفخاذه السود العَضيلة ، والرَسَن المجدول من الوَبَر الناعم كالحرير مَلْفوف على ذراعه : رَسَن فرسه الدهماء مثل غيمة مملوءة بالخير . كان أبوه يحكي : تعال أسولِفْ لَكْ . وتنهمر الكمات مثل حُبَيْبات المطر خفيفة . تنهمر بعَسالة وذوق . ويغدو الوقت والحَماد مجرّد صوت عَذْب يتدفّق هادئاً ورَحيماً .

أبوه يعرف مقادير الصمت ، والكلام . يعرف متى يحكي ، ومتى يَسْكُتُ . الصحراء المخاتلة ، ذات الإنحناءات الخادعة ، والسُهوب الماكرة ، هي التي تعلِّم أهلها فَنَّ التَكلُّم والسكوت . وهو

يحب أن ينام على الصوت ، آمناً ، في أحضان الريح العَذِيَّة التي تأتي مع الغروب : العُذَيْبيّ ، كما يسمّيها أبوه . والإسم وحده كافٍ ليجعله يحس بالمتعة الطازجة التي تنشرها الريح فوق جلده . وبعد أن يسيطر أبوه على الوقت والاجهاد بحكاياته التي لا مثيل لها ، يصير يُتَمْتِم بحياء . لكأنه يريد أن يعتذر عن صعوبة الوجود الذي يعانونه : الحكاية متعة الحياة . ومَنْ لا يعرف كيف يحكي لا يعرف كيف يعيش ! يقول ، وهو ويرفع رأسه الطويل عالياً قبل أن يضيف : فلا ترافقْه . وتَنْصَلق أمه هابَّة كلسان النار الحامية : لا تعلِّم الولد على الحكي والكلام . ويرد أبوه بهدوء ، وكأنه يرى ما لا يراه الآخرون : الولد ما هو بحاجة إلى مَنْ يُعلِّمه .

ماشياً في شارع المدارس الباريسي ، ماذا كان يستعيد ، أيضاً؟ يستعيد أقوال «صديق الحديقة» الذي كان يحبُّ لصقه منذ أيام حينما قال : ليس للحياة حكاية ، وإنما لها ظواهر وسيرورات . وبعد أن تَمَلّى الإرتكاس القاحل على وجهي ، أضاف بحذر ، ولكن بتصميم : وما يعطي أحداثَها البُعْدَ الحكائي الذي نعرفه هو العقلُ السكونُي الخامل الذي يحتاج لكي يستمرّ ، إلى نقاط ارتكاز أخلاقية أو معرفية يتناقلها جيلاً بعد جيل . وسكتَ فجأة . لم أدرِ لِمَ سكتَ . لكنني صرتُ أعرف طرائق تَفَنُّنه في إبلاغي ما يريد . ولذا أعطيتُ سمعي كله للإنصات ، فتابع : وهذا «التَناقل» هو الذي يجعل منها ، من حكاية الحياة ، أو ما يمكن أن يُسَمّى تجاوزاً كذلك ، نوعاً من الثَوابت المتأبّدة ، حتى لنصير نظن أنها وُجدتْ على هذا الشكل منذ بدء الخليقة ، مع أنها تُفْنى وتتغيّر بأسرع مما نتصوَّر .

أحسستُ أنه بلغ غاية مراده بهذه الجملة ، إلا أن ظني خاب .

إذْ عاد صوته الخَيْطيّ يقرع أصداغي وهو يتمتِم داحِساً فمه في فوهة أُذني ، أو يكاد : ويمكن أن أكون مُحقّاً ، أضاف ، إنْ قلت : ما أنْ تختفي الحالة حتى تموت أمثولتها ، لكَيْ لا أقول حكايتها . وفكّرْتُ أنا : كل ذلك بسبب قولة أبي حول الحكاية والحياة؟ ولم يسألْني ، هذه المرة ، إن كنتُ فهمتُ . ولم أسأله شيئاً . كنتُ أصل .

الشوارع مغسولة بهدوء . غسلها رذاذ باريس المتساقط بصمت وكأنه أخرس ، أو لكأنه يخشى أن يوقظ عنف الطبيعة الخفيّ . العنف الذي عانى منه صغيراً ، حين كان العجاج يَلُفُّ ويدور مشكلاً قُمْعاً كونيّاً هائلاً . قاعدته في القاعِ ، وفوهته في السماء . يدور بقوة هوائية لا حدود لها ، مبتلعاً في دورانه العنيف كل شيء : الشوك ، والتراب ، والقش ، والزبل ، والولْدان (وهو منهم) الذين يصعدون في طبقاته حتى الإعياء . يصعدون وهم يئنّون ، فاردين أطرافهم أجنحة بيضاً مثل ذباب خرافي . وبعد أن يصعد قُمْع العجاج إلى السماء يصير يفتح عينيه ، ويغمضهما . يريد أن يرى ، ولا يرى سوى الغبار . غُبار ناعم كالطَلّ يَخْنقُ صوتَه لأيام طويلة ، ويُسْكِبُ الدمعَ من عينيه ، ويجعله يصمت . يصمت . ويمشي . ويصل ، كما وصل هذا الصباح . يصل إلى حيث يريد . العالم قطعة واحدة وإنْ كانت متعددة الألوان والأنواء . لا شيء يخيفه بعد الآن . بعد ذلك الوقت الجميل الشديد الرهبة . الوقت الذي جعل منه هذا الكائن الصامت الذي يريد أن يرى بأكثر من عين .

كانت مقاهي شارع المدارس الباريسيّ ، ذلك الصباح ، قد بدأت تتفتَّح مثل زهور عملاقة . وحده يمشي . متأكداً ، هذه المرة ، أنه وحده . فصاحبه ينام ، في مثل هذا الوقت ، من النهار . ينام ،

كما يتصَوُّر ، مثل قطعة من الخشب المَبْلول . ويضيف في أعماقه ليدرك الصورة على أحسن وجوهها : مثل خشب «جبل عبد العزيز» المَمْطور ، في الجزيرة . الجبل الصغير القاحل الذي لا يحميه من عنف الصحراء الجنوبية سوى شُجيرات البُطْم القليلة الارتفاع . الشُجَيْرات القصيرة الأغصان التي تَحْجُز عنه الغبار الساخن ، صيفاً ، وتَتَجَمَّد في الشتاء . تتجمّد الشُجَيْرات القزمة لاصقة في سُفوحه ، ساكنة لا حراك فيها . لكأنها تخشى على جذوعها الإنكسارَ من البرد ، وعلى تُرْبَة الجبل التفَتُّتَ ، إنْ هي تحركت .

أحسَّ أنه يتَمتَّع بالمشي الصباحي ، هذا اليوم ، كما كان يتمتّع به راكباً مُهْره الأدْهم في فيافي الجزيرة . لماذا لا يسيل مثل الرذاذ ، إذن ، في هذا النوع الذي منَحَتْه إياه الطبيعة الرحيمة هذا الصباح؟ كان بحاجة إلى النظر من جديد في أموره ، ومن زاوية جديدة . زاوية الحياة التي لا تلتزم ، فقط ، بالكمال . ولكن ، لأي سبب ، وبأي معنى ، كان عليه أن يفعل ذلك؟ وشَعَرَ أنه يغرق في الأشياء . فتوقف في مكانه . توَقَّفَ ناظراً واجهة «السوربون» الجليلة ، مستشرفاً تلك الأُبّهة الطاغية ، وذلك السر الآسر الذي ينبعث منها . وتساءل ، صامتاً : «أنا وحدي ضحية هذا الشعور اللامحدود بالانبهار»؟ وكاد يصرخ : «أوَليس من أجل هذا رحلتُ»؟ لكن الكلمات الحقيقية لم تغادر رأسه ، ولم يجرؤ على التلَفُّظ بها . أيكون السر أصعب من التصريح به؟ أيكون أكبر من الاعلان عنه؟ ولكن ما هي هذه الحياة البليدة التي لا تحتمل الاعتراف حتى بمحرِّكاتها الأساسية التي تعطيها معنى أن تكون حياة ؟ كما قال له صاحبه .

يتمتم بهذه الكلمات ، وغيرها ، واقفاً أمام تمثال «مونتينييه»

في ساحة السوربون . التمثال الأول الذي رآه عندما وصل إلى باريس . ظل واقفاً لفترة طويلة في ذلك الصبح المرتجف من البرد . كان وحيداً . وكان يريد أن يصل إلى مقهى «دانْتونْ» . ولم يعد يريد . غاصَتْ قدماه في وَحْل «الجزيرة» البارد ، وحاول شَمْطهما منه ولم يقدر . المطر الأسود العاصف الذي أغرق السهوب الممتدة من «السَنْجَق» إلى «عامودا» ، والذي بَلَّل ترابها الهش المليء بالحياة ، جاعلاً منه عَجيناً شديد اللزوجة يصعب الخلاص منه ، هو الذي يحدُّ من حركته الآن . وكالقارعَة جاءه صوت صاحبه : إما أن تتقدَّم ، أو أن تموت واقفاً في مكانك كالتمثال .

بعد سنوات من هذا التاريخ ، ستَنْمحي ذكريات كثيرة من صفحات حياته العجيبة . وستمتزج أمور كثيرة ، أُخرى ، فيما بينها . سيمتزج الحاضر بالماضي ، ليغدو حياة جديدة لا علاقة لها بما مرَّ إلا من خلال الغبش والنعاس . حياة لا تشبه شيئاً مما عرفه من قبل . وسيردد في رأسه ، وبصوت عال : أحب تاريخي الشخصي الذي صنعته . وبخاصة ، ذاك الذي اخترتُ طريقة صنعه بحرية . وسيضيف ، بلا ندم : وأكره الآخر الذي فُرض عليَّ ، مع أنني أضعْتُ جزءاً من حياتي في سبيله . كان العالَم يتفتَّح أمامه مثل زهور الربيع المشمسة ، وينغلق خلفه مثل «باب الحديد» . ولم يكن عليه أن يَخْتار ، ولا أن يختار بين الوجود والذاكرة . كان عليه ، فقط ، أن ينتزع أقدامه من الوَحْل الثخين ، وحل الذاكرة الحزينة ، ويمشي . إلى أين سيصل؟ أي سؤال غبيّ هو هذا السؤال الذي لا يُنْبيء إلا عن البلادة . سؤال سَمج مثل أسئلة طفولته الأُولى : أين ، ومتى ، وكيف . ولكن من أي مخْبإٍ في نفسه انْبَثَقَ : باب الحديد ؟

أووه . . .! «باب الحديد»؟! استعاد الكلمة العتيقة التي مرت قبل قليل في ذهنه ، قبل أن تختفي من الوجود . لَقَطَها من العدم . كان النهار ، هو الآخر ، صُبْحاً ، ذلك اليوم . وكان قد وصل للتو من آخر الأرض . النُعاس يملأ وجهه الأصفر الصغير . وعلى عينيه يتراكم غُبار الوَسَن مثل الغمام . مثل غمام لم تُفَرِّقْه شمس الضُحى ، بعد . بتردد شديد ، هَبَطَ من الباص المهترىء الذي قطع الليل ، كله ، في الركض والأنين . وأول سؤال خطر له : «إلى أين يروح»؟ ظل واقفاً لصق الباص الأسود الذي صار أشْهَب من تراكم الغُبار والذُرورات عليه . غُبار الرِمال والقيعان الجِصّيَّة التي تُحادد«الفُرات» . وذُرورات الطريق الطويلة التي سلكها الباص منذ أول الليل إلى الفَجْر . من «الحسكة» إلى ««الدّيْر» ، ومن «الدير» إلى «الرَقَّة» ، ومن «الرقة » إلى «حَلَب» .

كان يتلَفَّتُ حوله طيلة السَفَر الليليّ باحثاً عن مواطيء الأرض التي ظلَّتْ تمر مثل شريط دائخ من شدة الدَوَران . أرض طفولته الأولى التي أفْعَمَتْ نفسه بالألق والحبور ، مع أنه كان شقيّاً . كان يحب أن يراها : أن يرى الأرض الممتدة بلا نهاية حتى آخر الكون . لكنه عندما ترك «الجزيرة» في غسَق الليل الفائت ، لم يكن يرى من العالم سوى الحَماد . حَماد ترابيّ اللون مفعم بالعَجاج ، يصعب التمييز فيه بين الماشي والقاعد . بين الآيب والذاهب . ذلك اليوم ، لم يكن يرى سوى الأزوال المترامية بعيداً في سراب آخر النهار ، والتي لن يراها من بعد ، أبداً . كان الضوء المنبسط في الفضاء السارب أشْهَب وملتاعاً . وتصوّر أهله الذين ظلوا مقيمين في ذلك البند السائخ من قسوة الشمس . تصوّرهم يتحاكون بشأنه ، وجَدْواه . وقرر : لا بد أن أعود . وكأن ذلك القرار العفوي منحه نوعاً

من البـهـجـة ، قـام واقـفـاً . وصـار يتطلّع إلى الخلق الجـالسين في مـقـاعـدهم الشـديدة الإهتـراء مُتَـمَلْمِلين ، وهَمَّ أن يصـرخ بـهم : أنا ذاهب لأعود . ولما رأى التعب والخذلان يكسو وجوههم ، عَدَل عن قراره . وثَوَى جالساً في مكانه كالمَطْعون .

كانت «حَلَبْ» لم تفقْ ، بعد .

عندمـا توقف البـاص الحـزين كـانت أبخـرة النوم تملأ فـضـاء المدينة . ومع شَفَق الفجر الغامر الذي سيطر على الفضاء الجميل ، كان بعض البشر يمشي عَجِلاً ، وبلا اتجاه . أو هكذا بدا له الأمر . تتبَّع الناس بعينيه البـائستين اللتين لوَّثهمـا نُعاس غـريب . نعـاس سـفـر طويل ، وصَـمْت لا مـحل له في الحـيـاة . صَـمْتٌ كـان ، مع ذلك ، منذ البارحة مساء ، سيداً لكل شيء . و«الدَرْبُ لِسان»! كما يقول أبوه ، قبل أن يضيف : متعةُ السفر النظرُ والكلام ، الأخرس لا يترك منازله ، ولا يذهب بعيداً ، مثلنا ، مُحَرِّضاً إياه على تَقَبُّل الحياة المتنَقِّلَة ، ومـبـاشـرة السـفـر بأي مـبـرر ، وتحت أي ظرف . وكـانت الفكرة ، هذه ، تملأ رأسه بالحكايات والأسئلة التي يختمها ، دائماً ، بتساؤل سرى : وإنْ كنتُ أنا أخرس ؟

في «باب الفَرَجْ» ، في قلب «حَلَب» العتيقة (وهو نقطة وصول الباصات من الأطراف النائية . فيه تقذف بركابها البائسين في آخر الليل مثل القشور الجافة . وكان واحداً منهم) ، في هذا «الباب» ، وقـبل أن يصل إلى «باب الحـديد» ، حـيث سيـسـتـقـر هناك بعض الوقت ، وقف يتأمل حركة الكائنات ، وألوان الوجود . غـايات كثيرة تملأ نفـســه . وتحركـه أهواء لا سـيطرة له عليـهـا . أهواء جـديرة بأن توصله ، ذات يوم ، إلى الموت ، أو إلى هذا المكان الذي هو فـيــه ، الآن .

في ذلك الصبح الحَلَبيّ الغابر لم يكن يعرف ما معنى المصير. لم يكن يبحث إلا عن مكان دافيء يشرب فيه شيئاً ساخناً بأرخص ثمن ممكن. لم يكن للحياة، يومذاك، بُعْد آخَر خارج الرغبة في البقاء حَيّاً. لماذا لا يدخل، إذن، هذا الدُكّان الذي تنبثق أبخرة «السَحْلَب» منه مثل قِدْر صحراويّ تَؤُزُّ أمه تحته النار. دَخَل حتى قبل أن تخطر له الفكرة. أو قبل أن ترتسم في عقله، بالأحرى. وفيما بعد، سيدرك أن قَسَمات الكائن تتبدّل، أما خواصه فتبقى. وسيفهم، بعد زمن طويل من ذلك الوقت، أن معنى الاصرار على السير في الطريق، الطريق الذي يحلم الكائن بها، إنما هو معنى حياته بالذات، دون حساب للعواقب، أو اهتمام بالنتائج.

ومن جديد، تساءل برهبة: إلى أين يروح؟ سُؤاله لم يكن سؤال الحيرة، وإنما سؤال الإمكان. ولم يكن ثمة شيء ممكن بالنسبة له، يومذاك. كانت الأمور، كلها، متساوية من حيث لا أمكانية فعل أي منها. وهو ما أعطاه القدرة على الاقتحام. اقتحام فضاء حياته الخالي الذي كان عليه أن يملأه، بنواياه، وأفكاره الغريبة، وأحلامه. وهو ما سيساعده على التسَرُّب عَبْر سكون حياته القديم المزري الى حيث هو، الآن، في قلب الحركة والضوء.

واقفاً في فجر«حَلَب» العاري، يومذاك، ومأخوذاً بعدد الأشياء الهائل، والكائنات (وهو القادم من سهوب الجزيرة الشاسعة التي تكاد لا تحوي سوى الغُبار والحقول) بَدَأ يفكِّر: العالم مكوّن من كل شيء. وهَمَّ أن يقول: إلاّ مني. لكن الرَجْفَ، رَجْف بَرْد الصبح القارس، أعاقه عن قول ذلك. وقبل أن يتباحث مع نفسه حول هذا الكلام الشديد الغموض والذي بدا له، على الفور، بلا معنى،

وقعتْ عينه على «الساعة» . ساعة «باب الفرج» الشهيرة في«حلب» التي حكى له أبوه عنها يوم كان «فراراً» . وأخذه نوع من الحنين الصامت إلى الكلام . كان يعرف أنه لا يستطيع أن يتراجع عن مشاريعه التي تحركه ، أو تقوده مثل حَبْل سِرّي ، نحو «عين الحياة المرغوبة» . لكنه لَمْ يكن متأكداً من الوصول . ولا من حقيقة النقطة التي سينتهي إليها ، ذات يوم . كان يملك الوقت ، ولا يملك أية إمكانية أخرى . وفيما بعد ، سيدرك أن ذلك هو «الشيء الضروري» و«الوحيد» الذي يمكن أن يتحقق بواسطته النجاح . وهو الذي سيفرض الفشل الذي لا مفر منه ، أيضاً . فالوقت هو الامكانية الوحيدة المتاحة أمام الكائن ، ولا شيء آخر ، أبداً ، كما سيقول له ، بعد عشرات السنين من تلك الوقفة الصباحية الباردة في باب «الفرج» ، «صديق الحديقة» الأريب .

ومشى .

سَحَب قدميه من زفت الطريق الباريسي المبلل بالرذاذ ، ومشى . كانت نهاية «شارع المدارس» قريبة . وسريعاً ولج شارع «راسين» الضيّق . ومَرَّ أمام كلية الطب العريقة ، الساكنه في قلب الحي اللاتيني . وتجاوزها ماشياً بهدوء ، وكأنه يسوق قطيع خِرافه الأليفة إلى المرعى القريب . إلى المَرْعى الذي كان قريباً من صِباه . بعد بضع خطوات ، دخل من زاوية ضيقة ، شارع «سانْ جرْمانْ» ، وسارقليلاً ، صاعداً الضفة اليسرى لذلك الشارع الجميل المليء بالأنوار ، ليصل ، أخيراً ، إلى مقهاه المفضَّل : «دانْتونْ» . سريعاً جلس على الطاولة الصغيرة المرمية في زاوية المقهى ، ووجهه إلى الفضاء .

كان شارع « الكوميديا القديمة» يرتسم أمامه خيطاً من الضوء

الممتد حتى نهر «السَينْ» . لم يعد يريد أن ينظر إلى أحد ، أو إلى شيء . أغمض عينيه ، جالساً ، والسهوب القديمة تتراءى له مثل حلم جميل . لكأنه أراد أن يتعلَّق بذيولها ، علّها تغفر له البُعد عنها . لكن الأمكنة لا تحتمل التشبّث بها ، ولا تحب السكون . وهي لا تلحق الذي يفر منها ، أيضاً . للأشياء منطقها الخاص ! كما قال له ، وأضاف : الحياة مَجبولَة من التبَعْثُر والاستمرار . ومع أن هذا المنطق يبدو ، في هذه اللحظة ، بديهياً ، أو يكاد ، فإنه كان ، في يوم ما ، مُخيفاً .

وتَلَفَّتَ حوله مُرْتاباً . ورأى . رأى الشمس التي فَرَّقَت الغمام ، وبانَتْ . شمس جديدة تشرق هذا النهار . شمس باردة ، تُحيل زمن الخريف الباريسيّ الفاتر إلى زمن ربيعيّ غابر . ويبدأ القلب بالدَوَران : تختلف الأمكنة والقارات ، ويختلف البشر والنوء ، وتتشابه الأوقات مثل أصابع اليد . وفَكَّر : العواطف هي التي تضفي المعنى على ما نرى وما نحس ، إذنْ ؟ ومع أنه لم ينطق حرفاً مما فَكَّر فيه ، إلاّ أنه شَعَرَ بأن صوتَه محمَّل بالاحباط . ولكن مَنْ يرسي قواعد هذه الحياة القاسية؟ وكيف له أن يتابعها سليم العقل ، معافى؟ كان رحيله هو كل ما تبقّى له من ذلك العالم القديم . وكاد أن يضحك ساخراً من عقله المشوّش بحدة ، وهو يَتَقَلَّب في فكره : الذكرى هي كل ما يبقى لنا من المنظور ، من الصورة ، من المشهد ، من الوجود ، من الحياة ؟ تساءل بشكل سري وهو يُعدد الألفاظ باحثاً فيها عن اللفظ الأقرب منها إلى القَصْد . ولكن ما يهمه من الأمر ، الآن ، وقد تبَخَّر كل شيء ، ولم يبق بين عينيه سوى الغمام . ورأى أن يستبدل الغَمام بـ الكلام . وقد أحس في عقله أنه يستطيع ، أو يكاد ، أن يرى الألفاظ مثلما يرى الكائنات . و . . .

كان سعيداً بوحدته الصباحية ذلك اليوم . لكأنها هِبَة الوجود التي لا تُرْفَض . وملأته الرغبة في أن يستعيد مراحل حياته كما هي . كما عاشها . وأن يخْلُط الأزمان ، دون أن يهتمّ بتنقيتها ، أو عَزلها . صار يحب أن يكتشف أن حياته لم تكن على وتيرة واحدة . لقد قَطَعَ طريق الإنسانية الطويلة بعمر واحد ، أو يكاد . جاء من البدء ، من المرحلة الرعوية ، ومرّ بمراحل كثيرة أخرى ، وعديدة . وها هو اليوم ، في المرحلة الباريسية . وهو ما ملأ نفسه بالنشوة ، والإستئثار .

لكن تلك النشوة الغامرة لن تطول ، مع أنه بدأ يَسْتَمْريء استعادة الظروف القصوى من حياته . ولن يتمَكّن من أن يذهب بتساؤله الذي بدأه حول عظمة الحياة إلى نهاياته . لأن الذي جلس باللصق منه ، وبشكل أقرب إلى الكتْمان ، لم يكن سوى «صديق الحديقة» الذي سيملأ صباحه هذا ، كما فعل من قبل مع صباحات أخرى عديدة ، بأفكاره التي تغُصُّ بها نفسه . ولن يدع له الوقت ، الوقت الضروريّ ، ليَسْتَوْلِد من أعماقه الأجِنَّة العاطفية التي دَفَنها حَيَّة عندما غامر بالرحيل شبه القسري ! وهذه الشُبْه المشؤومة من أين أختلَقَها ، الآن؟ وهي لا محل لها في الحياة ، كما قال له «الحدائقيّ» ، ذات يوم . ما همَّ! وها هو ذا ، منذ أن جلس باللصْق منه ، بادره بالكلام ، بعد أن وَضَعه داخل عينيه ، وكأنه يريده أن يفهم أنه ، هو ، المَعْنيّ بالحديث ، مع أنه قال صراحة :

– أدهشني منظرك الصباحي التعيس ، هذا النهار . كنتُ أحسب أنك مثل بقية الكائنات تنتعش صُبْحاً ، وتَذْوي مساء . ولكن ، لا! هاأنتذا منذ الصبح تلعق نُدوبَكَ السرية مثل ذئب مَجْروح .

اللعنة! انْتَفض قلبي بالرغم مني . اِنْتَفَض لأسباب عديدة . وفي الحقيقة ، لم تعد الأسباب تخدع أحداً . هي ، نفسها ، صارت بحاجة إلى أسباب . ومع انتفاضة القلب ، أحسستُ أن جسدي كله يرتعش . أكان ذلك بسبب حديثه العدائيّ؟ أم لأنه قاله «صُبْحاً»؟ وفي الصبح لا يُحَبُّ الكلام ، كمايقول أبي . أم . . .؟ لكنه لَقَفَ التَفَكُّر من رأسي ، وهو يحاول أن يموضع حالتي الشخصية داخل الإطار العربي العام . وقد اعتقد ، ولا بد ، أنه يُخفِّف بذلك من هجومه اللامتوقَّع عليّ . قال وكأنه يقرأ كلماته على لوح وجهي البائس :

- التحرر من الكآبة هو إحدى مهمات الكائن العربي الأساسية ، اليوم . فهي مُثَبِّطة للعقل ، ومُدَمِّرة للروح . ولا نسْتَثْني أحداً ، من ذلك ، حتى ولا أنفسنا .

اللعنة! أفكار مريبة ، مطبوخة بمَرَق الكلمات منذ الصبح ؟ تساءلتُ مرعوباً ، وأنا أكاد أشتُمُ هذا الصباح الجميل ، أو الذي كان جميلاً . لكنه تابع توَهُّجاته ، قارِعاً رأسي بكلماته التي لم تكن مخطئة ، تماماً :

- مأساة الكائن العربي الكئيب ، مثلكَ ، هي اعتقاده الخاطيء بأن الكآبة ، أو كآبته هو بالذات ، شأن شخصيّ بحت . وهي ، في الحقيقة ، غير ذلك . إنها من مفرزات القمع واللامساواة وانعدام الحق في التفكير والتعبير ، وغياب الحرية الجنسية والسياسية ، وسَلْب حقوقه الأخرى التي لا يمكن لنا حتى أن نعددها . وما أن تنفَّس ، حتى أضاف :

- فالحياة تفرز ما لا يحصى من الحقوق باستمرار . وكلما تعمقنا فيها ، وعشناها أكثر ، نكتشف كَمْ هي كثيرة متطلَّبات

الوجـود . وعلى الفور أوضح : أقصـد الوجـود الحق ، وليس الوجـود العربي الهائف الذي يكاد أن يكون سُجوداً .

وبعد أن رشَف قليلاً من القهوة ، أكملَ :

- المفهوم السكوني البائس للحياة العربية الخالية من التمَرُّد ، والمليئـة بالتَوَدُّد ، إذن ، هو الذي يُزيِّن لنا اللجوء إليها ، أقصـد إلى الكآبة ، حـيـث لا يسـود في هذه اللاحـيـاة إلاّ البـراءة الكاذبة ، والتوقيرالمزيّف للذات .

وبعـد أن تَلَـمَّظ قليـلاً بكلمـاته وكـأنه يتَـذَوَّق طعـمـهـا ، كـمـا يتذَوّق قهوته ، تابع :

- ونحن لا نحتاج ، في الحقيقة ، إلا إلى نقيضَيْهـا : العَمَل والغـبطة ، أو غـبطة العـمل الجـمـيل . وبعـد أن فكّر ، قليـلاً ، قـال متسائلاً بقرف : الحقيقة ؟! وتراجع ، رأساً : الحقيقة ، هي الأخرى ، يمكن أن تكون متعَصِّبة . وكأنه أحس بارتباكي ، أوضح : التمَسُّكُ بشيء اسـمـه «الحـقـيـقـة» قد يؤدي إلى التـعَنُّت والعَسْف ، إنْ لم يكن ، أحيـانـاً ، كـارثيّاً ، كـمـا قلنا ذلـك ، من قـبل ، أكثر من مرة . وبنوع من الخبث البائن ، أضاف : هل تذكر ذلك ؟ وسكتَ . لكنه عاد ، بعـد قليل ، إليَّ متـفَحِّصاً قـسماتي بعـمق مخيف ، وكـأنني كـائن من كـائنات ما قـبل التـاريخ . وبعـد أن تطلّع بصـراحـة ، هذه المرة ، في عيني ، سألني بنوع من الإستفزاز الواضح :

- ولكن ، أي غبـاء يجعـل كـائنـاً مضطرباً ، مثلك ، يتصوّر أن مصير الكون متعلّق بمصيره؟

مَأْخوذاً بعنف مـلاحظته ، وصـدمـتـهـا ، وجـدتني أبحث عن فنجـان قـهـوتي مـتـحـسِّـسـاً سطح الطاولة الصـغـيـرة كـالأعـمى في صــحــراء . لكنه أكـمل دون أن يغـيّـر من توتره ، وكــأنه يريد أن

يستـأصل مني ، نهـائيـاً ، هذا السلوك المتـجـهّم المؤذي لي ولمن يشاهدني ، فقال متسائلاً ، من جديد :

- مَنْ أنتَ حتى تُـدَمِّر بكآبتك الحـمقاء متعة هذا الصباح الجميل بباريس؟ ولماذا؟ لأنك ، فقط ، تتصوّر (وكل تصوُّر هَباء إلى أن يثبت العكس) أنك فعلتَ كذا ، وكذا! وهَزَّني من كتفي وهو يقول : ومَنْ يهْتَمُّ بكَ ، وبما فعلتَ ، وما تفعلُ ، أصلاً؟ حتى أنا ، نفسي ، اللاصق بكَ ، نسيتُ ما قُلْتَه لي عشرات المرات عن أفعالك اللامجدية والتي تعذبك ، مع ذلك ، أسوأ العذاب .

ولَـمّا بقيتُ صامداً ، وصامتاً ، كالحديد ، هزَّني بعنف ، من جديد ، وهو يأمُرُني :

- إضحكْ! يارجل .

وكأن شيئاً لَدَغَني ، أو جَرَح أعماقي ، أحسستُ بقدمَيَّ تقومان مثل أطراف مسحورة ، وتبدءان المشي بغير إذن مني . واعتذرتُ منه مُتَلَجْلجاً ، وأنا أبتعد عنه : لا تؤاخذْني ! ولم أُكمل الالفاظ الأخرى التي ابتلَعْتُها كما تبتلع الأفعى سمّها عندما لا تجد مَنْ تَلْدغه . ابتعدْتُ بهدوء مثل لص . وعلى الفور ، غمرني موج البشر الهادر في الطريق . وملأتُ صدري من الريح . وصوته الصَّلِقُ يُلاحِقُني مؤنباً : من أجلكَ جئت

-٣٠-

لستُ أدري كيف وصلتُ إلى نقطة التحيّز الواضحة ، هذه ، لنفسي . من قبل ، كنتُ شديد التضاؤل ، وهو ما قام بِرَدْم الكثير من أفعالي حَيَّة في أعماقي . فما لا يُفْعَل لا وجود له ، كما يقول . وعندما بدأ بعض ما أفكِّر فيه يرى النور ، تبَيَّنْتُ إلي أي حد كان ذلك أساسياً بالنسبة لي . كان ضرورياً من أجل أن أتابع طريقي نحو ما لا أعرف ، حتى الآن ، كيف أُسَمّيه . لكن التسمية المفقودة لا تُنْقِص من أهميته شيئاً ، مع أن «مَنْ يُسَمِّ الأشياء يَمْلُكْها» . الآن ، بدأتُ أكتشف بمتعة نواحي جديدة في سلوكي ، وتصرفاتي . ومنها ما سيغدو مُهِمّاً في حياتي الجديدة . لكن ذلك لم يأتِ من لا شيء ، كما يقولون . كان لانتقالي من موضع إلى آخر أثر كبير في مثل هذه الإنبثاقات العميقة داخل نفسي .

لم أعد أُقيم وَزْناً لكثير من«المُخْزيات» ، أو لتلك المُجْريات من الأمور التي كنت أراها كذلك ، أو كان مجتمعي القديم ، بالأحرى ، يصفها بصفة مجحفة مثل هذه . لأن مفهوم الإبتذال ، نفسه ، تَغَيَّر في عقلي . وبدا لي أنه ، هو الآخر ، مبتذل وغير أكيد . وهذا الشعور الديناميكي ، كما سأدرك لاحقاً ، سيَتغَيّرُ دائماً بتغيّر الأمكنة ، والحالات . لكن العقل السكونيّ مثل عقلي القديم ،

وبمنهجيته الشديدة الإمتثال ، كان يحسب أن مظاهر الحياة التي نعيشها وُجِدَتْ منذ البدء على الشاكلة التي عرفناها بها ، وستبقى كذلك إلى الأبد . وهذا هو تماماً معنى بؤس العقل وخُمول العاطفة .

لكأن السفر ، وحده ، كان كافياً لِيُبَدِّل الكثير من مواقفي ، ليعطيني سلوكاً جديداً ، أو لِيُوَجِّه سلوكي القديم توجيهاً آخر . وفجأة ، خطرَتْ لي فكرة هَزَّتني ، وخَلْخلَتْ توازني : أتراني تركتُ مكاني دون أن أكون راغباً في تركه ؟ تساءلتُ بنوع من الرهبة والقلق . كنتُ أخشى أن أكون أخطأْت ، أولا زلت أخشى ذلك . لكن هذا الشعور لم يكن تردداً ، ولا ندماً ، ولا خوفاً . إنه ما لا أعرف كيف أصفه ، بعد . ألهذا السبب اللامُسْتَوْعَب ، بعد أن كنتُ أنتقد وضعي القديم ، صرت أنتقد الجديد ، أيضاً؟ وهل يكفي شعور غامض ، وغير أكيد ، بأنني قد أكون أخطأتُ ، لشرح كل ذلك؟

أتساءل بإلحاح . أتساءل كثيراً . ولا جواب لديّ . وابْتَئسُ . فالخطأ لم يكن فضيلة في عرفي القديم . هل صار كذلك ، الآن؟ واكتشفُ ، بوضوح ، أنني لا زلت أحكم على أفعالي ، حتى الجديدة منها ، بعقليتي القديمة المحشوَّة باللبس والمُراءاة . ولا بد أنه اكتشف ذلك الموقف المتناقض عندي ، منذ البدء . وهو ما كان يثير الضحك والسخط لديه . إذ كثيراً ماكان يُؤنِّبُني ، قائلاً : تركب البحار ، وكأنك تركب حماراً . وبعد أن ينظر في عمق عينيَّ ، يتابع : الحمار لا ينقلك من قارة إلى أخرى . وفكرك وأنت على ظهره لا يبتعد كثيراً عن المكان الذي يرعى فيه . أما البواخر العملاقة ، ووسائل النقل الأخرى ، التي نقلتك من دمشق إلى بيروت ، ومنها

إلى مرسيليا ، ومن هذه إلى برشلونة ، ومنها إلى مدريد ، ومن مدريد إلى باريس ، وإلى أماكن أخرى كثيرة ، وسائط النقل الخارقة ، هذه ، إن لم تغيّر نظرتك إلى العالم ، وإلى نفسك ، فلا فائدة ترجى منكَ .

ويقذف العود الذي بيده فوق سطح ماء حديقة اللوكسمبورغ الساكن . فلا يبتعد العود عن مَلْقاه . ولا يتحرك بصره عني . ولا أتكلّم أنا . ويقول ، من جديد : من لا يسافر هو مثل هذا العود الراكد منذور للغرق ، اليوم ، أو غداً . ويسكت لسانه . ولا يسكتُ رأسي . أفكار كثيرة تتَردَّد فيه : ألم يكن ، ذلك ، كله مجرد وَهْم خطير؟ أم أنه يبدو لي ، الآن ، هكذا لأنني لم أصل ، بعد ، إلى النقطة التي أبحث عنها ؟ أَلَمْ أرحل بدافع البحث عن وجود مغاير للوجود الذي استهلكته هناك؟ أم . . . ؟ أتابع باستياء تَقَوُّلاتي : أم أن ثمة أسباباً عديدة لا تحصى وراء كل خطوة يخطوها الكائن؟ أم . . . ؟

تنحدر الأفكار من رأسي مثل سيول السهوب في الجزيرة . السيول التي دفَعَتْ بها لتُشَمِّر عن ساقيها الممتلئتين خائضة في الماء والوحول لتَجُرَّني من زندي ، وقد غَمَرني الفَيْض ، صغيراً . تذكَّرْتُ ذلك ، كله ، وكأنه حدث للتوّ . وعلى الفور ، استدَرْتُ على أعقابي ، وعدتُ سريعاً إليه . في طريق العودة ، كنتُ أتَشاجَر مع نفسي ، وقد شعرت بالخيبة من تصرفي المبتسر والسخيف . لأنني بسببه تركت المكان الذي قطعت نصف المدينة للوصول إليه ، هذا الصباح . تركته فقط لأنني لم أكن أرغب في أن أكون بجانبه؟

وهو ما جعلني أشعر بالإهانة العميقة لأنني اضطررتُ ، من جديد ، وقد كنتُ أحسب أنني تخلَّصتُ من ذلك إلى الأبد ،

اضطررتُ أن أترك مكاني الذي لم أكن أحب أن أتركه ، لسبب خارج عن رغبتي . هَجَّرَني ، هو الآخر؟ كنتُ أمشي بسرعة ، آملاً أن أجده جالساً في المكان . وأن أجلس إلى جواره بلا اهتمام بوجوده وكأنني لا أعرف له اسماً . أمشي محْتَدماً ، وأنا أُتَمْتِم باستياء : قسماً! لن أترك مكاني ، بعد اليوم ، إلاَّ إذا كنتُ راغباً في تَرْكه . وكنتُ أحدد المقاصد بدقة : لا لكائن ، ولا لسلطة ، ولا لفكرة ، ولا حتى لإمرأة أحبها .

كان هناك .

لكأنه يعرف أنني سأعود . يعرف أن نَفَسي قصير عندما يتعلّق الأمر بشأنٍ مصيريّ . لكنني عدتُ لشأن آخر . وهل يهمه هذا؟ منذ أن جلسْتُ ، إعْتدلَ في جلسته . وتنفَّسَ بهدوء . وأخذ يَتَمَوْضع بكثير من الإعتداد بالذات . لكأنه مضطرّ إلى تحضير نفسه لما سيقوله لي بدقة ، وبطريقة منهجية . وحسبتُ أنا أنه يفعل ذلك لئلاّ يصدم أحاسيسي المرهقة ، وقد كان عليماً بحالي . لكن انحيازي الأعمى إلى ذاتي ، والذي لا يستند إلاّ إلى الترهات التي تملأ رأسي ، سيتبدد ، فوراً ، مثل الضباب الغاشم في سُهوب «الجزيرة» عندما تشرق الشمس عليه . وسأدرك سريعاً أن ما كنتُ أفعله من قبل ، مثل خديعة الذات ، مثلاً ، أو استجداء رضى الآخرين ، لم يعد يجدي الآن شيئاً . وأن الفَصْل الذي أفرزه السَفَر لا يمكن لي تجاهله ، بعد الآن . هذا العامل النفسي والأخلاقي الذي انْبَثَق بشكل مباشر من الرحيل ، غدا ، اليوم ، ذا بُعْد مادي ملموس . إضافة إلى أنه صار محسوساً بقوة في أعماقي ، مثل جنين في أشهر الحَمْل الأخيرة . إنه ثمرة النأْي الفيزيائي عن البؤرة الأولى ، وعن تقاسيمها . وهو ، أياً كان مصدره ومداه ، أهم ما

َجَنَيْته ، إلى الآن ، من رحيلي .

ما كنتُ أفعله من قبل ، أو ما كان يثير اهتمامي ، ويسبب لي لوعة عميقة ، لم يعد ينفع ، اليوم ، لأن عالمه القديم ، أو عوامله ، لم تعد موجودة ، ولا قيمة لها وهي بعيدة . لقد انقطعت أواصر ذلك ، كله ، بالنأْي . أقصد الرغبة القديمة ، وموضوعها ، ومعاييرها . وهذا القَطْع هو أحدعوامل «التحرير الذاتي» الذي كنتُ أطمح إليه ، يوم كنتُ كالكلب ضاوِياً في مكاني . مع ذلك ، لا زلتُ ألجأ ، كثيراً ، إلى التعفف الكاذب ، والتهرُّبات . لا زلتُ جَروحاً ، غريب الأطوار . وكثيراً ما أتحَيَّر أنا نفسي من حالي ، مردداً : لماذا يبدو الواحد منا(وأقصدني) قليل الخبرة ، وبلا موهبة ، والمفروض أنه قد صار كبيراً ، وواعياً ؟ ولكن ، لا أحد يبلغ سنّ الوعي ، دون أن يخوض معركة حياته الأساسية ، كما يُؤكِّد . ويضيف ، وهو يضع نفسه في عينيَّ مسْتَقْصِياً ، وكأنه يريد أن يعرف تأثير كلماته عليَّ ، حالما يلفظها : «اللاوعي لا وجود له ، ولا تاريخ . تاريخ الكائن هو تاريخ أفعاله الواعية» . ولكن ، ما هي معركتي الأساسية ، أنا؟ ومتى أخوضها؟ أتساءل ، بنوع من اللايقين ، وأنا أضع جسدي ، حتى لا أقول فكري ، على «المَشْرَحة» .

لكأنني بعودتي التي لم تكن متوقعة إليه ، وضعتُ نفسي في خدمته . في خدمة تزَمُّته ، وتحليلاته التي يظل يدلي بها أمامي ، مؤكِّداً أنه يفعل ذلك من أجلي . وأن سبب إلْحاحه ، كمايقول ، هو شعوره العميق بأن معركتنا في الوجود واحدة . والآن ، بعد أن لَحسَ شفتيه الرقيقتين ، قال بنوع من التَوَقّي والحذر :

- أعود ، إذا سمحتَ لي ، إلى آرائي التي قلْتُها لكَ ، قبل قليل ، بشأن وضعك ، وأحوالك . وبخاصة ما يبدو عليكَ من

تجَهّم ، ومن توَتُّرات تكاد تكون لا إنسانية . والسبب ، كما أعتقد ، ليس ابتعادكَ عن «مكانكَ» الذي «هَجَرْتَه» ، كما تقول ، وهو الذي هَجَركَ ، في الحقيقة ، وإنما هو الشعور الساحِق بالذنب ، عندكَ . بذنب لم ترتكبه أنتَ . لأنك ، بتصوّري ، غير قادر ، أصلاً ، على ارتكاب فعل جذريّ كهذا . فعل يهدد توازنكَ النفسي ، ويسيء إلى ذاتكَ المستقرة . ويبدو لي أنكَ لا تُدرِك خطورة مثل هذا الاضطراب . الاضطراب الجهنمي الملازم للهَجْر . اسمعْ! وسكَتَ ، من جديد .

كنا قد تركنا جلستنا ، وبدأنا نمشي . هو يتكلّم ، وأنا أصغي إليه بطريقة مملوءة بالقلق والاحتقان ، دون أن أعلّق على حديثه . أخذنا نقطع الحديقة سائرين بين بابيها . انطلقنا من باب «السانْ ميشيل» ووصلنا إلى الباب القريب من «مونبارناس» ، وبدأنا نعود . كان السير يعطي للكلام نفحة شاعرية . وحديقة اللوكسمبورغ تغلّفه بغلالة من المودة المُسْتَتِرة . والوقت الصباحيّ فيها يوحي بتقارب كبير بيننا لا يمكن الاحساس به في أمكنة أخرى . وهي ، أيضاً ، تُطْلق الألسنة لتحكي بلا خوف . فالاشجارلا تسمع ، ولا تُفْشي سراً ، كما يقول . وقبل أن يرْتَدَّ قلبي إليّ ، أضاف ، وهو يضع وجهي ، كله ، في عينيه :

- أعرف أن ما يُعذّبكَ هو إحساسُكَ الباطنيّ العميق بأنّ ما فعلتَهُ مُلَوّث بمسْحة من الخيانة . وذلك هو الذي يثير الضحك في أعماقي ، ويجعلني أشعر بأنكَ لم تبلغ «سنّ الوعي» ، بعد . أنت لا تعرف ، إذن ، أن الكائن لا يخون ، أبداً ، مكانه . إنه يخون السلطة التي تتحكّم به . وعليه أن يخونها إذا اقتضى الأمر ذلك . وهو لا يتخلّى ، أبداً ، عن أرضه حتى وهو يغادرها ، وإنما يدير ظهره للطغمة

التي تلوّث ترابها .«الخيانة» ، بهذا المعنى ، حتى ولو بصيغة مُخَفَّفة ، فعل أكبر منكَ ، وأكاد أقول ، ومني .

ولما رآني أهتزّ لكلامه الذي فاجأني كثيراً ، تساءل وهو يفحّ في وجهي :

- خيانة مَنْ ، تلك التي تُعذِّبكَ؟ وأيّ مبدأ خنتَ؟ لكأنك لا تعرف أن «مفهوم الخيانة ، خائن أصلاً» .

بدأتُ أرفع رأسي كثيراً . أريد أن أتوارى عنه . أن أرى قمم الاشجار البعيدة التي بدأ النور يغمرها تدريجياً . أريد أن أطير فوق أسطح البنايات لأبتعد عن نفسي ، وعن وجهه الذي أصبح مخيفاً . في تلك اللحظة ، بدا لي أن العجز الانساني هو أكثر حالات الكائن تَرَدِّياً وبذاءة . فالانسان ، في هذه الحال ، لا يعجز عن مقاومة الشر ، فحسب ، بل يغدو غير قادر حتى على حماية نفسه منه . والشر ليس مبدأ أخلاقياً لا يعضُّ ، كما يُقال ، بل هو مسلك ، ومنهج للسيطرة على الكائنات . أكنتُ أُعيد ما قاله منذ أيام؟ وكأنه أراد أن ينتهي ، مرة وإلى الأبد ، من هذه الاطروحة الشريرة : أطروحة «تَجريم» الكائن الذي يُضطَرُّ إلى تغيير أوضاعه للخلاص من قهر فِعْليّ ، أومحتمل ، الكائن الذي صار اليوم ، كما يُؤكِّد ، أُلْعوبة بيد(القوة الكُلّيّة) . والقوة ، هذه ، في حالتنا ، حسب رأيه ، ما هي إلاّ السلطة العربية الحمقاء التي لا تهتم بأحد ، ولا بشيء ، إنْ لَمْ يكُنْ ، أو يصِرْ ، تابعاً لها ومصدراً من مصادر تَفوُّقها ، وتحكُّمها بالآخرين . وكأن ما يعذِّبني يصيبه في القلب ، قال بهدوء أدهَشَني :

- مشكلتكَ ليست مع الأرض ، فأنت لم تنقلها على ظهرك عندما رحلتَ . مشكلتكَ هي مع العقلية القامعة التي تسودها . مع

النسَق المعرفي البائس فيها . والتدابير الأخلاقية الأكثر بؤساً التي حُشيتَ بها ، وبخاصة تلك التي ظلّتْ تعشش ، إلى الآن ، في رأسكَ ، مع أن «مصدرها» ظلّ هناك .

وبعد أن نظر بعمق إلى أوراق الأشجار العملاقة التي انْصَبَغَتْ بألوان خريفية أخّاذَة ، ورطوبة الصباح تزيدها تَلَوُّناً ولَمعاناً ، قال بتَحَفُّز واستِثْثار :

- هكذا ، ترى أن «الرحيل الخارجي» لا يحل مشاكل الكائن الداخلية . لا يحلُّها كلها على الأقل . إنه بحاجة إلى «رحيل داخليّ» ، أيضاً . «رحيل» أصعب تحقيقاً ، وأكثر خطورة ، من الخارجيّ ، لم تقُم به أنت ، بعد ، كما يتهيّأ لي .

وقبل أن يسكت ، أضاف بحِرفية القائد المهزوم الذي يريد أن يلملم ذيول جيوشه الكلامية التي لم يكن راضياً عن إدائها ، أضاف : أَأكون واضحاً عند هذا الحد ؟ وفجأة ، توَقّف عن المشي ، بعد أن قال ذلك . توَقّف ، وأخذ ينظر التراب الذي صار يَبْحَشُهُ بقدمه اللينة مثل الغضاريف . لكأن القاع هي أمه التي يبثّها أحزانه ، ومنها يستقي الكثير من أفكاره . وتوقفتُ أنا الآخر انتظر النهاية . كانت كلماته بَلْسماً وسكاكين . كانت شيئاً يضع الواقع أزاء النور لكي يُرى على غيرما كنتُ أراه . وكان ذلك أمراً يدعو للخوف . وسأعرف ، فيما بعد ، أن الخوف هو المصدر الأساسي للتطوّر . أو هو أحد مصادره الأساسية . ولكن الخوف ممّن؟ وعلى أي شيء؟ وقبل أن أذهب بعيداً في تصوّراتي التي بدأتْ بالاكتظاظ في رأسي الصغير ، قال محتَدّاً ، هذه المرة :

- لماذا تلوم نفسك ، وتحسب أنك احتقَرْتَ ما ليس جديراً بالإحتقار؟ الأجدر بكَ أن تكون فَرِحاً وسعيداً بعد أن حسَمْتَ

أمــرك مع أولئك الـذين هَجَــرْتَهم . ألا تعــرف أنهم ، هـم ، الذين هَجَّروكَ (أعيدها ، مرة أخرى ، علَّكَ تستوعب ما أقول) . هم الذين أبعَـدوكَ بنُفـورهم منك ، وتَسَيُّـدهم عليكَ . إبحث في فطيـرتك ، وخميرتك ، عن أسباب أُخرى لِلَّوْم . لا تكن أحمق فترى إصبعكَ بدلاً من أن ترى القـمـر . وبعـد أن رَفَسَ التـراب بقـدمـه ، أضـاف محـتـدّاً : لا تُقَلِّل من شـأن ما تفـعله في الحـياة ، فـيحـذو الآخـرون حذْوَكَ ، فيحتقروه ، ويحتقروك .

اسـتـمع إليـه مـأخـوذاً . أحب ، أحـيـانـاً ، جَلْد الـذات الذي يُخَـفِّف ، أو هكذا أحـسـه ، من الأسى العـمـيق الذي يملأ نفـسي . وهاهوذا يسـحب غـشاوة التـضليل من أمام عينيَّ . صـرتُ أحسُّني كالواقف على شَفَا هاوية متأهِّباً لإلقاء نفسه فيها ، سيسعـده كثيراً مَنْعٌ غيـر منتظر من أحد العـابرين يُبعده عن الموت . لإنه سيدرك ، فيـما بعـد ، إنْ لَمْ يكنْ قد أدرك من قبل ، أن مَرارة الحياة أمْتَع من حلاوة التردي في الحضيض . وبتصميم ، غير متوقّع ، قال في تلك اللحظات الهابطة في العتمة :

– لاتحاولْ أن تُـجَـدِّد مـا اهتـرأ ، ولا أن تعـيـد السلوك القـديم ، نفسه . إمشِ .

ولما رآني مبهوتاً ، أقف حرناً دون أن أعرف كيف أتجاوب مع ما سمعتُه ، ولا كيف استجيب له ، أضاف رأفة بي ، وربما مشجِّعاً :

– لا تَخَفْ ، يارجل ! مَـنْ وصل إلـى هنا ، يمكـن أن يصل إلى أي مكـان . ودون أن ينظر إليَّ أضـاف بهـدوء آسِـر : من المؤسف أن تنتهي مغامرة الكائن عند حدود اعتباراته الذاتيه .

-٣١-

اليوم ، بعد أن سمعْتُ منه ما سمِعْتُ ، أحُسُّني بلا يقين . لكأنني لستُ الذي عاش تلك الأيام الدمشقية السود . الأيام المليئة بالوهم والإضطراب . وعندما أريد أن أحكي عن مغامرة حياتي الأساسية ، أشعر بضغينة لا عزاء لها حتى بعد أن مرت سنوات طويلة على انقضائها . لكنني لم أعد أريد أن أخبيء شيئاً ، لا عن نفسي ، ولا عن أحد آخر . وبالخصوص هو . صرتُ أشعر أن الحرية هي ، قبل كل شيء ، أن نتكلم عن أنفسنا وكأننا نتكلم عن آخرين . وحتى عن آخرين لا نكنُّ لهم مودة أو اعتبار . وهو ما سأحاول أن أفعله ، منذ الآن ، إلى أن أخلص من وثاقي القديم : وثاق الحمار الذي سيموت من الجوع جاثماً في مكانه ، يخشى الحركة خوفاً من ذئاب وهمية تعشعش في رأسه الفارغ .

قضيتُ سنوات وأنا أتهيأ لمثل هذه اللحظة ، وأحلم بها . سأحاول اليوم أن أكتشف نفسي ، وأن أكشف للآخرين أقنعتي ووجوهي . ولكن مَنْ يهمه أن يعرف مَنْ أنا؟ وما هي حقيقتي؟ أعرف أن الجواب هو : لا أحد . لكن ذلك لم يعد مهماً ، ولم يكن كذلك ، أبداً . ذلك الاحساس الفاجع بالخيبة في الحياة ، الذي كان يَرْبُط لساني ، مات . انْمحى . لكأن السيل قَشَطَه من على ظهر

قلبي . وهو ما يجعلني ، اليوم ، أشعر بأنني تحررت من «فجائعية الحقيقة» . أما الموت؟! فقد صرتُ أعرف أنه لا يصيب الكائنات فحسب ، بل يصيب ، أكثر من ذلك ، الأفكار . وكذلك العاهات ، وعلى رأسها عُقَد النقص المخيفة . ويصيب قبل كل شيء عواطفنا التي نحسب أنها خالدة . وقبل العواطف يصيب الموت الرغبة في استعادة الحياة الماضية . تلك التي ستبدو لنا ، منذ أن تسقط في الغياب ، مثل جثة لا نحلم إلا بالخلاص منها .

والآن ، لَكَمْ يبدو لي مضحكاً ذلك الاحساس العنيف بالجوع الجنسي الذي كان يدفع بي لأن أمشي عشرات الكيلومترات ، كل يوم ، من أجل أن أُهَدِّيء لواعجي واحتقاناتي . كنتُ أنيك التراب . وأول مرة ضاجعتُ فيها الرمل كان ذلك في«الجزيرة» ، عندما وَعَدَتْني ولَمْ تأْتِ . كانت الدنيا ظهراً . والسماء محتقنة بالشمس . والجو خال حتى من هبوب النسيم . وكنتُ وحيداً على ضفاف الرمل الأحمر الناعم مثل جلد فتاة غَسَلَها مطر الربيع . انتظرتُ طويلاً ، ولم تظهر . انبطَحْتُ على بطني فوق سخونة الرمل ، وطراوته . ومن لاشيء انبثق الاحساس الفاجر بالنعومة . ومن حركة إلى أخرى اشتد إيقاعي وبدأ القذف . كانت متعة لا حدود لها ، شيئاً إلهياً أعطتني الطبيعة حق التصرّف به بلا حساب . جسدي مسرح لمتعة لا عقاب عليها . وأصير أتناوله بأناملي ، حذراً ، مثل طفل وليد ، إلى أن يغفو . يومها ، لم أكن مستعداً لأن أميّز بين الشيء ومالكه ، ولا أن أعذره عندما يمنعه عني ، وبالأخص ، في حالة مثل هذه . وهو ما سيدفع بي ، فيما بعد ، إلى اللجوء إلى ذاتي كلما تعقدت الأمور . إلى «ارتكاب الحماقات» ذات الطعم اللذيذ ، مثل ماء صافية يَكْرَعُها الظمآن ، بلاحَذَر .

أحكي . ويُصْغي .

وأمام إصغائه العميق إلى ما كنت أحكيه ، وجدتني أضيف ، مُتَحَسِّراً ، وكأنني فقدت حياتي : ذلك كله مضى ! ورأيتُه ينظر إليَّ مستطْرِفاً ، ومندهشاً معاً ، وهويقول : لم أكن أعرف كل هذا من قبل . وبعد أن عرفته ، لا يغيّر ذلك من الأمر شيئاً . إنه يكشف ، على غير ما تعتقد ، عن قسوة الحياة عندما يملؤها الحرمان . ويفضح هشاشة الكائن أمام حاجاته الأولية التي قد تدفعه إلى الجنون . وبعد أن تطلّع إلى أشجار الحديقة الآخذة بالاصفرار ، وقد استبدَّ به نوع من الإهتزاز اللامرئيّ ، وكأن كيفية التعبير عن مشاعري ، وصياغتها بعاطفة صادقة ، أثار حفيظته النقدية ، قال بنوع من اللَّوْم والمحاسبة : سَقْطتُكَ هي أنك تحوّل وقائع الحياة إلى كلمات ، والكلمات إلى عواطف ، ومصير هذه هو النسْيان ، دائماً . ولئلاّ يدعني أذهب بعيداً في أفكاري ، أوضح ، قائلا : كان عليك ، لو كنتَ تملك إحساساً عميقاً بالوجود ، أقصد بأهمية وجودكَ أنتَ ، أن تحوّل وقائع حياتك إلى عواطف ، والعواطف إلى كلمات . فالكلمات ، هي ، وحدها ، التي تقاوم الموت .

وكأنه حَسِبَ أنني لم أفهم القصد ، تطلّع بتركيز في وجهي ، وهو يتابع الشرح : خذْ مثلاً . . .«ألف ليلة وليلة» ، و«الإلياذة» ، والمجاهيل الكتابية العظمى الأخرى مثل «ماهاباراتا» الهندية ، و«حرب البسوس» ، و«دون كيخوته» ، وغيرها كثير ، مما نعرف ، ومما لا نعرف . . .وتَرَيَّثَ قليلاً قبل أن يُوَجِّه سؤاله إلى«مَنْ لا أراه» : هذه الآثار الإنسانية الكبرى ، لولا الكلمات التي خَلَّدَتْها ، ما هي أهميتها بالنسبة للوجود والإنسان ؟ ولما بقيتُ صامتاً ، وحيادياً ، إلى حد كبير ، أضاف ، وكأنه مسئول عن أخلاقي ، وسلوكي : ما

يدهشني عندكَ هو الخُمود الذي يعتريكَ بلا سبب ، أو لسبب لا زلتُ أجهله . وقبل أن ألتَفِت إليه ، صحح بسرعة : لا . الاسباب لا مفر منها . لكنها ليست هي الجانب المهم في الحياة . المهم هو كيف نتصرف ، حيالها . وفيما يتعلق بكَ ، فإن استجابتك الاخلاقية والعاطفية ، وسلوكك اليومي ، وحتى طريقة لِبْسك ، متأثرة عميقاً بظاهرة الخُمود الكئيبة ، هذه . ولا أعرف كيفَ ستتخلّص منها ؟

كان الليل الباريسي الذي يلفُّ الحديقة مرعباً في جماله ، ذلك اليوم . بتأثيره أحسستُ أنني بدأتُ أذْوي على المستوى الروحي . بدأتُ أشعر أن العالم لا يمكن الامساك به . ومن العبث الركض خلفه لأنه ، ببساطة ، غير محدد المعالم ، ولا مستقر . كما أنه لا يتوقف عن التبدّل والتأفُل . وكما يقول «الحدائقي» : الواقع ليس أكثرمن«شيء» نخترعه نحن ، لنحيا ضمن معايير«جامدة» نصطنعُها من أحكامنا الذاتية التي لا نَطْمئنُّ إلاّ إليها . أحكام نُقَوْلبها حسب الحاجة ، والحالة النفسية ، والوضع الذي نحن فيه . لكن ذلك ليس سبباً كافياً لأتحمّل كل هذه المشقة! ومن أجل ماذا؟ مَن أجل اعتبارات محض فكرية لاأستطيع إلى الآن تحديد علاقتها بالوجود ، ولا تمييز آثارها في الواقع . أفكِّر . والفكر لا يحل محل الحياة ، كما يقول . ولكن ما هي الحياة ، إنْ لَمْ تكن هي ما نفكِّر فيه ، ويملأ أمعاءنا بالغثيان؟ لا بد أن أكون قد أخطأتُ . ولكن في أية نقطة؟ كدتُ أسأله ، لكنه ، فجأة ، قال : أموركَ بسيطة ، وأنت تعقِّدها كثيراً . والتعقيد ، أحيانا ، من خصائص الكذب على الذات .

وبعد أن غاب عني ، عاد إليَّ كالبرق ، وهو يقول : صحيح أن العالم العربي الذي نعايشه ، اليوم ، لا مكان للصدق فيه ، لا على المستوى الشخصي ، ولا على المستوى العام ، أو أن الأمر يكاد أن

يكون كذلك . لكن ما يزعجني أن تكون ، أنت الآخر ، مثل الآخرين ، قابلاً للإستكْذاب . وأكثر من ذلك ، لم تَفِدْ أقوالي في إخراجك من هذه الدائرة الجهنمية .

وبعد أن استقرَّتْ نظراته على البشر المنتشرين بين الأشجار التي بدأت ألوان الخريف تغزو أوراقها اللامعة ، استمر يحكي ، وكأن طاقة الإصغاء عندي لا حدود لها . قال : كل ما يُحكى ، وأكاد أقول وكل مايحدث ، في العالم العربي ، كاذب بشكل من الأشكال ، وإنْ تَطابَقَ الكثيرُ منه مع حقائق كثير من الناس ، حتى لا أقول مصالحهم . لكن العقل النقديّ ، وحده ، قد يمسك بخيط الزيف الفائق الخطورة ، هذا . وتابع ، بلا توقف : وما يفعله هذا العقل المتَشَكِّك باستمرار ، ليس عبثاً ، ولا مماحكة بلا جدوى . إنه بَحْث أساسيّ للخلاص من بلادة الحياة العربية ، وجعلها تَشُعّ متعة . قال ذلك ، واستدار مُفارِقاً .

أحسستُ أنني سأموت ولا أعرف مَنْ أنا . كنتُ واثقاً ، من ذلك ، ولو بشكل مبهم . لكنني ، في الجهة الأخرى من فكري ، كنتُ أعتقد : أن الحياة تستحقُّ كل أبنائها ، مَنْ يفهمون ، ومَنْ لا يفهمون . وأنني إذا ما أردتُ أن أُتابع الطريق التي بدأتها حتى النهاية ، فليس أمامي إلا أن أكون كما أُريد . ومن جديد ، استحضرتُ قوله : ماهيّة الكائن هي مجموع تصرفاته . يومها قال ذلك ، وكأنه يحذّرني . ولما رآني لا أحرك ساكناً في دماغي ، قال : فهمتَ ؟ وفجأة ، سكتَ ، وكأنه لم يكن يتكلّم . وأسعدني ، كثيراً ، ذلك الصمت الذي حلّ ، آنذاك . ولكن أي جدوى من كل هذا ، وهأنذا أدقُّ الباب ليفتحه لي الرجل الأسمر الغارق في تأملاته : رجل الحروب الخاسرة الذي صار بوّاباً .

-٣٢-

على غير توقع مني ، خرج من ظلال الحديقة ، وكأنه يُرابط فيها ، منذ أمد طويل ، بانتظار مروري . كنت انقطعت عن المجيء إليها ، لأسباب كثيرة ، بعضها يتعلّق به ، وبعضها بي ، وبعضها الآخر بالعالَم الذي نعيش فيه . وعلى الفور ، اعترض مسيري ، وأوقفني في مكاني ، وكأن به أمراً . كان المطر قد بدأ بالهطول ، وركضنا إلى شجرة عملاقة نحتمي بها من القَطْر . وصار يمدّ ، من آن لآخر ، هامته ليغسلها المطر اللذيذ ، مطر الخريف الباريسي الدافيء . ويَنْفض ، بعد ذلك ، رأسه كالكلب المبلول ، يميناً وشمالاً ، وهو يتمتم بسعادة : المطر عطر الوجود . لكأن المطر يُحَرِّض شهيته للحياة . أو لكأنه يرى المطر لأول مرة ، يصير يفرك برذاذه رأسه الخالي من الشعر تقريباً ، وهو يتطلّع إلى عينيّ ، ويتهيّأ ليقول لي فكرة جديدة تتَعَلّق بموضوع يهمني ، كما يزعم ، دائماً .

كنتُ أُزيح كثيراً من أفكاره المهمة بمجرد أن يلقيها عليَّ ، لأن حسن النيّة الثوريّ الذي يدعيه أخذ يسدّ الطريق أمامي . أمام عقلي الحر المتفلّت ، أو الذي كنت أريده أن يكون كذلك . لقد تحوَّلَتْ كلماته إلى وثاق متين ، يعيق حركتي . حتى أنني صرتُ أفضّل جهلي المُطْلِق على معرفة مثَبِّطة . وبدأتُ أتساءل إنْ كان

يوجد حسن نيّة بالفعل؟ وإنْ وُجِد ، هل سيكون مستقلاً عن اعتباراتنا الخاصة؟ ولأنّ ذلك لا وجود له في الحياة ، فإن كل تصرّف ، أو كلام ، مُغْرِضٌ ، أياً كان حُسْن النية الذي يتمتّع به قائله . ولكن كيف أنقل له هذا؟ وفجأة ، سألني مثل محقق يريد أن يتأكد بالإعتراف مما هو متأكد بالحَدْس منه :

- رأيتَ أمرأة البارحة ، اليوم؟

وكان يسميها امرأة البارحة لأنه رآها أول مرة معي البارحة ، مع أن تلك الرؤية تعود إلى شهور عديدة خَلَتْ .

- لا .

- بحثتَ عنها في الجهة الأخرى من الحديقة؟

- الجهة الأخرى؟ قلت متعَجِّباً!

لم أكن أجرؤ على البحث عن كائن لم ألتقِ به إلا بشكل عابر في جهات الأرض . وكيف لي أن أفعل ذلك في هذا الدغل الأخضر المليء بالبشر؟ حتى ليبدو البحث بينهم عن أحد منهم ، مضيعة للوقت ، وإرْهاقاً . في الحَماد الأصفر الذي يغطي القاع في الصحراء لم أكن بحاجة إلى بحث لأرى مَنْ ، ومَا ، أريد . كان يكفي أن أُطْلِق إبْصاري بعيداً ، أن أرسله مع أشعة الشمس ، لأرى ما أبحث عنه . لكنه لم يكن يعبأ بما يملأ رأسي من أفانين . وهو أحياناً ، يتصرف وكأنما لديه الحق في نقض كل شيء ، حتى ما أعتَبِره ، أنا ، بديهياً ، وغير قابل للجدال .

وفجأة ، صار يَتَدَغْبَل على نفسه ، ويَتَداخَل ، وكأنه يتهيّأ للقفز في الفراغ . وكنتُ أعرف تماماً ما تريد أن تُنْبيء عنه تلك الحركة المستعصية على التقليد . إذْ كثيراً ما قام بها ونحن معاً ، وفي مثل هذا الوقت من النهار . وآخر مرة كانت ، تماماً ، قبل عدة

أسابيع من الآن . لكنني بقيتُ ثابتاً في مشاعري ، وكأنني أُصبْتُ بالعمى . وأحسسته يهزُّني من كتفي وكأنه يريد أن يَمْلَخني . وقبل أن أستعيد نَفْسي منه ، صار يهمس (وهو لصقي) لنفسه بكلمات حرص على ألا أسمع منها شيئاً . لكأنها خُلِقَتْ خصيصاً له . «والكلمات مشاع» ، كما يقول . لم يكن يخطر لي أنه سيكون أول من يخون ما يدعو له ، وإليه . ولم أفهم سبب ذلك التخابؤ المفاجيء خلف عبارات غامضة . كنتُ سأحس بالسعادة ، ربما ، لو تكلم بها بصوت عالٍ حتى ولو تعلّق الأمر بنقد مجحف بحقي ، مثلاً . صرتُ أعرف كيف أمر بين الكلمات دون أن أتلَوّث بها .

صار الخَلْط الواضح بين المرئي والمحتمل رؤيته ، عندي ، يجعل الفكر قصير المدى وسريع التهاويل . صرتُ مأخوذاً بالحركة السرية للأشياء ، وهو ما جعلني أغض الطرف عن حركته العُصابية سريعاً ، وأرحل في مخيلتي إلى آفاق أخرى . حتى أنني لم أرَ الأنوار البيض التي بدأت تُنير الحديقة ، أو كدتُ ألاّ أراها . في باريس كما لا حظتُ يشعلون الأنوار قبل غياب الشمس ، وكأنهم يخافون وقوع الظلام عليهم . وفي دمشق كنتُ أمشي مسافات طويلة كل مساء قبل أن ألْقى الضوء الناكس إلى الأرض في نهاية الطريق . كان مدخل كوخي في المزة ، الواقع بين أشجار عظمى ، وبين أكوام من الخشب العتيق والتراب القديم ، يملأ نفسي بالخوف عندما أعود إليه مساء . وقبل أن يرتد قلبي إليَّ ، وكان قد بدأ يرتجف بمجرد استعادة درب المزة القديم ، قال ، لمّا طال صمتي ، ونَفَذ صبره ، أو كاد ، قال وبه امتعاض كبير :

– أعرف أنكَ تريد أن تولِّد الأحداث من الصمت ، لكنها لاتولَد إلا من الحياة . والحياة الخاملة لا أحداث فيها ، ولا براعات .

أنها زمن فارغ، لكنه يأكل العمر، أيضاً . والكائن الواعي هو الذي لا يقف على عتبة الوجود متفرجاً، وإنما يلجه بقوة، شاقّاً إياه مثل قضيب الحصان . لا تكن أحمق فتعتقد أنك حققتَ كل شيء بمجرد انتقالك من مكان إلى مكان آخر . الوجود هنا وهناك واحد، وامكانية تطويره لا تكمن إلا في تغييره . فهمتَ؟

لم أفهم شيئاً . كانت الأوضاع، والكلمات، تتخالط في رأسي مثل حبوب القمح والزُؤان . ومجرد محاولة فصل بعضها عن بعضها الآخر، تبدو نوعاً من قتل الحياة بإبادة وقت أساسي منها في عمل غير أساسيّ . هذا ما كنتُ أفكر فيه . ولكن، هل سنصل إلى حيث نريد دون عملية الفصل هذه؟ وهل لا بد من حل بأي شكل من الأشكال؟ وكأنه أراد أن يغيّر الموضوع، بادرني بابتسامة خارقة، أراها، لأول مرة، ترتسم على وجهه . لكنني لم أعد الصبي الذي كان يرضى بابتسامة . تعلَّمْتُ، أنا الآخر، سراب المخادعة، وأفانين السلوك . وعلى أية حال كانت ابتسامته لا تُفَسَّر، فازدَدْتُ صمتاً على صمت، كحجر الصوّان . ورحتُ أنتظر .

كنتُ، غالباً، ما أشحذ فكري لمتابعته، ولربط ما يقوله اليوم بما قاله البارحة، وأحياناً منذ شهور، دون أن يشكل ذلك عبئاً عليَّ . لقد صار رأسي مثل دفتر يخصه . يكتب عليه بلسانه ما شاء من الكلمات . وهو لم يكن يفكر، ولا بد، أن ذلك سيعطيني، ذات يوم، دَفْعاً قويّاً إلى الأمام . سيأخذني إلى جهة، ويرميه في جهة أخرى . في خضم تلك الإلتباسات بدأتُ أدرك، بوضوح، أن ذلك كله لا يجدي . لماذا؟ لأن «الموضوع»، أي موضوع، يحمل فهمه في بُنْيَته . ويكفي للإلْمام به أن يثير«شَـهيَّتنا» .

أمور كثيرة، أخرى، بدأت تتجلّى لي في تلك الحديقة المحفوفة

بالأساطير . فيها ، بدا لي أن السفر يمكن أن يكون عاملَ خلاص أكيد من خطر الأوضاع ، إنْ لمْ يكن مصدر وعي إنساني عميق ، مع أننا لم نكن نتوقع ذلك بمجرد الإنتقال من مكان إلى مكان آخر . لكنه أكثر من مرة قال لي معارضاً هذه الفكرة «الشديدة البساطة» كما وصفها ، مؤكِّداً ، بنوع من الإنزعاج ، وكأنه ينبِّهني إلى خطورة الألاعيب اللفظية : تَبديل المكان ، وحده ، لا يكفي !

و اليوم ، بعد أن استقر في هيئته المعتادة ، أخرج يده من جيب سترته ، ووضعها أما أنفه ، وتابع : سأعيد ، إذن . سأكرر بالأحرى . مع أنني واثق (على العكس من المثل الغبي) أن «التكرار لا يعلّم الحمار» ، وإلا لوجدت الأنسانية حلولًا لمشاكلها بأبخس الأثمان ، وأسهل الطرق . قال ذلك ، وسكت . وبعد قليل ، تابع شُروحه : السفر هو دائماً نهاية لمرحلة استوعبناها ، وقطعنا الأمل من أي جدوى منها . وهو ، من هذه الزاوية ، بداية لمرحلة جديدة صرنا فيها متأهِّبين لتلقّي صُوَر العالم الاخرى . صرنا قادرين على رؤية الفروق الانسانية ، وجديرين بتمييزها . وفي صمتي العميق كنتُ أُردد : وهل قلتُ أنا غير ذلك ؟

كنتُ أحلم ، ببساطة ، بأشياء جديدة لا علاقة لها بما كنت أبحث عنه في لقاءاتنا المشتركة ، سابقاً (من أين خرجت هذه؟) . وكان ذلك الحلم الصامت يتسم بالنسبة لي بكثير من الغبطة والشغف . لكنه كان يرى الأمر على نحو آخر . كان يخاف من الفشل الذي علمني هو ، نفسُه ، أنه لا شيء أكثر من صيغة فارغة ، إلا إذا أردنا نحن الفاشلين أن نملأها بوقائع حياتنا التي لا توصيف لها . ولأنه ظل ثابتاً في مكانه الفَوْقيّ ، عاد يبحث ، مرة أخرى ، عن تبرير قديم لمشكلة جديدة . فقال دون أدنى اعتبار

لمسارنا الذي أصبح عِنَبه خَمْراً :

- تراكم الغباء التاريخي ، كما هي الحال في العالم العربيّ اليوم ، ينتج ذكاء غير مجد . أقصد غير محرِّر .

وبعد أن شَفَّ الريح كَما يَشُفُّ الظامىء عَبَق الماء ، تطلّع في عينيَّ ، وكأنه يَقول لي في سرّه : هذه هي حالك ، ياصديقي . قال :

- ومن علامات هذه الحال الصمتُ .

وقبل أن استعيد نفسي من الدهشة ، أضاف بتصميم :

- ومَنْ يُصَبْ بهذا الداء (أقصد الغباء) وهو لعلمكَ شديد العدوى ، يحس رأسه محشوّاً بالبَراعة والأمازيج . وإحساس الإمتلاء الكاذب ، هذا ، هو الاعلان الصارخ عن الابتذال . وعلى الفور أضاف :

- ولا تنْسَ أن البلادة تعني ، بالنسبة إلينا : فقدان المتعة في الحياة . إنها الموت الحقيقي للكائن .

ولما رآني صامدًا في مشاعري ، دون أي إحساس بالفجيعة (كما كانت حالي من قبل) ، تابع متسائلاً :

- وهل يدهشك هذا ، وأنت على رأس القوم؟ وبعد أن تراقَص أنفه المائل في وجهه ، قال ، وبه تشنُّج غريب : وأنا نفسي لا أشذ عن القاعدة العربية ، هذه ، ولا أنجو منها .

تركته بطريقة دراماتيكية . تركته بهذه الطريقة لأن التفاعلات التي بدأت تتخلّق في نفسي لم يعد احتمالها ممكناً . تركته ، وعدتُ إليه . عدتُ بعد أسابيع قليلة خالياً من كل ضغينة . لكأن الزمن الذي مرّ ، رغم قصره ، كان كافياً لترميم كل كل شيء . فالزمن ممحاة الوجود العظمى . يَكْنُس الفاسِد من حياتنا ، والطيِّب كذلك . سريعاً ، انتابني شعور عميق بالندم لأنني رجَعْتُ (نفس

الشعور الذي انتابَني مرة أولى من قبل) . وعلى الفور ، كَتمْتُ هذا الشعور المُعَذِّب في أعماقي المحترقة ، وأنا أفكِّر : الندم لا ينفع ، وإنما يضر . لأن الغاية منه ليس إضاءة دَرْب الحياة المعتم ، وإنما ربطنا بالماضي الذي لم نعد نستطيع استحضاره ، ولا التكفيرعمّا ارتكبْناه فيه من أخطاء (إنْ كان ثمة أخطاء في الوجود) . وأُتابع في رأسي الذي سَكَن من شدة الجُمود : إنه محاولة عبثية لِلّحاق بالحياة التي ولّتْ . وأنا أقول ذلك ، أو أقترب من تلك المنطقة الحرام ، أعرف أنني أكذب . أو أُزاوِدُ على مشاعري إذا أردنا الدقة . لأن نَفْي المشاعر المستقِرَّة في أعماقنا ، هكذا ، بمجرد التَلَفُّظ ببعض الكلمات ، هو ضَرْب من التَفْتيت المتعَمَّد لجوهر الكائن . لكننا عندما نقفز في الفراغ سنتَشَبَّث ، أحياناً ، بأوهى ما يقع بين أيدينا من أجل ألاّ نهوي في العدم . أعرف أنني أكذب عندما أقول ذلك؟ بلى! لكنني ، أحب أن أقوله ، حتى ولو كذباً .

جلستُ صامتاً كالمُرْتَكِب ذنباً ، عندما وصلتُ . وتَمَلْمَلَ هو في مقعده المصنوع من خشب عتيق مدهون بالأحمر الوردي اللامع . جلستُ مضطرباً ، وتهيّأ هو لاستقبالي ، لكنه ظل قاعداً . لكأنه قرأ كل شيء على جلد وجهي ، وهو ينظر إليَّ بخبث ، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه . على كل وجهه . لم يكن يبتسم ، من قبل ، إلا من أطراف شفتيه المَلْحوستين كأطراف صحن من التوتياء العتيق . وهذه المرة ، توَرَّد خدّاه ، وكأنهما يتمَرَّدان عليه ، على تحكُّمه الطاغي بمشاعره . أخافني ذلك ، وأذهلَني . وهو ما سيجعلني متأكداً ، منذ تلك اللحظة ، بأن الانسان : قوام ، وكلام . وما عدا ذلك ، لاشيء . كيف عرفتُ ذلك؟ قرأتُه على سحنته الشيطانية التي توَلاّني بها ، وكأنه يُشرِّح رأسي .

تهيّأتُ لأقول شيئاً . لكن الصمت ، مرة أخرى ، غلب الكلام . أرْبَكَتْني النظرة التي كانتْ تَتلامع في مقلتيه ، وكأنه يَبْحَث في عيني عن الذرائع التي أعادتني إلى جواره . ورأيته يغيِّر على الفور من توَهُّجاته ، وكأنه عرف ما يمر في نفسي من الإنفعال الذي يسري في دمي .

برجوعي ، تَفَتَّحتْ بئر مَدْمومة في أعماقي . لكأنني كنتُ أعمى ، وفجأة أبْصَرْتُ . ولكي أُداري ما اعتراني من لَبْس ، أو لأُمَوِّه بعض مساويء الردَّة التي أعادتْني شُبْه مُكَبَّل إليه ، جعلتُ أنظر إلى قدميَّ الساقطتين على أرض المقهى الباردة ، وأَنُودُ مثل مَنْ يُغالِب نُعاساً لا يُقاوَم . ولكن كيف أشرح له الأمر؟ وأي أمر أريد أن أشرحه له؟ وهل يمكن لي أن أقنعه بما أنا غير مقتنع به؟ لم أقل شيئاً . كنتُ أنتظر هجومه عليَّ من جهة القلب ، فجاء من جهة لم أكن على استعداد لها . وسأدرك ، فيما بعد ، أن «الغفلة التاريخية» هي السمة الأساسية عند بُلَداء الذهن ، وخاملي الفكر ، من أمثالي . أولئك الذين يرتضون أن تكون حياتهم صورة سلبية عن حياة العالم الذي يعيشون فيه . العالم الذي لم يدركوا من خصوصيته ، وتعقيده ، شيئاً . وقبل أن يَرْتَدّ قلبي إليَّ ، قال بحياد أذهلني :

– لماذا تفعل الشيء بعد فوات أوانه؟

وانتظَرَ عبثاً جوابي الذي لم يجِئْه . فكرر سؤاله بشكل أكثر مباشرة :

– لماذا عدتَ؟ ألا تعرف أن العودة اعتراف بأنك قمتَ بما لا يجب أن تقوم به؟ كان الأجدر بكَ أن تقاوم مشاعر التردد والشعور الساحق بالذنب لديكَ . وأن تقاوم إحساسك العاتي بأنك أسأْتَ إليَّ .

وبعد أن تملاّني ، بنوع من التَعَمُّق والإستئثار ، تابع بهدوء :

- لا تغْتَم! أنت لا تعرف كيف تسيء إلى أحد . الإساءة إلى الآخرين موقف تاريخيّ منهم يضعنا في مواجهتهم كلياً . ويتطلّب منا شجاعة لا حدَّ لها . وبخاصة ، عندما يتَهيّأ لنا أننا لن نلتقي معهم على شيء في الحياة ، من بعد . ونحن نعرف اليوم أن تلك كذبة تاريخية بحجم البشرية التي آمَنَتْ بها .

أدهشني كلامه الغريب المتعلِّق بما لم أكن على بيّنة منه . لقد أخطأ كثيراً بحقي ، وهو ما جعلني أُعيد النظر بكثير من الإعتبارت التي كَوَّنْتها عنه . ما قرأته على وجهه لم يكن حقاً ، إذن؟ وما قرأه هو على وجهي ، أيضاً؟ عدتُ لأنني أريد أن أقول له : هذه آخر مرة نلتقي فيها . لكن تفسيره الخاص لفعلي الشخصي الذي لم يفعله هو ، خَلْخَل توازني . كنتُ أحاول أن أبحث عن خصوصية لي ، وكان هو يريد أن يقول لي شيئاً آخر ، لم أكن معنياً به أكثر من أي أحد آخر غيري . وهو ما جرحني بعمق . لأن التعميم أسوأ من التخصيص . وقبل أن أقول ما أُفكِّر فيه ، تابع بهدوء :

- أحسستُ أنكَ ندمتَ عندما قمتَ ، فجأة . لكن ، لكَ أن تعرف : أن النَدَم لا يأتي من الفعل ، حتى ولو كان خطيراً ، وإنما من عدم الفعل . من حالة العطالة الإنسانية التي تلتهم وجود الكائن مثل بقرة جائعة تلتهم التبن الناشف . والندم يقع في هذه الخانة أيضاً : خانة العطالة الذهنية المربكة . فتجنَّبْه .

ولما رآني مضطرباً من عدم فهمي لما يقول بالرغم من اهتمامي به ، أضاف بحدة ، وكأنه يريد أن يلفِتَ انتباهي إلى خطورة الوضع :

- الكائن كالسيف . ولا يستحي السيف عندما يقطع ، كما يقول«جلال الدين الرومي» . وأنتَ لا زلتَ تتَردَّد في صمتكَ ، وفي

كلامكَ . لكأن الإحجام ، كله ، انْصَبَّ في قلبكَ . فكِّرْ فيما أقول . وتجاوَزْ هذه الحالة المقيتة .

وكأنما غمره فيض من الغبطة المفاجئة ، قال بصدق أذهلني : لا تَزْعَلْ مني . أزعل منكَ ؟ قلتُ في قلبي صامتاً ، وأنا أتجنَّب النظر إلى عينه . وفي النهاية ، أنا لم أترك « قبري القديم» الذي بُنى لي ، من أجل قبر جديد ، أقيمه هنا ، بيديَّ . فليقُلْ ما يشاء . لقد تجاوزتُ فكرياً ، إن لم يكن سلوكياً ، بعد ، حالة التلاعب بالعواطف ، وتهييج الذات الفارغ . وكما قال أحد الحكماء : ما أفعله يدلُّني على ما أبحث عنه . هذا الأمل المُبْهَم بلقاء ما أتمنى الإلتقاء به يكفي لكي يجعلني أتَحَمّل بالصبر إلى أن يحين الحين ، كما يقولون . لم يدَعْني استمر طويلاً في تصوُّراتي فقال بنوع من الأخوة والمواساة ، هذه المرة :

- لا زلتُ آمل ، بدأ يحكي بصوت خافت وكأنه يُشاورني ، أن تتحوّل الفكرة عندكَ إلى كلمات ، والكلمات إلى فعل . وأتمنى لك ، أضاف ، ألا تكون خائفاً باستمرار من نتائج معارككَ الشخصية ، حتى ولو لم تربحها . فالمعركة الخاسرة التي يخوضها الكائن لا تكون خاسرة ، دوماً . ولا أهمية لها إلا إذا أرتضى هو بنتائجها دون أن . . . وسكتَ ، قبل أن يقول ، وهو يتهيّأ للذهاب : أنا لا أحب إلا المهزومين عندما ينتصرون .

-٣٣-

بقيتُ وحيداً . أنظر حولي بلامبالاة . لم يعد من المجدي أن أقول إن الأمور بدأت تختلط في رأسي ، من جديد ، فقد اختلطَتْ بما فيه الكفاية ، من قبل . لم أعد أحب أن أُميّز شيئاً من شيء . كانت كلماته المملوءة بالعدائية كافية لتجعلني أنفر حتى من ذكرياتي . ومنذ أن خرج أختفى ، وكأن القاع بَلَعَتْه . لا! رأيته يَخْتُل خلف الشجرة الوحيدة القابعة في الساحة الصغيرة . لكأنه يريد أن يعرف ما سأفعل بعد رحيله . وعلى الفور ، أدرت رأسي إلى الجهة الأخرى ، وكأنه حَرَّم عليَّ النظر إلى فضاء الشارع الجميل . ساءني إصراره اللامفهوم على الوقوف مُتَخافِياً في نفس المكان ، وكأن مسامير الصَلْب دُقَّتْ في قدميه . وما إن ابتعدت عن الفضاء الذي كان يقف فيه ، حتى اختفَتْ هيئته من عينيّ . ومن جديد ، عدتُ أنظر في الفراغ الرمادي الذي بدأ يبتلع المدينة كالبحر ، دون أن أراه . دون أن أبحث عن زَوْله ، بالأحرى .

كنت لا أدرك ، بعد ، جوهر تلك العلاقة الآسرة والغامضة التي كانت تربطني به . حزَّ ذلك في نفسي كثيراً . وقررتُ أن أنظرحيثما أشاء . شوارع «باريس» المحيطة بالمقهى هي التي استوْلَتْ بشكل كامل على بصري وبصيرتي ، آنذاك . وبدا العالم خارج

المقهى محفوفاً بالغمام : غمام الذات النافرة التي لا تريد أن تمتزج مع الاخرين . ولكن ، لِمَ يقف هذا الكائن الغريب كالأبله مُحَمْلِقاً في وجهي؟! أعدت النظر فيه ، وأنا أستخْرِجُ من ذاكرتي صورة مَنْ أرى . لكنه ظل واقفاً أمامي خلف الزجاج النظيف ، متحفِّزاً مثل جرْوٍ صغير رأى كلباً كبيراً وأراد أن ينهشه ، دون أن يجرؤ على فعل ذلكً . اللعنة! لم أكد أتعرّف عليه ، وقد تركته قبل . . . قبل . . .متى تركته؟ ووجدتني أصيح عليه بنشوة غامرة : محمد! أدخل أرجوك . إلا أن «محمد خياط» ظل واقفاً ، يحدّق بعمق في الكآبة التي كانت ترتسم ، ولا بد ، على سحنتي . ولَمْ يتحرَّك . وعندما تناظَرْنا ، من جديد ، ابتسم بمودة وكأنه يعتذر عن الدخول . صرتُ أدُقُّ أرضية المقهى بقدميَّ ، وأنا أشير إليه برأسي ، ويديَّ ، سعيداً بِلقاء لامنتَظَر مع أحد آخر ، دون اهتمام بالجالسين : أُدْخُلْ! أُدْخُلْ! أرجوكً . فدخل ، تحت إلحاحي المستميت .

منذ أن دخل بدأ يحكي . يحكي بمسرة ، وكأنه يَفْرَحُ بالكلمات . أو يستَمْتع بخروجها من بين شفتَيْه . أحسستُه حراً بشكل عميق . لا قَيْدَ على لسانه . لكن قلبه مفْعَم بالتشوُّش والإرهاق . للبؤس أحياناً طعم الموت ! كما صرتُ أعرف . وعندما تكتسحنا الحياة بضراوتها ، لا يحمينا من الإنهيار سوى الإلْتِجاء إلى مَنْ نحبهم (حتى ولو كانوا لا يحبوننا) ، أولئك الذين سيكونون مستعدين للإصغاء إلى حماقاتنا . برفقتهم ، تصير مشاعرنا تنصبُّ صباً لا سُدَّ يوقفها ، ولا رقيب على حديثنا معهم ، حيث لمْ يَبْقَ لنا من كَيْنونتنا الأولى سوى العلاقات الغابرة ، أو ما كنا نعتقده كذلك ، والتي قد تدوم العُمْرَ ، كله . وعلى خلاف الآخر المحشوّ بالتوتّر والأفكار ، بدا «الخياط» بلا وَهْم . بدا وَفيّاً

لنفسه ، ولي ، كما تصوّرتُ أنا في تلك اللحظة . فَصِرْتُ أُرحِّب به بقوة ، وكأنه هبط عليَّ من السماء .

لم يكن لديَّ ما أقوله . اكتفيت بالإستماع إليه وهو يتحدث بأريحية ، فاجَأَتْني :

- رأيتُكَ ، يارجل ، وخِفتُ . قال محمد خياط .

كدتُ أفقد لَثْغَة صوته في ضجة المقهى المليء بالناس . لكنه صار يتكلم بصوت أعلى :

- مَنْ هو الذي كان جالساً معكَ قبل قليل ؟ سأل متعجِّباً .

وقبل أن أجيب تابع :

- كنتُ أراكَ تَحْمَرُّ ، وتخْضَرُّ ، وكأنه يحقنك بالسمّ . خفتُ عليكَ . لكنني اكتفيتُ بالتفرّج ، من بعيد ، حتى لا تراني فتفسد الأمور ويصبح اللقاء بلاجدوى . وقررت أن أبقى خارجاً إلى أن يذهب لأراك .

شكرته على عاطفته التي كنت واثقاً من صدقها . وقلت بنوع من الحيادية الكاذبة :

- صديق قديم .

- لا! لا يمكن أن يكون صديقاً قديماً . قال .

- نعم؟

- أنا أعرف إلى حد ما جو الأصدقاء القدامى عندما يلتقون . وما رأيته لا ينطبق على ما أعرف . ولقد تألمت كثيراً . قال .

- لماذا؟

سألته بنوع من الغباء الذي فاجأني أنا نفسي .

- لأن الحياة ليست كريمة معنا إلى الحد الذي تمنحنا فيه متعة لقاء جميل ، يارجل . قال .

وبعد أن تنفس بهدوء، وتَنَظَّر حوله، ورفع كتفيه، قليلاً، وشمخ برأسه حتى يصير على المستوى المطلوب، قال:

- هل تذكر «الأسْوَد»؟

ولم ينتظر إجابتي، فتابع:

- «الكاميروني» الذي يشتغل «سائساً» لخيل الشرطة في المركز القريب من فوجيرارد، حيث كنا نسكن.

كدتُ أقول: طبعاً. لكنه تابع:

- أظن أنه لم يكن «سائسًا» للخيل، ولا شيء من هذا القبيل، وإنما هو ينظف الاصطبل فقط. ومهما يكن الأمر، فإنه رجل ممتع ومريح.

وبعد أن تنفَّس بعمق، أكمل:

- ياأخي! استمر يحكي وهو ينظر الفضاء البعيد بعينيه الخضروارين الشاسعتين، يا أخي! عندما تلتقي به تحس أن أهلك كلهم حضروا. وأنتَ بالنسبة لي مثله، عندما أراك أحس أنني صرت سعيداً. أما هذا الذي كنتَ معه قبل قليل...

ولم يكمل الكلام. لكأن ما كان يجول في خاطره أكبر من الكلمات. وأشنع مما يتصوّر. وبالخصوص، مما يمكن لي، أنا، تصوّره عن كائن أُقَدِّمه له كصديق قديم. هو يعرف، إذن، أنني أكذب. وبعد أن تملّى الإنطباع الغائم الذي كان يرتسم على سحنتي، قال:

- هل تشرح لي هذه المسألة؟

كان يحب الشروحات المعقدة والغريبة لأنه يكتشف، كما أعتقد، طاقة اللغة على نقل أشياء كثيرة لا يفكر الكائن فيها قبل أن تُقال. وعندما نقولها نشعر أن الحياة أصبحت أكثر وضوحاً، مع أنها تزداد، في الواقع، عُتْمة. لم أقل شيئاً. سكتَ، هو الآخر،

وكأنه يعيد النظر فيما قال وقلتُ ، دون أن يبرح فكره المكان . كان يحس بظمأ إلى اكتشاف شيء يعتقد أنني أُخبِّئه عنه . من جهتي ، لم أكن مضطراً لكشف أوراقي أمامه . بقيتُ صامتاً . وراح يتكلّم ، من جديد :

- يارجل! تركنا أهلنا وبلداننا لنتنَفَّس . لنقابل مَنْ نحب أن نقابلهم . ونتكلم مع من يريحنا كلامه . ولكي نتصَرَّف دون ملامة أو خوف .

ومن جديد سكتَ . لكأنه يحاول أن يجمع أكبر قدر ممكن من الأفكار والكلمات . لكأنه كان ظامئاً للحديث وهو يريد الآن أن يستمتع بالكلام ، على راحته . لقد بدا لي كالصائم الذي يفطر ، فلا يريد أن يملأ بطنه دفعة واحدة بالطعام ، بل أن يتذَوَّقه على مهل ، طيلة الليل . إذْ تابع الحديث بنوع من التوتر الخفيّ والإلحاح :

- ومَنْ لا يريحنا لقاؤه فإلى الجحيم . قال .

وبعد أن نظر في عينيَّ بإمعان ، شرح لي كينونته ، كما يحب أن يسمّي أفكاره ، أحياناً ، إمعاناً منه بإجْلالها :

- يا رجل! ابتعدنا عن أعين أهلنا لنرى بعيوننا دون وسيط أو إكراه . أم أنني . .؟

وبعد أن سكت قليلاً ، حاول أن يستعيد الكلام ، ولكن بطريقة أكثرصراحة وتحديداً ، وكذلك أكثر لطفاً ، فقال :

- أقصد دون معلمين ، أو متَعَلِّمين . أوَلَسْنا كلنا سواء؟(كان مسكوناً بفكرة المساواة التي استوعبها هنا بقوة ، مثل أي واحد منا . وربما كان هو أكثرنا تشبثاً بها) أم أنني على خطأ؟ أضاف بعد فترة قصيرة من الصمت ، وكأنه يحاول أن يكون منطقياً . واعتذر على الفور : في الحقيقة (كان يحب أن يستعمل كلمة الحقيقة كثيراً

حتى عندما لا تكون الحقيقة في جانبه) قد أكون أنا المخطيء .

- لا! قلتُ ، ولم أزدْ .

وعَقَّب على كلامي بزَهْو :

- أنظر إليَّ . أنا خيّاط بتعليم قليل ، وأنا سعيد بما أعمل . زملائي في العمل يحترمونني . وأمي فخورة بي . و . . .وسَكَتَ . وبعد قليل ، قال ، دون سبب كما بدا لي . لكن الأسباب لا يعرفها السامع ، وإنما المتكلّم :

- لا أحب الذي كان معكَ . أحسّ أنه يعذّبكَ بلا حَقّ .

- يعذبني؟

- بلى!

وابتسم ابتسامة «جاك بالانس» الشهيرة التي كان يتباهى بها . بقيتُ صامتاً . بي رغبة عميقة للبكاء . للبكاء بين يديه . ولكن كيف أشرح له الأمر؟ بدأ خاطري يتكدَّر ، أنا الآخر . كنتُ سعيدًا بوجوده بالقرب مني . ولكن إلى متى سيصمد هذا الشعور؟ بعد سنوات ، عندما سألتقيته صدفة ، وقد صار متشرداً (بالفرنسية : صانْ دوميسيلْ فيكْسْ ، أو مامعناه : بلا سَكَن ثابت) ، سأُحاولُ ، عبثاً ، أن أستعيد معه اللحظات القديمة الرائعة برغم قسوتها ، لأنه ، يومها ، لم يكن على ما يرام . كان جائعاً وبائساً ومَهْملاً . والكائن الجائع ، مثله ، أو في حالته تلك ، لا يفكّر كما يفكِّر الآخرون ، وبالخصوص يفقد طاقة المرح ، ويكره المتعة . أما الآن ، فقد كنتُ سعيداً بوجوده الخفيف ، وبكلامه العفويّ ، وبتصوّراته الصادقة . فليحْكِ .

كانت الأنوار في الخارج رقيقة وجميلة ، والعتمة في نفسي كاملة (دون أن أفصح له عن شعوري) . الناس المتجمهرون خارج

المقهى يقفون بهدوء وصمت «وكأن على رؤوسهم الطير» . كدتُ أضحك من هذه العبارة الغريبة . وهي لغرابتها توحي فعلاً بالدهشة . تصوّرْتُ فوق رأس كل منهم طيراً يشبهه (والطيور على أشكالها تقع ، كما يقولون) صقر ، أو غراب ، أو لقلق كبير ، أو حجل ، أو سُمّان ، أو قطاة ، أو حَدَأة . . .مثلاً . ابتسمتُ بصمت ، وأنا أضع على رأس كل منهم الطير الذي يشبهه . وأحس «محمد خياط» بهذه الابتسامة المغرضة ، فلقَطَ طرف الخيط الذي انقطع للحظات ، وصار يضحك بصوت واضح وهو يتدفّق عاطفة . وفجأة سألني سؤالاً بدا لي مُريباً ، ومثيراً للاستغْراب ، لأنني كنت أحسب أن كل ما فعلته أنا معروف لديه :

– أنت هنا منذ زمن طويل؟

– نعم .

وحل الصمت .

الصمت متضمَّن في السؤال اللامجدي ، وفي اللارغبة بالكلام . لماذا الجهد العبثي ، إذاً؟ فكَّرْتُ . كنت أتمنى أن يتابع الكلام ، من جديد ، وأن أظل أنا صامتاً . أن يحكي لي عن كل شيء . عن صديق الحديقة الغريب الأطوار والأفكار . وعنه هو نفسه . وعني أنا أيضاً . وبالخصوص عني . لأني بدأْتُ أشعر بأنني أفقد ، تدريجيّاً ، نُقاط ارتكازي القديمة . ولم أعد أعرف حتى الجهات . لكنني لم أكن مضطرباً ، ولا مُشوَّشاً ، أو هذا ما كنت أعتقده . ألهذا لجأتُ اليوم في حضوره إلى الصمت ، أكثر مماكنتُ أفعل في الأيام الأخرى؟ أم أن «صديق الحديقة» امتَصَّ طاقة الكلام عندي ، وقد اختفى ، قبل أن أردّ عليه .

كنتُ بحاجة إلى هذا النهار . بحاجة إلى أحد آخر غير«صديق

الحديقة» المتوتّر على الدوام . لم أكن أكره التوتر ، لكنني تعبتُ منه . صرْتُ أحسني مثل جزَّة صوف منقوعة في ماء ساخن . امتلأتُ بَلَلاً دون أن أرتوي . أما هو فلم يكن يأبه بأي شيء خارج السياق الثوري الذي يدعيه . ولقد عرف ، بالتأكيد ، أنني أتجاوب كثيراً مع هذا السياق النظري المدهش الذي يجعل الأشياء تبدو وكأنها بلغت نهاياتها ، ولم يبقَ أمامها إلاّ أن تحدث ، بشكل آخر . أليس ذلك مغرياً؟ لكنني في أعماقي كنت أجد ذلك غريباً ، ولامنطقياً حتى . لماذا؟ لأنني كنت أتصوّر (رغم ضآلة علمي بالموضوع ، وحداثة عهدي به ، وربما لهذه الأسباب بالتحديد) أن سلسة أقواله الثورية ينقصها «شيء آخر» لا استطيع الإلمام به ، ولم يشرحه أحد لي ، إلى الآن . كنتُ أتصنّع التجاوب والفهم ، ولم يكن ذلك يزعجه ، لكنه يقتلني غمّاً . وعندما تَلَقَّطَ ذلك عندي ، وأدرك أنني أتشاءم من هذا الإحساس القاتل بالمراوغة ، قال لي بهدوء : أن تتصنّع القبول ، هو قبول آخر . قبول يكاد أن يكون منطقياً في حالة كائن مبتديء مثلك . نحن لا نصل إلى نقطة الحسم في الوجود بسهولة ، ولا دون عوائق نفسية ، وصعوبات أخلاقية . أننا مضطرون لأن نمر من «سُمّ الإبرة» لكي نصل ، ذات يوم ، إلى رَحابة العالَم وضوئه .

وبعد أن لحَق نَفَسَه الذي غاص في صَدْره ، قال بحسم أكثر ، يومذاك : وإن كان هذا يُخيفك ، أو يصعب عليك تحقيقه ، فاقْعُدْ . أُقْعُدْ مع القاعدين ، دون تأثيم ، أو تأنيب . لم يكن بحاجة إلى أي تعليق مني ، مهما كان نوعه . كان مكتفياً بذاته إلى حد التخمة . يومها ، بقيتُ صامتاً أتمتّع بنبرة الكلام وفُروقاته . وصار هو ينظر الأرض بين قدميه .

أستعادني «م . خياط» من رحلتي المشؤومة مع كلمات «صديق الحديقة » العنيد ، إذْ قال بمودة لم أكن أتوقعها حتى منه :

- يا رجل ، صرتُ أخاف عليكَ من هذا المهبول .

- نعم؟

كان صوته الدافيء يستعيدني من بعيد . من أعماقي المَلْهوفة الحَرّى . من دنيا أخرى لم أكن أحسب أنني سأقع فيها ، أبداً . لكن الماشي لا يتحكَّم ، دائماً ، بما يوجد على الطريق . ومن جديد قال بهدوء :

- صديقك الغريب .

اكتفيت بالصمت المراوغ ، وأنا أُفكّر : الغرابة لا قيمة لها . كلنا غرباء بشكل أو بآخر . المهم هو ألاّ نقع من جديد في الجُبّ . في الحضيض البشري الذي لا ينجو مَنْ يقع فيه . لكنني لم أشأْ أن أنقل هذه الأحاسيس السوداوية إليه ، وقد أحسستُ أنه على حافة الإتزان . لم يعجبه صمتي ، ربما ، لأنه أكّد :

- يارجل ، كلما أراه أحس أنه غير طبيعي . وكثيراً ما أسمعه يحكي لنفسه ، وهو في طريقه إليك . الحديقة كلها صارت تعرفه . وتعرف أنه قادم ليلتقي بك . ما يدهشني هو الإنصات العميق الذي يتجلّى على وجهك عندما يبدأ الكلام . لكأنه يقرأ عليكَ القرآن . لكنني أعرف أنه لا يقول سوى الحماقات التي لا تليق بك .

- تعرف؟

- نعم .

- أنا نفسي لا أعرف ما يقول .

- ومع ذلك تستمع إليه بهذا الاهتمام؟

- لأتعلّم .
- تتعلَّم وأنت لا تعرف ، أو لا تفهم ، ما يقول ، كما تقول؟
- هذه هي الطريقة الوحيدة .
وصَمَتَ .

كنتُ أستشعر مدى التحدي الكامن في قلبه عندما لا يطمئن إلى أحد ، أو إلى أمر . «الخياط» كائن رهيب بالمعنى الجمالي للكلمة . أميٌّ ، أو شبه أُمّيّ ، لكنه يفهم ما تقول . وهو غريب عن البلد الذي نحن فيه مثلي . جَدّيّ ، وهاديء ، ولا يحب الكسل ، كما يقول . العلم بالنسبة إليه ليس أكثر من المعرفة الضرورية للعيش بطريقة مقبولة . وهذا الموقف العفوي في الحياة ، عنده ، يغريني بشكل من الأشكال . وهو ما كان وراء ازدواجية مشاعري تجاهه . وفجأة ، عاد إلى الحديث :

- نحن لسنا علماء ، ولا أساتذة في «الصوربون» (هكذا يلفظها) . نحن مسافرون نبحث عن لقمة العيش . ولكن «لقمة مع حرية» ، أضاف بتوكيد غريب . وهذه لن أتخلّى أبداً عنها . أتخلّى عن اللقمة ولا أتخلّى عن الحرية .

وبعد أن ابتسم على طريقة «جاك بالانس» ، تابع ، متعجباً من الفخ الذي وقع فيه ، هو الآخر :
- يارجل ، ما هي هذه الحرية التي شَرَّدَتْنا؟
- هي الحرية التي ما عرفناها .

أقول ، دون أن أفهم أنا نفسي ما أقول . أعرف أن الكلمات مفاتيح . لكنها أحيانا تفتح مخابيء لا نعرف كيف نخرج منها بعد أن دخلناها . وسيمر وقت طويل قبل أن أحاول أن أعيش كما يليق بي . قبل أن أنفض عن نفسي غُبار الكلمات .

-٣٤-

أبكاني القمر . قمر الشتاء البارد في سماء النورماندي . بعد ذلك الضوء الساخن في القيعان ، يتراءى لي هذا القُمَيْر ، الآن؟ لكأن الحياة عجين . نصنع منها ما نريد ، دون أن نرتاح إلى ما صنعناه . هذه الإزدواجية الكامنة في فعل الحياة ، نفسها ، هي التي صارت تعذبني اليوم . كنت أحسب أنني ما أن أخلص من وضعي القديم حتى أصير سعيداً بلا حدود . وهأنذا ، بعد أن ابتعدتُ كثيراً أحكي للقمر البارد عن مأساة حياتي اللامتناهية الصِغَر دون أن أشعر بأية سعادة ، لا وهمية ، ولا واقعية . أحكي له عن كل ما فعلتُ . وأرى إلى غضون سطحه تتكَدَّر لكَدَري العميق ، دون أن تحير جواباً . قمر أخرس؟

في سُهوب «الجزيرة» كان القمر يحكي . وعندما أخاف يبتسم لي . كنت أمشي وحيداً تحت ضوئه الصافي ، وهو يمشي معي دون أن يخذلني . لم يكن يتركني قبل أن أصل إلى البيت . والبيت ، نفسه ، قمر . كنتُ أعرف الكائن من رائحته ، واليوم ، صرتُ أعرفه من كلامه . من كلمته الأولى . من الفكرة التي تنطلق منه عفواً وكأنها رائحة الطبيعة المختزنة في أحشائه . هذا ما صرتُ أحسب نفسي جديراً به . وهو حساب لا يستند إلى أية حقيقة . لكن

الحقائق التي تتطلب براهين لم تعد تعني لي شيئاً . الآن ، و«م . خياط» لا زال لاصقاً بي ، لم أعد أدري كيف أضع قدمي على سطح العالم .

كان قد بدأ يستدير قاعداً ، مُشَنِّفاً أُذنيه ، مُحرِّكاً هامته بطريقة غرائبية ، وكأنه يستمع إلى أصوات سرية مرسلة إليه من أعماق التاريخ . أصوات لا أحد يستطيع التنَصُّت عليها ، إلا هو . هو وحده . وهو ما يقتلني . صرتُ أشعر أن عليَّ أن أتفاعل معه ، بشكل من الأشكال ، حتى ولو على حساب أنانيَّتي . وأصير أُراوغه بوجهي وعينيَّ ، وأنا أفكِّر مرتبكاً : كيف أَقَعُ في فخ مثل هذا؟ أجعل من نفسي كائناً أحمقَ بإرادتي . أتخلّى عن مزاعمي ورغباتي . وما أن أشهق الريح حتى أتابع : لماذا هذا التنازل المجاني ، المجحف بحق نفسي ، لِمَنْ لا يطلبه ، أصلاً؟ وتحت أي عنوان من عناوين حياتي ، أمارسه ؟ وأحس أنني أريد أن أقفز في الفراغ ، وأنا أُتَمْتِم : وهل ثمة ضرورة لكل هذا العذاب ؟ بلى ! أجيب بقسوة ، وأنا أكاد أن أجرَح وجهي ، متسائلاً : وكل ذلك من أجل . . . ؟ لكنني سرعان ما أمسكْتُ بخناق نفسي وهي مُتلَبِّسة بمفهومها التحقيريّ البائس الذي أرهق حياتي . فقطعت خيط الأفكار اللئيمة ، رأساً . وعدتُ إليه .

هذا ما ملأ رأسي في تلك اللحظات المحتقنة بالإضطراب ، وأنا أتوَسَّمُه مرتبكاً ، وقد عَلِقْتُ في شراك عينيه . ولقد أحسن صُنْعاً ، إذْ بدأ الكلام ، من جديد . لأنه خلَّصني من عنفواني الداخلي المقيت واللامجدي . قال :

– الحياة مراحل يارجل . نكبر . ونَكْتهِل . ونشيخ . وصديقك هذا أحسه ظل طفلاً . أقصد أنه ينتَحِس ، ويغار ، ويزعل . وهو

بشكل من الأشكال مغرض و . . .خفتُ أن يقول «حقير» ، فسبقتُه إلى الكلام :

- لا تتسرَّعْ . هو رجل مخلص و . . .

- لنفسه ، ربما .

قال ، وكأنه لا يريد أن يسمع مني أي كلام . لقد حَسِبَ ، ولا بد ، أنني واقع تحت تأثير غـامض يمارسـه «الآخـر» عليَّ ، دون أن أدري . و«الخيّاط» ، نفسه ، لا يدري ما هو . وهو يريد أن يساعدني على الخلاص من هذه الورطة الإنسانية التي صارت تعذبه . وفيما يتعلّق بي ، كنتُ أحس ، بشكل غامض ، أن «صديق الحديقة» ، يخطط لأمر ما . أمر يتعلّق بمصير الإنسانية المعذبة ، كما يوحي لي عبر حركاته وسكناته ،لغة وسلوكاً ، أقوالاً وأفعالاً . ولستُ أدري ماذا ، أيضاً . هذه الفكرة المحض شغلَتْني كثيراً دون أن أتمرّس بها ، أو أستطيع التأكد منها . دون أن أصل إلى اعتبارها زائفة ولاغية ، أو أصيلة وحقيقية . وتألّمتُ كثيراً لمصيري البائس : مصير الكائن المغلوب على أمره أينما اتجه ، وكيفما فعل . وليس ذلك إلا لقلّة خبرته ، وسطحية أفعاله ، وتسرّعه في الأحكام على نفسه وعلى الآخرين ، كما يقول هو .

برغم كل هذا الإضطراب المعـرفيّ الخـبيء الذي يَغْلي في أعماقي ، صرْتُ أحس أنني مستعد للتضحية بكل شيء ، بشيء كبير ، من أجل إنقاذ هذه البشرية التعيسة والمأساويّة التي يَتأكّلُها الغشّ والإهمال كما يأكل العِتّ خيوط الصوف ، كما يقول . ولكن ، لماذاعندما يسمع مني بعض التدخلات في هذا الإتجاه ، يدير رأسه إلى الجهة الأخرى ، ويصمُّ أُذنيه ، ويزُمُّ شفتيه الرقيقتين ، وكأنه رأى قنفذاً يقترب من جلده؟ كنتُ أجد الكثير

من التفاسير والتبريرات لهذا الموقف اللامستجيب عنده تجاه أفكاري الصغيرة التي أُطلقها ، بين الحين والآخر ، بشكل شبه عفوي . أفكاري التي تطمئنني على أنني لا زلتُ حَيّاً ، وأنفعل .

ولما أحس ، ذات يوم ، أنني يمكن أن أذهب إلى أبعد من ذلك بكثير ، قال لي بنوع من التوبيخ المستتر : الرجل الذي لم يبلغ حد النضج ، بعد ، أو غير الناضج بالأحرى ، يريد أن يموت بَطَلاً من أجل قضية . أقصد من أجل لا شيء . وبعد أن نظر إلى الجهة الأخرى ، استمر : والرجل الناضج يريد أن يعيش بتواضع من أجل قضية . أريد أن أقول : من أجل الحياة . ولكي لا أذهب بتفكيري بعيداً ، ودون أن يغيّر من نظرته ، أكمل : هذا ما قرأته ذات يوم . وقد قاله أحد علماء النفس على ما أعتقد . ولم ينتظر أي تعليق مني ، لأنه تابع : وحتى لو لم يقله أحد ، فذلك لا يغيّر في الأمر شيئاً . وكأنه يقول لي : أتمنّى أن تفهم ذلك ، وألاّ تنساه .

عندما يتكلّم أكاد ألْمسُ غبائي . لكلامه سلطة لا شك فيها عليّ . لكأنه يتكلم في عقلي . ولكن «محمد خياط» لا يريد أن يفهم هذا . ولا بد أن لديه ما يكفي من الأسباب والمقولات المجهولة عندي لكي يصرّ على موقفه السلبي منه . وفجأة ، بدأ «الخياط» يحكي :

- يا رجل ، أنا لا أحب الموقف المسكين في الحياة .

وصمتَ قليلاً وهو يهزّ رأسه يميناً وشمالاً ، وكأنه يريد أن يؤكّد ما قاله بحركة رأسه الرافضة ، قبل أن يتابع بنوع من الأسى البَيِّن :

- تذَكّرْ (أَمَرَني) عندما كنا في الشام ، أقصد في « حلب» ، كيف كنا نتصرَّفُ كالعصافير المرعوبة . نخاف حتى من أمهاتنا . نطأطيء الرؤوس أمام الدركي البسيط . نسكت في حضرته مثل

من ارتكب ذنباً ونحن لم نفعل في حياتنا شيئاً .

وكأن كلامه قُطع بسكين لا أراها ، سكَتَ ، فجأة ، وعندما انتهت السكين اللامرئية من العمل ، استعاد صوته الذي أختفى منذ لحظات :

- يارجل! قال بقوة وبصوت عالٍ أقلقني ، قبل أن يستفيض في حديثه الذي سمعته مئات المراتً ، والذي في كل مرة يتغيّر فيه الموضوع والنبرة والإهتمام . يارجل! قال مرة أخرى : أنا لم أعد أتحمّل هذه «المسلوكات» (يحب أن يتفاصح أحياناً) . لم أعد أحب أن أرى أحداً لا يشمخ برأسه حتى وهو خائف .

وفجأة ، تساءل بلا مبرر واضح : خائف ؟

وسَكَتَ ، من جديد . في الزجاج النظيف ، زجاج مقهى«دانتون» ، كنتُ أرى الوجه مُجَسَّماً : وجه الرجل القاعد بهدوء وتزمّت ، وكأنه يجلس في عزاء . كان الوقت صُبْحًا . وكنتُ مضطرب النفس والإحساس . استمع بمودَّة إلى ثَرْثَرات الخياط المثيرة التي غزَتْني على الخفيف لكثرة مرورها في نفسي ، ولسماعي المتكرر لها . فالخياط كالطفل لا يحكي ما لا يحس به . وهو حتى عندما يكذب صادق . كنتُ أُقاوِم ، إلى حد ما ، ما يريد أن يضعه «الخياط» في قلبي . والآن ، بالتحديد ، صرتُ أحب أن أُقاوِم . لم أعد أريد أن أشعر أنني أتغيّر«بلا سبب» . وهو ، ربما ، مادفعني (للتخلّص مُؤقّتاً من «الخياط») للإهتمام ، ولو للحظات ، به . بالرجل الذي يجلس بعيداً عني ، ولكن لصق الزجاج . من الجهة الأخرى التي أجلس فيها أراه مواربآً . وهو ما يعطيني نوعاً من الرؤية «المخَرَّبة» له . وكان هذا يسرني . يسرُّني ويُلْهيني عن الإستماع شبه القسري إلى ما مَلَلْتُ الإستماع إليه . أو أكاد . كان رأس الرجل

يتضخَّم كثيراً في انعكاس الزجاج النظيف . الزجاج التي مسَحَتْه أمامي ، قبل ثوان ، المرأة السمراء ذات الجسد الجميل والمثير لكثير من الأحاسيس . رأس الرجل ، ومؤخرة المرأة ، استَوليا على عقلي ، في تلك اللحظات .

عقلي الذي غدا نقطة في ردفَيْها . كانت تمسح الزجاج وهي تتَلَوّى بإغراء . شمس الصبح تمسُّ أوراكها ، فتميل . لكأن الشمس تَقْرُصها . عَبْر جسدها الذي شَفَّ ، هو الآخر ، حتى صار زجاجاً ، كنتُ أراه ولا يراني (أو هكذا حسبتُ) . وبسبب تسلّط رؤيتي عليه صرتُ أُرَكِّب له ما أشاء من الصور والأفاعيل . ولكن أي معنى لهذه الرؤية الأحادية الجانب غيرالتشويه المقصود للذات وللآخر؟ وماذا يمكن أن نستخلص منها ، غير الإحساس بعبث الرؤية إنْ لَمْ يرافقْها كلام؟ طال سكوت الخياط .

وطال صمتي .

-٣٥-

وصلتُ باريس في أوائل الخريف . لا! في بداية الشتـاء . وأية أهمية لتاريخ وُصولٍ محفوف بالمخاطر والفشل ، ولا يكاد يبقى منه إلاّ ما يثير الرغبة في الصمت؟ وأكاد أتساءل اليوم ، لماذا اقتلَعْتُ نفسي من مكاني القديم لأزرعه في مكان آخر؟ مكان صار هو ، أيضاً ، عبئاً جديداً عليَّ . لكنني سأدرك ، خلال رفقتي القصيرة له ، أو الطويلة نسبياً إذا شئنا ، لصديق الحديقة الأريب ، أن الكائن ، مهما كانت براعته ، محكوم بمجموعة من الأخطاء الأوليّة التي لا يمكن له أن يتجاوزها إلاّ إذا مَرَّ عبرها كالسائل الذي يخترق التراب . لكنه حتى خلال اختراقه التراب لا بد أن يتلَوَّث به .

كان الوقتُ ليلاً عندما وصلتُ . برغم طول المسافة لم أحس بها مرهقة ، ولا بغيضة . قطار الليل العابر بين مدريد وباريس لم يتوقف إلاّ نادراً في محطات البيرينيه . وفي سانْ سيباسْتيانْ ، أهم مدينة في بلاد الباسكْ ، توقَّف وَقْتاً أطْوَل ، نسبياً . خلال الدقائق القليلة التي كفَّ فيها عن الحركة ، في تلك المدينة الشديدة البرد التي يلتَفُّ المحيط الأطلسيّ حولها كالأفعى هبطتُ ، فَوَقَعْتُ على الثلج . كان الهواء الذي ينبثق من المحيط الأطلسي حاداً مثل سكاكين لا مرئية ، لكنها محسوسة . هواء بحر الظلمات النابع من

القطب ، الذي جعلني أقشعرّ انفعالاً في ذلك الليل الذي غرق ، الآن ، في بحر الذاكرة .

في تلك المدينة الجميلة المختبئة في ثنايا جبال البيرينيه ، أنزلوني بعدائية ، في ليل الثلج العميق ، ذاك : أنت عربيّ ! قالوا . ولم ينتظروا جوابي . أمَروني : أهْبطْ ! وأضافوا ليخففوا وطء أمرهم عليّ ، وقد رأوا شحوبي ، وتَقَلْقُلي : لا بد لك من تأشيرة دخول إلى فرنسا . وحدث . وهبطتُ . ومشيتُ كثيراً في ليل المدينة المحيطية . بعد ذلك ، تدَبَّرتُ أموري وتابعتُ طريقي إلى المجهول . عدتُ بالقطار التالي الذي مرَّ من هنا في بدايات النهار إلى حيث أريد . ومنذ أن كفَّتْ محركات القطار عن الهدير في باريس ، تَحَفَّزْتُ . اقتلعت محفظتي العتيقة . جَرَرْتُها خلفي . وخرجتُ . خرجت من محطة «أوسْتِرْليتْزْ» . كنت أرتجف من الغلبة والإنفعال .

في الشارع الطويل الذي قادني من المحطة إلى السانْ ميشيل ، مررت بآلاف الأشجار العظمى . بالنهر هادئاً ومستقراً . وبأنوار لا حَصْرَ لها ، تَلْتَهِم الظلام ، وتجعل الليل شفيفاً مثل فجر الحَماد . وفجأة ، بدأ المطر بالهطول . مطر مِدْرار مثل سيول منحدرة من السماء . كنتُ أرى للمرة الأولى مطراً بمثل هذه الغزارة والهَطْل . تحت زَخّاته العنيفة الدافئة وقفتُ لحظات وأنا أتَنَشَّق عبير الكون . تحت سُيول المطر المسائي ، أصْفُنُ ، مرتبكاً ، مثل حصان متْعَب ، وأنا أفكِّر : العالم يحتوي كل هذه الروائع ، ولم أرَ منها شيئاً ؟ وبهدوء أصير أمشي تحت وابِله وكأنني أريد أن أغتسل من رجس مبهم يعشش في قلبي ، وكلماتي السرية تتقافَزُ فوق لساني بعد أن أطلق سراحها عقلي : كَمْ فيه ، إذن ، من المُتَع واللَذّات ، وكنتُ محروماً منها؟

على ضفة نهر السَّينْ المليئة بالأنوار مشيتُ بعد وقوفي القصير . كان الليل المضيء قد أمْعَنَ في الحُلول والإبهار . وهذه المرة ، صرتُ أُتمتم : منذ متى وأنا أحلم بهذه اللحظة ؟ وسيبدو لي ذلك الألَقُ المَبْلول مغرياً ورحيماً . لَكَمْ خطَّطْتُ وأنا في «دمشق» ، وأعدت التخطيط في رأسي ، من أجل هذه المشْيَة الليلية في «باريس» . كنتُ ، قبل أن أجيء ، ومن بعيد ، أُخطط لحياتي الجديدة التي ستكون ، على عكس ما كنتُ أتوقَّع ، محشوَّة بالكَآبَة والفشل . والآن ، أكاد ألوم نفسي : هل يمكن لمن لم يَرَ العالم أن يتخيَّله ؟ واليوم ، لا بد لي من أن أقول : إن الأمرصار خارج نطاق قدرتي على تجاوز الإنهيارات . وفي هذه الحال ستبدو لي الكتابة ، كـ«عِلْم يبحث في واقع الكائن وتحَوُّلاته» ضرورية وشديدة الإخلاص للمصير . هي ، وحدها ، الكتابة ، وليس الحياة ، ستعيد ارتباطي بتلك اللحظات الآسرة من شدة الإضطراب .

بعد سنوات من ذلك المساء الباريسي العاصف ، والمختنق بالإنفعال ، وفي قلب حديقة اللوكسمبورغ ، سيحكي لي «صديق الحديقة» ، عندما تجَرّأْتُ وحكيت له عن بعض ذكرياتي ، وعن الأسى الذي يرافق الحياة ، سيحكي لي بنوع من الإستهجان والبراءة ، مُقارِناً ثوراً مثلي مع أَوْهَن الأحياء . قال : في أصعب الأنواء وأعنفها لا تقاومُ إلاّ الفراشة . وبعد أن حدّق في عيني الغائمتين ، أضاف : وليس ذلك مجازاً وإنما هو حقيقة . حقيقة حياة الفراشات السريعة العطب ، أو التي نعتقد أنها كذلك ، حتى أننا نخشى عليها من اللَمْس . ولما رأى الدهشة في عينيَّ تساءل ، بعد أن تعَلَّقَتْ نظراتُه بنظراتي : ولماذا هي مَنْ يُقاوِم ، وليس غيرها ؟ وأحسستُه يتَشَبَّث بوجهي المحتقن من شدة عدم الفهم ، قبل أن

يوضح لي الأمر : السبب هو ، فقط ، خِفَّتُها . قال بنوع من البهجة التي أزعجَتْني (دون أن أعرف لماذا) . وسألني بنوع من التحدّي الخفيّ : فهمتَ ؟

ولكي لا يبدو الأمر شديد التخصيص ، ويكاد أن يتعلّق بي أنا شخصياً ، أكمل بلا اهتمام : الفراشة الخفيفة تتحدّى ثقل العالم ، وتسخر منه . قال ذلك بصرامة لفظية ، وكأنه يدافع عن نفسه ، وعن أهوائه التي كانت تبدو لي شديدة الثقل . وأضاف بصرامة أقل : وهي وحدها التي تستطيع أن تقطع القارة من أقصى الشمال الأمريكي ، إلى آخر المكسيك ، لكي تضع بيوضها في مكان آمن ، ومن ثمّ تعود . من جديد ، قَرَّب نظراته من وجهي قبل أن يتابع : وفي خلايا النوع الأكثر خبرة في السفر وأجتياز المحيطات من أنواع الفَراش ، والمسمى«مونارك» ، اكتشف العلماء والبحاثة «جين الرحيل» ، أو «جينات الهجرة» ، إذا أردنا الدقة . وبعد أن هزَّ رأسه تعجباً ، أضاف : تصوَّرْ !

شَغَفَتْني أسطورة الفراشات التي كنت أجهل كل شيء عنها . وتذكرتُ طفولتي ، حين كنت أصيدالفراشات الجميلة ، الملوّنة بألوان الصحراء الناصعة ، وأدعها تمشي برقة فوق جلدي . وأكاد أصيح موافقاً : هي فعلاً خفيفة . لكنني ، تذكَّرْتُ ، أيضاً ، أنني لم أكن أقيم لوجودها وزنًا . كنت ، حتى ، استخفّ بها . وأشفق على هشاشتها . وأحياناً كنت أنفخ عليها لتموت! كنت أحسب أنها لا تقوى على الطيران ، وإنماعلى الفَرْفَحة القصيرة ، ولبضع أمتار ، فقط ، قبل أن تهوي في العدم . وهأنذا أكتشف أنها تقاوم الأعاصير .

وسمعتُني أقول قبل أن ألْجُمَ لساني : الفراشات تهاجر ؟

سألته بغباء . لكنه ، بدلاً من أن يجيبني برقّة ، تابع مُتَجَهِّماً : تتكلم خارج الخط . لكأنك لم تسمع ، أو لم تدرك ، بالأحرى ، مغزى كلامي . يتعلّق الأمر «بالوضع» ، لا بالصيغة اللغوية التي تنقله . ولما رأى العماء الفكريّ الذي تَلَبَّسَني ، أكمل بهدوء ، وبشكل أكثر إفْهامًا : لكي أكون واضحاً ، تابعَ ، لايعني الكلام شيئاً إلاّ إذا تَجَسَّد في «وضع» . أريد أن أقول : إنكَ إنْ قُلْتَ «الحقيقة المجردة» ، هذا إذا وُجِدَتْ ، فأنتَ لا تقول شيئاً . أقصد شيئاً مهمّاً . وعندما لا تقولها ، لا يختلف الأمر كذلك . لماذا؟ لأن «وضع العالم» ، أو«وضع الكائن» ، هو ، وحدَه ، الذي يملك الحقيقة . أقصد :«المَعْنيّ بها» . ودون ربطهما معاً ، لامعنى للحقيقة ، ولا قيمة لها . وكأني سمعته يُبَرْبِر ، مندهشاً : الوضع والحقيقة !

وبعد برهة خاطفة ، عاد إلى الحديث دون أن يختنق الصوت في حَلْقه ، كماحدثَ قبل قليل ، وكما يحدث أحياناً من شدة الإنفعال : ماذا يعني ذلك ؟ تساءل ، وأجاب : خُذْنا مثلاً . عندما نكون على اختلاف مع «وضعنا» في العالَم العربيّ ، وهو ما يهمُّنا ، عندما نكون على اختلاف معه ، كما هي حالنا الآن (كَرَّر) ، لا جدوى من البحث عن المبررات اللفظية ، ولا عن الدوافع الأخلاقية ، التي قد تُزَيِّن لنا الاستمرار فيه ، أو عدم تحدّيه ، إلاّ إذا أردنا أن نحيا كالموتى في مكاننا .

ولما رأى التشتُّت الذهني البادي على وجهي ، حاول أن يوضِّح لي الأمر فقال بهدوء : لماذا هذا الخيار الحاسم بين التمرد والخضوع؟ لأن «الوضع» لا يقبل بغير مسوِّغاته ، وهو لا يتحرك من تلقاء نفسه . إنه عاجز عن تغيير سِماته . وهو بهذا المعنى بحاجة إلى «مَنْ» يدفعه ليفعل ذلك . وهذه الـ «مَنْ» هي نحن الذين نعيشه ،

ونتحمّل رزاياه . وبعد أن ملأ صدره المرهَق بريح المساء الباريسي المنعش ، تابع : نحن ، الأفراد ، يجب أن نكون كالفراشات التي تترك الشمال الأقصى في زمن ، وهي مبتهجة بابتعادها عنه ، لأنه لم يعد يلائمها ، مع أنها تعود إليه في زمن آخر ، وهي مبتهجة ، أيضاً . أقصد . . . . وسَكتَ .

بعد لحظة من التأمل العميق ، قال بلهجة حزينة ، أو أنني استشعرتُ ذلك : الأنا هي التي تُغيِّر موقعها قبل الجسد . نحن نرحل ، أحياناً ، ونحن مقيمون . وقبل أن أصل إلى استيعاب ما قاله ، أضاف : وحتى نتكلّم بلغة علم النفس الذي أصبح هو الآخر قديماً ولا جدوى منه : «الأنا» هي التي تهجر مكانها أولاً ، أو هي التي تنتقل سرّاً إلى أمكنة أخرى تتخيل أنها تعرفها وتحبها حتى قبل أن تصل إليها . ومن بعدُ ، يلحقها الجسد . الجسد الذي هو ، في الحقيقة ، ليس أكثر من هيكل . من هيكل تابع .

أراه يحكي . ولم أعد أسمع صوتاً . كنت أُفكّر في أعماقي في خاطرة غريبة ، خطرت لي دون أن أبحث عنها ، ومع ذلك ، جعلتني اضطرب ، وأنا أُرددها : اقتلَعْتُ نفسي من وَحْل الحياة الدمشقية ، ولكن ، في أي وَحْل وضعتها ! ووجدتني أتساءل بخوف : نحن المقْتَلَعين ذاتياً عمَّ نبحث ؟ وقبل أن أنقل إليه أحاسيس الخيبة ، هذه ، قال : إختلاط الأمكنة في كائن واحد تجعله يدرك خطورة مصيره . وتدفعه ، إنْ وَعَى شيئاً من هذه الخطورة ، إلى الإعتماد المطلق على الذات . فلا حزب ينقذنا من تفاهتنا ، ولا سلطة تبرئنا من جهلنا ، ولا جماعة تسعفنا عندما نخفق في حياتنا .

وبعد لحظات من الصمت والتَمَعُّن في التراب ، قال : الفرد الحُرّ الذي صار جديراً بالإعتماد على ذاته ، قد ينقذ نفسه ، إنْ لَمْ

ينقذ الآخرين . أتراني كنتُ واضحاً ؟ سألني مرتاباً . قبل أن يضيف بحذر شديد : أم أنني غرقتُ في أوهامي ، كما هي العادة ؟ ولما بقيتُ ساكتاً ، أمَرَني بأخوّة صادقة : إحْكِ يا رجل!

-٣٦-

أصبحنا هنا ، الآن . ولنبْقَ . صرنا في أُخوّة المقْتَلَعين . هذا المساء لم يعد يهمني من أمره وأمر العالم شيئاً . أريد أن أصل إلى الهاوية . هاوية الإنفعالات المترفة عندما يلتقي الرجل بالمرأة . عندما يلتقيان على غير ميعاد ، وذلك أمْتَع ما في الأمر . ومع ذلك أُحسُّني لا زلتُ أهاب . أهاب من الإلتقاء العفوي والسعيد مع مَنْ أجهله . لكأن الجهل ، وهو أحد عناصر الحياة الأساسية ، خطأ فادح . وهل يولَد البشر علماء ؟ تساءلتُ ، وأنا أتهيّأ للدخول .

أتهيّأ ، وأنا أستعيد في قلبي كلماته التي لازلتُ أحفظها ، وهو يقول : أخطار الحياة التي نتعرّض لها بحرية ، ونقاومها بإرادتنا ، هي التي تعلمنا العيش بشكل أفضل . وبعد أن نظر إليّ ، يومها ، بإشفاق ، أضاف : أما العقم السياسي والمعرفيّ (كما هي الحال في العالم العربي) الذي يظل يحذّرنا من الأخطار حتى عندما نذهب لنبول ، فقد جعلنا نعيش كالأطفال . أوهو يريدنا أن نظل أطفالاً حتى في كُهولتنا . ورأيته يَتشَهَّق الريح بقوة ليملأ منه رئتيه ، قبل أن يتابع : وهو ما يعني أن رغباتنا ستموت قبل أن تمد رأسها إلى الخارج ، أو قُلْ : إنهم دفنوها في نفوسنا ، وعلى رأسها رغبة الإلتقاء بالآخرين .

وتجيئني من أعماق النفس مقاطع من أغنية لأم كلثوم، استعيدها بمتعة: «قل لي إيه حلو بحياتي وأنت غايب عن عينيّ»! وأسكتُ بلا دليل، قبل أن ألج المكان. «غايب عن عينيّ»؟ مَنْ هو الغائب؟ أتساءل. ويكون الجواب ملتبساً: إنه العالم. عالمي القديم؟ بلى! صدى الأغنية الرهيب لازال يَتَردَّد في رأسي، منذ أيام، حينما كنتُ أقطع طريق«النورمانْدي» نحو الشمال. كانت «أم كلثوم» تتَحَسَّر، وأنا أطير فوق الطريق المعبَّد الجميل، مُتَملّياً بهائج الغابات التي كانت تتراجع خلفاً، غابات الأشجار العظمى على ضفَّتَيْه.

أشجار أحسها تحاكيني وكأنها أمي التي ظلَّتْ هناك. أقرأ على جذوعها آيات الكون العجيبة التي لا مثيل لها. واستعيد قول «ماكس أرنست» (الذي ورد من قبل في هذه الصفحات، ربما): لَكَم الأحجار مملوءة بالأفكار! وأحسه بقوله هذا يتحدّى العالم: ولكن، مَنْ يستطيع أن يسْتَخْرجها منها؟ واليوم يثير ذلك الصدى الحزين في نفسي أعنف المشاعر والغوايات، دون أن يكون لديّ ما أحتَجُّ عليه. لا! لا يكفي أن يكون الكائن في أمان ليستقر، ويسعد. إنه بحاجة إلى الشغف، والإنفعال. كنتُ أصِلُ.

أجلس في دانتون وأنا أتهيّأ للقاء أحد ما. لا أعرف مَنْ يكون. لكنني أحسّه قريباًمني. يكاد يكون هذه الفتاة التي تجلس لصقي. أنظر إليها بهدوء وتركيز. أُحَمِّل نظراتي كل شغفي وانبساطي. أريدها أن تدرك مدى القوة الكامنة في أعماقي، والتي لا بد لي من إخراجها هذا النهار. كنتُ مزهوّاً بنفسي مثل ديك في فيافي الجزيرة. آه! أصير أتمتم في أعماقي وأنا أتَحَرّى الفضاء بمتعة. في غمرة الحديث الداخلي الذي كنتُ أهيئه لها، قامت. مشت هادئة

بلا لَهْوَجة أو تَسَرُّع . واستطعتُ ، هكذا ، أن أراها ، تماماً ، من الخلف . واحترق قلبي . لا جدوى من التمادي في لَطْم الذات والتَهْويل ، ها هي ذي الأخرى تجيء . الأخرى ذات الرائحة المغثية التي تعرفونها في أول الرواية بقدر ما أعرفها ، أنا؟ لا! إنها أخرى غيرها .

على الفور ، تأخذ هذه مكان تلك . تجلس بأبهة ملكية . وتحط ، رأساً ، ساقاً فوق ساق . ويُنْبيء المنظر الدافق بالمذاق . وأصير أتخبط في نواياي ، وتَسَرْسُراتي ، وأنا أسترق النظر إلى الجنّي القابع في الأعماق . أي شيء قد يكون مصدراً للسعادة ! أصير أردد ما قاله لي ، ذات يوم ، قبل أن يضيف محدقاً في مقلتي : إذا تَجَرّأْنا وبحثْنا عنها . ومَنْ لا يهتم بسعادة ذاته؟ كدتُ أسأله . لكن الوقت ، يومها ، لم يكن يسمح لي بالسؤال . وسأدرك ، فيما بعد ، أن الإمكانية الأساسية الوحيدة المبذولة للكائن المحدود مثلي ، هي حُسْن الإستماع الذي قد يعقبه إدراك . وليس ذلك بالشيء القليل . وعندما رآني مبهوتاً بسبب ما قاله لي عن الجرأة ، عن جرأة البحث عن السعادة ، أحسستُ به يمتليء بحيوية بالغة . لكأنه التقى بشعاع قديم من سعادته التي أتصور أنها أغْرَبَتْ منذ زمن بعيد . إذْ لا سعادة دون طاقة جنسية ، كما يقول .

يومها ، أكمل أقواله مُسَخِّفاً سياسة التعويض ، أو ما يسميه هو : التعويض المضِرّ بالكائن ، إذْ قال بصرامة : إياكَ وبلاغة الاستبدال . وأوضح على الفور : تلك التي تستبدل الفعل بالقول ، بدلاً من أن تفعل العكس . وأمام إنغلاقي ، أضاف : أريد أن أقول : إياكَ والسلوك اللغوي الفارِغ الذي لا يتلاءم مع الحياة . وبعد أن إستعاد نَفَسَه القصير ، أكمل : تَصَرَّفْ بحرية . وعِشْ كما تهوى .

وتَحَمَّلْ غلاظة الآخرين بشجاعة وصبر . وتابع شارحاً ما لم يعد بحاجة إلى شرح : تصرُّفُ مثل هذا ، حتى ولو كنتَ أخرس ، أفضل من اللَّغْو العالي بلاسلوك . وقبل أن أسأله عن ماهية هذا السلوك ، صار يتمتم . وهو ، كما صرتُ أعرفه ، يعتقد أحياناً أن التَّمْتَمَة أبعد أثراً من الصراخ . إذْ قال هامساً : أعرف أن ذلك شبه مستحيل ، لكننا إذا ما أردنا أن نقاوم المَوات العربي المفروض علينا ، لا بد لنا من الجُحود ، وإلقاء أنفسنا في خضمّ الوجود . ومن جهتي أحب أن أموت غَرَقاً في بحر الحياة بدلاً من الموت مختنقًا بنفاياتها . وبعد أن تطلَّع في قلب عينيّ ، وأصبعه فوق صدغي ، أحسستُه يصرخ في أعماقه ، وكأنه يصرخ في بئر عميقة : يا للوَيْل !

هذا ، كله ، لم يمنَعْني من متابعة أهوائي العاتية التي بلغَتْ ذروتها لمجرد جلوسها قربي . فبدأتُ أتَحَضَّر للإنطلاق إلى فضائها المجاور . لكن النَحْنَحَة المفاجئة ، أخذَتْني . كان «محمد خياط» يقف بتَهْويل فوق رأسي ، وكأن الله أرسله في تلك اللحظة عقوبة لا مردّ لها .

- أجلسُ معكَ قليلاً؟ سألني .

وجلس قبل أن يسمع الجواب . كان محشوّاً بأفكار وكلمات ، ولا بد له أن يَتَمَخَّضَ عنها . ولمنْ؟ لي أنا بالذات ، كما قال . فلْيَحْك .

- يارجل! قال ، وأضاف بهدوء وكأنه يُساررُني : الوقائع . وسكتَ .

سَكَتَ متطلعاً إلى وجهي ليقرأ علامات التعجب والإستحسان التي ينتظرها ، كالعادة ، مني . كان قد سمع هذه الكلمة (أو المفهوم كما يحب أن يسمي الكلمات ، أحياناً) كان قد

سمعها البارحة ، ويحسب ، ولا بد ، أنني لم أسمع بها ، بعد . ولما بقيت صامتاً أنتظرُ كلماته ، أكمل :

- وقائع حياتي أحسُّها تمتصُّ دماغي كالعَلَق .

وسكتَ ، من جديد ، مُؤمِّلاً تعليقاً مني . ولم يبدر عني سوى السكوت الغارق في الإلتباس . كنتُ أتهَيَّأ ، صامتاً ، لسماع بقية حديثه الذي بدأ بداية لا بأس بها ، كما فكرتُ . وقبل أن أُعَلِّق ، قال :

- تركت حلب ، وفيها أمي وأختي ، وجئت إلى باريس لأعيش وأساعدهما على الحياة . وقبل أن يستطرد كثيراً ، قلتُ له :

- قُلْ شيئاً جديداً فهذا كله أعرفه .

- لا ! أنت لا تعرف كل شيء . صرتُ أضرب الإبرة في محل أختها . لم أعد أتقدم في العمل . شيطان ما دخل رأسي . وأنت وحدك تستطيع أن تفهمني . أنا في مَغْلَق . أراد أن يقول في مأزق .

تركته يحكي . ومن جديد ، قطعتُ عليه الطريق :

- ولكن لماذا كل هذا الإضطراب ، وهذه الفوضى ، وأنت كما تبدو لي متزناً وعاقلاً ولا تؤذي أحداً؟ و . .

- أنت تحكي مثل أبي ، يارجل! لا يوجد على الأرض إنسان عاقل بما فيه الكفاية . كلنا مجانين ، أو شبه مجانين . أقصد ندعي العقل ، والجنون مخبّأ في نفوسنا . نحن كلنا خبثاء ، أو لؤماء ، بلغتكم أنتم الفنانين (وكان يسمي المثقف فناناً) . وبعد أن ملأ رئتيه الضامرتين هواء (إذْ كان شديد النحول) ، قال بتوجس وريبة : هي التي ملأت رأسي بالخَبَل .

- هي؟ تلك التي أعرفها ، أم أخرى غيرها؟

وبدلاً من أن يجيب على سؤالي ، أخذ يردد بيتين من الشعر

اختطفناهما لنتسلّى بهما في أوقات فراغنا المديدة عندما كنا حديثي الوصول، إلى باريس. وقد حفظهما هو عن ظهر قلب، وصار يرددهما كلما داهمه الإضطراب:

«فيا وطني تركتُكَ بعد يأْس / كأني قد تركت بك العذابا.

وكل معَذَّب سيفرٌّ يوماً / إذا رُزق الشجاعة والذهابا».

ورأيت شعاعاً من الدمع على مقلتيه، يلوِّث عينيه الخضراوين اللتين تعبتا من ملاحقة هذا الوجود القاسي. وسمعته يترَنَّم باللحن القديم الذي كنا نرتعش عند سماعه من حنجرة صديقنا العراقي المتشرِّد، وهو يُغني الشعر، وبالخصوص ذلك البيت الآخر الذي اختطفناه: بلادي إذا جارَتْ عليَّ كريهة / وأهلي إذا ضنّوا عليَّ لِئام. أدرْتُ رأسي بالإتجاه الآخر، حياء، فسقطت عيناي على عينيها.

هيغل يقول ما معناه: لماذا البحث عمّا وراء المظهر؟ وأفهم أنا من هذا الإعتراض، أو التساؤل: هل تريدوننا أن نُقَشِّر الحياة لنرى ما فيها؟ وهل يمكن تقشير الوقائع، والأشخاص، أصلاً؟ أية حماقة، إذن، تدفع بي للركض وراء ما لا يمكن التوصُّل إلى لَمْسه، أو الإمساك به؟ ألا يكفي أنني أستطيع أن أرى الأشياء، وأن أكون قادراً، بشكل من الأشكال، على تقييمها، حتى ولو تعسُّفاً؟ بدأتُ أتصوّر الأمور على نحو آخر. نحو جعلني أقشعرّ قرفاً. كدتُ أسأل نفسي مِمّ؟ لكن م. خياط الذي ظل لاصقاً بي، وهاذياً، في الوقت نفسه، أحبط مشاريعي، كلها، حتى الذهنية منها. وأحسستُ، آسفاً، كَمْ يمكن للّغْو أن يُعَكِّر الأمزجة والغوايات. ويخرّب، أحياناً، سعادة عابرة كان يمكن لها أن تدوم ولو لحظات، مثل تَمَتُّعي بجلسة هذه الجميلة قربي. هممتُ أن

أترك مكاني وأقوم . لكن صوته الداخلي ، أو صوته المحبوس في أعماقي ، حذّرني : لا تَتْرُكْ مكانك لأحد ، أبداً . لأن استرداده سيكون مستحيلاً . وقبل أن يصل الهواء إلى حلقي ، هَزّني «م خ» بعنف وهو يقول (وكأنه أحس أنني ، منذ فترة ، لم أعد أستمع إلى هذيانه) :

- يارجل! جسمي هنا ، وقلبي هناك .

ولّما بقيتُ صامتاً أضاف يسألني وكأنني «مفتي السلوك» :

- هل على الواحد منا أن يلحق جسمه؟ أم أن عليه أن يستجيب لقلبه؟

اكتفيتُ بأن ملأت عينيَّ الباهتتين من عينيه اللتين بلّلهما احمرار شفاف . متأثراً بما رأيتُ منه ، كدت أقَرِّب رأسه من فمي وأطبع قبلة على جبينه . لا قبلةَ مواساة خاطفة ، وإنما قبلة المصائر المتقاطعة . مصائرنا التي لم نعد نتحكّم بأمر من أمورها . فهمتُ أنا هذا؟ ولكن لِمَ لم يفهمه هو؟ اللعنة! أحسستُ به يتطلّع بتَمَلُّق إلى عينيَّ ، وكأنه يستجديني كلمات ، أياً كانت ، تجعله يتحرر ولو بُرَيْهَة من البراغيث التي تطنُّ في دماغه . ووجدتني بلا تفكير أُعيد عليه ما سمعته من الحدائقي قبل أيام قليلة ، حتى ولو لم يكن له ارتباط مباشر بما هو فيه . أو لعلّي أخطيء التقدير :

- المكان ليس سجناً . ولا هو قبر .

قلتُ بلا سبب معقول يدفعني آنذاك إلى قوله ، وأضفت بنفحة من التبجُّح والإستزادة : إنْ ساءتْك الإقامة في مكان تَحَوَّلْ إلى غيره . وأردتُ أن أزيد ، فقلت : المفروض بالمكان ، أن يكون فردوساً ، أو ما يشبه ذلك ، وإلاّ . . . . لكن الإبتسامة الملتَبَسة التي علَتْ شفتيه الرقيقتين جعلَتْني أمسك زمام نفسي ، وأتوقف عن

الحديث ، ريثما تتجلّى الأمور . وعلى الفور سمعته يقول :

- يا أخي! الواحد منا يبدو أحمق في هذا الزمان .

وسكَتَ قليلاً قبل أن يتابع تَخَرُّصاته ، قائلاً بكثافة انفعالية لا تُخْفى :

- ولكن ، كيف يمكنني أن أقنع أمي؟

وسكت من جديد .

- تقنع أمكَ؟

- أنت في راحة بعد أن ماتت أمكَ . قال ، قبل أن يضيف متسائلاً : أَلَمْ تقُلْ لي أنها ماتت ، أم تراني أخطيء في حقها؟

- لا .

- الأم!

وسكت دقائق قبل أن يتابع . خلال ذلك التوقُّف اللامنتظرعن الهذيان ، سرحتُ أنا بعيداً عنه . سرَحْتُ وراء أمي ماسكاً شَليلها الأزرق الطويل . متعثِّراً بالكَدَر والحجر . مثيراً خلفي زوبعة صغيرة من العَجاج الرقيق في برية الجزيرة التي أضحت ، اليوم ، بعيدة . إلى أين كنا ذاهبين؟ ومَنْ كان يطردنا من جحورنا كالثعالب؟ و . . . وفجأة قال :

- الأم ، ياأخي ، هي التي تَنْغَشُ في رأسي كالبَقّ الذي لا يتوقف عن الفَريك . تقول لي تعال . وتقول لي لا تجيءْ قبل أن تَلُمَّ نقوداً نزوِّج بها أختك . ونبني لك داراً . ويكتمل الفرح . وقد صرْتَ إنساناً راقياً وكبير الشأن . و . . . و . . .

أصغي إليه مبهوتاً ، ولا أعود أسمع مما يقول شيئاً . مللتُ الطموحات البائسة ، والحياة المرتجلة ، والمشاغل التي لا تؤدي إلاَّ إلى الجحيم : جحيم الفشل الذي لا يمكن تجاوز خطوطه السود .

لكنه عاد يطنُّ خلف أُذني كالزيز :

- يارجل! الكلمات تُطَوِّقني مثل حَبْل يخنقني .

- فُكَّ القيد عن عقلك . وقُلْ ما شئت .

قلتُ له ببساطة ، وكأنني أُسَلِّم عليه . ورأيته يَتَلَمْلَمُ بصعوبة كالمُتَفَكِّك الذي يريد أن يتجَمَّع . وصار يَتَحَرْقَصُ ، ويتَجَشّأ ، وهو ينظر إلى البعيد ، مثل مَنْ رأى أفعى تقترب منه ، ولا يستطيع رَدَّها . اعترَتْني ، أنا الآخر ، هزَّة مفاجئة لإحساسي بأنه سيفقد عقله ، أو يكاد ، وهو لا زال لصقي . إنْ لمْ يكن قد فقدَه ، من قبل . وفجأة ، قال بقرف ، وهو يَتحَفَّز قائماً كالقاعد على دبابيس :

- جاء صاحبك . وأضاف مُتَعوِّذاً : عليه اللعنة .

منذ أن جلس ذاك ، قام هذا . ابتعد مبتسماً بطريقة مليئة بالألْغاز ، وهو يهزُّ هامته العالية من فوقنا مُحيياً ومستاءً . وقبل أن يخطو الخطوة الأولى في حركته ، الخطوة التي ستلحق بها خُطى أخرى تبعده عنا أكثر فأكثر ، حَدَّق في عينيَّ وكأنه يعاتبي على ترحيبي بمَنْ وصل للتوّ . ولم يكن ينتظر هو وصوله . ولا أنا . ولكن ، كيف يمكن لي أن أضعه في الحُسْبان؟ ودون أن يسدد النظرة الأخيرة إليَّ ، قال بمودة غامضة : أراك قريبا . وقلتُ له مثل هذا . وغاب .

قبل أن يختفي ظهره الطويل في فضاء باريس الفضّي المليء بالبشر والآلات ، قال «صديق الحديقة» ، بنوع من اللامبالاة والإستهْتار :

- أعرفه! أعرف هذا الكائن الهُلاميّ .

ولّما أحس بالرهبة تعتريني ، أكمل ، بعد أن صمت ، قليلاً :

- أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه .

قال ذلك، بنوع من الإستصْغار الواضح، وكأنه يتحدث عن جزرة عفنة. وهززتُ أنا رأسي بلا كلام، ولكن بشيء من عدم الرضى عمّا حدَثَ. ولم أكن أريده أن يحدث على هذا الشكل. لكنني، في الأيام الأخيرة، غالباً، ما كنت عرضة لتسلّط بعض الأصدقاء عليَّ، ولتعنتهم اللامفهوم، أيضاً. لكأنني صرتُ مُلْكاً لهم على التوالي. وكان ذلك يملأ قلبي بالخيبة والإستياء. ووجدتني مدفوعاً بقوة إلى التساؤل المتشكِّك، ونادراً ما كنتُ أتَجَرَّأ على ذلك:

- تعرفه؟

ولما لم أقل شيئاً آخر، أضاف الحدائقي (ولا أدري لمَ أسميه كذلك، ونحن لا نلتقي إلا في حديقة واحدة هي اللوكسمبورغ. لماذا صفة الجمع هذه؟)، أضاف بنوع من الإعتداد المغلّف بخُبث لفظيّ لا يخطئه العقل:

- بلى! هذا هو «وعي الدجاج». وأحسستُ به يتردد قبل أن يؤكّد: أذكر وجهه النافر، وعينيه الزائغتين، وابتسامته المرائية مثل ابتسامة أفعى جائعة.

ولم أتمالك نفسي من الإحتجاج الذي كان أقوى من إرادتي على قهر الكلام، فقلتُ مضطرباً لمجرد سماع هذه الصيغة التي كنتُ أسمعها أول مرة:

- «وعي الدجاج»؟

- أُسَمّيه كذلك،

قال. وتابع بهدوء وكأنه يصف القمر:

- لأن همّه الوحيد في الحياة هو أن يَنْقر الفلوس كما ينقر الدجاج الحَبَّ. لا يرى في العالم شيئاً غير اللمعان، ولا يهمه إلا

ما يضعه في جيبه ومعدته .

– ولكنك بالكاد رأيته مرة ، أو مرتين ، ولم تتكلم معه ، أبداً .

قلتُ محْتَجّاً ، من جديد ، لأن خوفاً غريباً من لَسْع الكلمات سيطر على نفسي .

– صحيح . لكنني سمعته يحكي لك ، ذات يوم ، عما يشغل باله . وابتعدْتُ عنكما قليلاً حتى أسمع الباقي على خاطرى . لقد أدركتُ من القليل الذي سمعته منه ، يومذاك ، أنه يُفَصِّل الحياة على قَدّ عقله ، ورغبته . ولا يرى من الوجود غير ما يمكن له أن يستفيد منه .

– وهل هذا يكفي للحكم عليه بمثل هذه القسوة؟

– يكفي وأكثر . قال .

وبعد لحظة من الصمت ، وفيما هو يستعيد الأشجار من الفضاء ليضعها في عينيه ، أضاف :

– عندما تصبح المصلحة الشخصية معيارَ الوجودِ الوحيدَ عند الكائن ، لا شيء يمنعه ، حينئذ ، من الغرور ، أو الزَيْف ، أو الخداع . وأكاد أقول ، ولا من الإبتذال . ولا شيء يحمي الإنسانية ، عند ذلك ، من الإنهيار .

وسكتَ ، وهو يكاد أن يقول لي : هل أزيدك شرحاً ، يا أحمق؟

-٣٧-

– تـتـسـاءل : مـالذي يربطنا بالأرض؟ ومن حـقك أن تسـأل هذا . وأرى أن المنطق النقدي يفرض عليَّ أن أقول ، ببساطة ، يربطنا بها رابطان : الحرية والمتعة . وهما أمران لا يجوز لنا التصرف بهما ، ولا التخلّي عنهما تحت أي ظرف كان . لأن التضحية بهما ، أو بواحدة منهما ، تعني ، في آخر الأمر ، التضحية بالكائن نفسه . أو على الأقل تخريب ارتباطه العميق مع «الأرض التي فَقدَتْهما» . وهذه ليست مسألة نظرية مجردة ، وإنما هي عملية واقعية شديدة البساطة والوضوح . وبعد لحظات مملوءة بالسكوت والتململ ، أضاف «صديق الحديقة» بصوت هجين من البَحَح والإمتعاض :

– منذ سنوات وأنت تتساءل واقفاً في مكانكَ . ولا يجدي السؤال ، في هذه الحالة ، شيئاً . الحياة ليست كسيحة مثل الكائن السكونيّ الذي لا يتبدّل . أقصد مثلنا (ولستُ أدري هل جمعني معه من باب المجاملة أم من باب الإحتيال) . إنها في تغيُّر مستمر ، وفي حركة لا تتوقف . وهي تبتعد ، يوماً بعد يوم ، عن بُؤرِها السابقة ، حتى تلك التي كنا فيها منذ قليل . فتصَوَّرْ تلك التي مررنا بها منذ سنين؟

وبعد أن تملّى طيف الغمام الذي أخذ يرقى سماء باريس من

الغرب ، صاعدًا ببطء وبلا ضجيج نحو قبة الكون ، تابَعَ :
- لا شك أن التمعّن في الأمور ، وانتظار اللحظات الملائمة ، أمر أساسيّ . لكن الإنتظار أكثر من اللازم يجعلنا نقع في حالة من العطالة التي لا أمل فيها . وخير لنا ، في هذه الحال ، أن نستغني عن كل طموح ، أو تصوّر جديد للعالم الذي نريد أن نتابع العيش فيه .
- ماذا تريد أن تقول؟ سألته بنوع من التحدي السافر ، هذه المرة .
بدأتُ أدركُ ، ولو بشكل غامض ، أنني أُضَيِّع وقتي في تتبُّع مثل هذه الحكايات الطريفة : حكاية التحَوُّل ، والتطوّر ، والإنتقال ، والثورة ، وما إلى ذلك . صرت أحس أنني أُقامر بحياتي في لعبة لا يربح فيها أحد شيئاً ، حتى ولا الرابح المحتَمَل نفسه ، هذا إذا وُجِد . وكأنني قدمتُ له هدية لم يكن ينتظرها ، وتعلّق كل أمله في الحصول عليها ذات يوم ، نَطَّ على الفرصة فوراً ، وقام عن الكرسي الصغير الذي يجلس عليه ، وقَعَد ، وهو يقول :
- آه! الآن تَكْشفُ لي بعض نَفْسكَ . الآن أكاد أراكَ من زاوية أخرى . زاوية الوضع الذي أنجبك ، والذي لا زلْتَ ، في أعماقكَ ، مخلصاً له .
كان يتكلّم مُبْتهجاً ، وكأنه اصطاد أرنباً . وبعد أن تنفس بسرعة ، أضاف بغضب :
- يا رجل! لمَ لَمْ تكشف لي هذه الزاية من قبل؟ كنتَ وَفَّرْتَ عليَّ وعلى نفسكَ مشقّات كثيرة . فنحن بحاجة إلى كل ذرة من الزمن لنحيا . وإذا ما بعثَرْنا أوقاتنا ، دون حساب ، مُتْنا .
ولم يتوانَ عن طرح سؤاله المعهود عليَّ ، وهو يلقيه بتَبَجُّل

واحتقان ، وكأنه يشرح لي نظرية النسبية : فهمتَ ؟ كدتُ أقوم ، عندما رأيته يتهيّأ ، وقد حسبتُ أن الكلام انتهى . لكنه أقعدني بشدّة ، وهو يبربر :

– في العالم العربي الذي نعيش فيه اليوم ، أوالذي لم نعد نعيش فيه لأسباب لا مجال لذكرها ، الآن ، إذْ لكل منا أسبابه الخاصة ، والأسباب كلها تتساوى . فليس ثمة سبب خطير وآخر حقير ، طالما أننا نُدْفَع دَفْعاً إلى الإبتعاد القسري عن الأمكنة التي أحببناها . في هذا العالم الذي يجمعنا به المصير ، مصيرنا الذي تقاطع مع مصيره والذي لا زلنا نحتضنه في قلوبنا وكأننا لم نضطر إلى الإبتعاد عنه ، في هذا العالم (كررها) ، يكاد معظم الناس أن يكونوا محرومين منهما : أقصد الحرية والمتعة . (قال ، أخيرًا ، وكدتُ أنساهما) .

وبعد أن ملأ رئتيه هواء ، تابع بنفس القَدْر من الإنحياز :

– وهو ما يدفع بالكثير منا إلى الإكتئاب ، حتى لا أقول «الإغتراب» . فـ«كل مغترب كئيب إلى أن يثبت العكس» . والعكس ليس دائماً هو الصحيح . لكن السَفَر الذي يشبه الإنعتاق ، في هذه الحالة ، والذي قد يُشْبِع الرغبة في التحدّي ، يستحق «تلك» الكآبة ، ولا بد . وإلاَّ لتولّى الناس عنه .

وفجأة ، سكت . شعرتُ أنه لم يقل شيئاً أساسياً يروي ظمأي ، ويجعلني أشعر أنني صرتُ أقلَّ غباء . لكن مشاعري ليست معياراً لحقيقة الأمور ، ولا دليلاً على أهميتها ، أو لا أهميتها . لا أريد أن أُقَلِّل ، هكذا ، من شأن مشاعري . لكنني أُريد أن أتجاوز حالة البلادة الذهنية التي كانت إحدى مساوئي . وأن أتخلَّص من موقفي القميء في الحياة ، ذاك ، الذي شلّني طيلة

الأعوام الكثيرة التي استَهْلَكْتُها في الإنتظار . أن أهجره ، هو الآخر ، وأن أرحل ذهنيّاً ، كما رحلتُ جسدياً ، إلى عوالم جديدة تجعلني أقشعرّ نَزَقاً وتَفَلُّتاً .

وفجأة ، سحَبَني إلى نفسه ، وهو يقول بنوع من التَعالُم والإبْهار :

- الكائن المتعدد الأمكنة والأهواء هو الذي يهمّنا اليوم .

ولأنه رأى الدهشة تغبطني ، وتكاد تدفع بي إلى سؤال جديد ، أضاف موضِّحاً :

- لماذا؟ لأن مواجهة القمع (كما هي الحال في العالم العربي اليوم) لا تكون دائما بالثبات في المكان ، ولا بالمحاجحات اللفظية ، والصِيَغ الذهنية المفَرَّغَة . إنها تقتضي ، أحياناً ، اكتشاف عوالم جديدة ، تمد العربي المقموع بطاقة إنسانية لم يكن يعرفها من قبل . طاقة تساعده على أن يفهم لا ميكانيزم الظلم والعَسْف الواقع عليه ، فحسب ، بل تجعله يدرك ، بفضل الآخر الذي التقاه ، ولو عابراً ، أهمية الكرامة الإنسانية التي لا يحق لأحد ، حتى ولا للوطن نفسه ، هَدْرها .

وكأنه أزاح حِمْلاً لا مرئياً عن ضميره ، صار يتطلّع ، بنوع من «الوَلَه الثوري بالطبيعة» ، إلى أشجار حديقة اللوكسمْبورغْ العظمى التي كانت تتهادي في ذلك الغروب ، قبل أن يضيف :

- الأمكنة المتعددة هي التي تخلق عندنا وحدة الشعور بالكرامة ، وتجعلنا نتمسّك بالمحافظة عليها ، حتى ولو بالأبتعاد المُحْزِن عن أمكنتناالأولى ، وبخاصة ، عندما تغدو هذه بؤرة للقمع والتحقير . وبعد أن تَقَلْقَل في قعدته ، قال وكأنه يَنْهرني :

- أيّ معنى للوطن بمعزل عن العالَم؟

كان يحكي ، وكنتُ أفكِّر فيما قاله لي البارحة ، ونحن نذرع الحديقة ، نفسها ، من الشرق إلى الغرب ، من جهة «السانْ ميشيل» إلى جهة «مونبارناس» ، وبالعكس ، حين كان صوته يتدَحْرج بين أُذنيَّ ، وأنا أُلاحق كلماته المتطايرة حولي كالذباب : مهما كانت الدواعي والأسباب ، علينا أن نحذر من الوقوع في خانة «المُعارِض الأمي» ، فالحياة تستحق أكثر من ذلك بكثير . وقبل أن يطير السؤال مني وجدتني أسأله على الفور ، دون احتراز أو تودد : المعارِض الأمي؟ ولكن ما هو هذا الصنف من البشر ؟ ودون جهد أجاب ، وكأنه يلومني على سطحية تفكيري : المعارض الأمي هو الذي يعارض نظاماً لا يعيش فيه ، أو لم يعد يعيش فيه . ويحيا في نظام آخر لا يعارضه ، أو لا يهمه أن يعارضه .

أحسستُ أنني لستُ مرتاحاً بما أنا عليه ، أو صرتُ كذلك بعد كلامه ، فسألته من جديد وبلا تردد : وهل يوجد الكثير من هؤلاء؟ أكثر مما يخطر لكَ على البال . وهم في كل مكان . قال بنوع من الأسف الظاهر ، وهو يمشي بهدوء . وفجأة ، هَزَّني من كتفي ، وهو يحدِّق في عينيّ ، ويسألني بتَحَدّ : هل تريدني أن أقول أكثر من ذلك ؟

-٣٨-

أحسستُ بنوع من الصدمة وأنا أستعيدأقواله التي صَبّها ، البارحة ، فوق رأسي . ومما زاد الأمر سوءاً ، هو شعوري الخانق بأنني لازلتُ في بداية الطريق برغم مرور سنوات عديدة على وصولي إلى باريس . وأكثر من ذلك ، خوفي مما لا أعرف كيف أعبِّر عنه . هنا ، صرتُ أخاف من الإبتذال . وكنتُ هناك محمياً من الخوف ، أو هذا ما كان يتهيّأ لي بفعل استِحاطتي بالآخرين ، حتى ولو لم تكن مجدية .

الجو العدائي الذي لم نتعود عليه من قبل ، والمُسيطر على فضاء هذه المدينة ، حيث نتابع حياتنا الجديدة ، هو الذي يملأ قلوبنا بالدهشة والإضطراب . ويثير في نفوسنا الكثير من المآرب والأوهام . ليس العدائي بالمعنى الفيزيائي فحسب ، بل بالمعنى الفكري ، أساساً . فمن لا يتقدم في حياته ، لا يتأخر ، فقط ، وإنما يضيع . هذا هو الدرس القاسي الذي لَقَّنَتْنا إياه باريس ، منذ أول يوم من وصولنا إليها ، وظلَّتْ تذكِّرنا به باستمرار . فضاء هذه المدينة التي تبدو عابثة ، فضاء خاص . إنه فضاء المجابهة اليومية بين الكائن وبين المحيط الذي يعيش فيه . وهو ظرف شديد القسوة لَمنْ تعوَّد التمَهُّل والتواني ، لأنه شديد التسارع ، وليس فيه مكان

للوهم ، أو التناسي ، أو الإغفال .

ومن لا يُرِدْ أن يقرأ ما هو مكتوب على لَوْح هذه المدينة الغاوية بأحرف من نور ، يَتَلاَشَ ، سريعاً ، في فضائها المُلْتَهِم (وليس المُلْهِم ، فحسب) . وهو إنْ لَمْ يستوعب حجم التحدي الكبير الذي تُواجِهُ به الواصل إليها حديثاً ، أو يحاول أن يَتَذاكى ، ببلاهة ، عليها ، فسيظل يبحث في زواياها الغامضة عن مبررات لا علاقة لها بالوجود الحيّ ، بل بالموت . بالموت الأكيد ، أوالخَبَل .

ولا زلتُ أتذكر صديقي الفلسطيني الذي أُصيب باللوثة لكثرة الأشغال والمهن والدراسات التي مَرَّ عليها ، ومَرَّتْ عليه ، دون أن يتقدم خطوة في طريقه الكئيبة . وبالطبع ، دائماً ، ثمة أسباب أخرى كثيرة (وبالخصوص عند مَنْ يريد أن يبرِّر مصيره المفْجع) تختلط «بالأسباب الأخرى» حتى تصير عائقاً كبيراً ، لايمكن تجاوزه ، أو القفز عليه . واليوم ، صرت أعرف أننا ، في بلداننا الأولى ، كنا من هواة القفز والألْغاز . لكن ذلك ، كله ، ومهما كانت المهارات الإنسانية التي يمكن لأي منا أن يتمتَّع بها ، لا يجدي ، هنا ، نَفْعاً .

كنتُ أتصوّر أنني في باريس سأستريح من عناء الحياة التي عرفتها في دمشق . لكنني ، في مرحلة تصوُّراتي الأولية ، تلك ، كنتُ لا أزال دمشقيّاً . أقصد ممتلئاً بوهم لا مثيل له هنا . وَهْمٌ لا يعتمد على عناصر واقعية ، وإنما على وَهْم آخر ، سبقه إلى الظهور في نفسي ، واحتلالها . إنْ لَمْ يكن يستند على أوهام كثيرة أخرى ، شكلت عبر تراكمها في عقلي واقعاً مختبلاً ومخيفاً . واقع لا مجال فيه للتنفس بعفويّة . وفي الحقيقة ، لَمْ نكن نملك من هذه العفوية المُشتهاة شيئاً . كُنا أي شيء ، ولنا أية صفة ، ما عدا عفويين ، وعفوية .

لم أكن على بيِّنة من الأمر ، إذن؟ لا! كنتُ مخطئاً بشدة . لأن تصوُّري عن الوجود لم يكن له معادل موضوعيّ هنا . كان غَيْماً ، أو ما يشبهه . كان سرابًا ، ولكنه لم يكن عابراً . وإنما مقيم . وطول إقامته في القلب هو الذي سيعطيه صفة الوجود الذي لا يُكَذَّب . أو الذي لا يمكن لنا تجاوزه بسهولة ، وبخاصة عندما نصير ، لغبائنا ، نصدِّق أكاذيبنا التي لم نكتشف ، بَعْدُ (وهل كان في إمكاننا أن نفعل ذلك؟) بُعْدَها البائس ، ولا الضرر الهائل الذي ستجرُّه علينا . الحياة ، هنا ، مرتبطة بشكل مباشر بجهد الفرد . الفرد المتمركز حول ذاته مثل شوكة في عرينها . لا أحد يستطيع أن يفعل من أجلكَ شيئاً إنْ لمْ تكن تستحقّه . وهو ما كان على النقيض ، تماماً ، مما تعوَّدْتُ عليه في الشام .

تركت الشارع ، وأنا آفكِّر بكل هذه الأمور ، متوجِّهاً إلى الحديقة ، وكأنما يسوقني إليها قَدَر أقوى من إرادتي . لم أعد بحاجة إلى رؤية أحد ، وإنما إلى رؤية الأشجار والزهور . ومما زاد في رغبتي المَشْغوفة ، هذه ، جو الخريف الهادىء ، وشمسه الدافئة ، ونورها المشع المنعكِس على أوراق الأشجار العظمى التي بَلَّلها ذَرَرُ المطر الخريفيّ قبل سُوَيْعات . أمشي . وأفكِّر . صار التفكير عندي ملازماً للحركة . وفي السكون ، أغيب عن الوجود . لكأن أقدامي هي التي تسوق رأسي إلى الهاوية : هاوية أعماقي المملوءة بالشَغَف والإنذهال .

بتأثير «صديق الحديقة» ، غدا الإلحاح الفكري إحدى عاداتي النفسية السيِّئة عندما أكون وحيداً . ويوماً بعد يوم ، صرت أحب أن أكون وحيداً لأصرف أكبر قدر ممكن من وقتي في الخيالات والتفاكير ، وبخاصة ، تلك التي كانت تسوقني إلى حيث لا أريد .

صرتُ أُشبِه سفينة شراعية بائسة ، تدفعها الريح بخِفّة إلى حيث لا تشتهي . وقبل أن يهدأ الإعصار ، وتَلْطأ إلى جُرْف أمين ، كنتُ أحس نفسي ، مثلها ، مُخَلْخَلاً ، ومرتبكاً ، ومُقبِلاً على الموت .

منذ سنوات ، وأنا أتصرّف ، هنا ، بهذه الطريقة ، وعلى النَهْج نفسه ، دون أن أتمكّن من وضعي ، أو أن أصل ، على الأقل ، إلى الشعور بالراحة والأمان . لكأن السفر الذي بدأ خلاصاً ، صار حِمْلاً لا يُطاق . لماذا؟ لأن مواجهة المصير وحيداً ، أوبمعزل عن الآخرين ، هو أصعب المهمّات التي يمكن للكائن أن يتَصَدّى لها . هذا هو الدرس الجهنميّ الذي تعلمته هنا . ولكن ، هل سينقذني عِلْمي؟

باريس في جهة ، وقلبي في جهة أخرى! لم أكن أتصوَّر أن الكائن يمكن له أن يعرف ، أو يَتَحَمَّل ، كل هذا القَدْر من العزلة والتعاسة . وبدأ نوع من اليأس والغُبار يُلَوِّث أحلامي التي كانت نديّة وظريفة . حتى أنني صرتُ أحب أن أبقى على حالي التي جئتُ بها(وليكن ما يكون) إلى أن يلتقطني أحد . وأفضّل ألاّ أكون أعرفه من قبل . فلحظات اكتشاف الآخر ، مهما كانت قصيرة ، والتي قد تَمُرُّ قبل أن أستوعبها ، غالباً ما تحمل في ثناياها مشاعر غريبة ، تجعلني أشعر بسعادة غامضة ، وإن كانت سريعة الذَوبان . وعلى أي حال ، لم يكن الجو ، آنذاك ، يوحي بشيء آخر غير هذا الشعور . شعور هو مزيج من الإثم والفشل والدَوْخَة والسعادة ، ومن الإقتناع بضرورة إعادة المحاولة من جديد .

كنتُ أمشي ووجهي في القاع . رأسي هنا ، وعقلي يسبح في بحور أخرى . وقبل أن أنتبه لوجوده ، وقف عائقاً في طريقي ، ومدّ ذراعه أمام وجهي ليوقفني عن السير . ورأيتُ ابتسامته الخضراء تتسع لتغطّي كل عينيَّ ، وهو يقول :

- أخيراً عثرتُ عليكَ . لقد بدأتَ تغيّر أمكنتك التي تمشي فيها ، وفيها كنت تجلس من زمان . يار جل! القلب هو الذي يسوق الواحد منا إلى مكان الآخر ، وكأن الله وضع عيوننا في قلوبنا لا في محاجرنا .

وضحك بصوت عالٍ ، وكأنه ينتقم من القَدَر الخبيث الذي لا يعطيه ما يريد ، ساعة يشاء ، وبالمقدار الذي يرضيه ، كما يقول متشكّياً . ضحكته الخالية من كل توتر ، هذا اليوم ، هي التي جعلتني أستعيد أقواله القديمة ، وأمنياته التي كان يقصّها عليَّ في المساءات الغابرة ، حينما كنا نجلس وحيدَيْن في صالون «الفُوَيَّيهْ» ، أو «المَأْوى» الذي كان يجمعنا في شارع «فوجيرارْد» ، بالقرب من «السان ميشيل» . وقبل أن أقول شيئاً ، هجمَ عليَّ :

- كيف أنت؟

سألني «م . خياط» وأنا لا زلتُ صامتاً . أكاد أتأفَّف من هذه اللُّقْيا اللامتوقعة . لكن أخلاق الشام العريقة جعلَتْني أبتسم له بخبث ، ولكن دون سوء ، وأنا أرد على تحيته بأحسن منها ، كما عَوَّدونا .

- كل شيء بخير ، وأنت؟

نَفَخ صدره ، وفي عينيَّ حَطَّ عينيه الخضراوين ، وهو يقول متوَهِّجاً :

- كما تراني . وسألني بتبختر : أي رجل ترى؟

وانْتَشَر أمامي مثل ديك الفجر في قُرى «الجزيرة» النائية ، عندما يُحَوِّم حول دجاجاته . وفرحتُ أنا بأخباره المبهجة ، أو التي تبدو كذلك ، حتى قبل أن يحكيها . وليجعلني أطمئنَّ أكثر ، أضاف :

- أنا اليوم ملك . وشرح لي ما كان خافياً عني : أكل لذيذ ، ونساء جميلات .

وتَركَ لفمه الأرْعَط العنان ليَفْتَرَّ عن ابتسامة هائلة ، كادتْ تُغيظني (وكنتُ ، لحماقتي ، أصدّق كل ما يُقال) . وأنا استمع إليه ، صرتُ أفكربحَسَد وتوتّر : الوقت والنساء ، ذلك ما ينقصني لكي أكون ، أنا الآخر ، سعيدًا . وبدأ يشرح لي بتأنّق مفرط ، وبتصنّع متوارِب ، مالا يمكن شرحه . كان يحب كثيرًا أن يتثاقف . أن يتكلم بهدوء . وأن يختار الكلمات بعناية ، وكأنها ألْبِسة من حرير ، وعليه أن ينتَقي منها ما يُلائم الموقف ، والمقام . وكثيراً ما كان يقول لي : الحكي مثل فنّ الخِياطة : الكلمات قماش ، واللسان إبْرَة . ويتابع وهو يستخلص ارتكاسي من تَغَضُّنات وجهي ، ويستمتع بانذهالي : يجب ألاّ تجرح إبرةُ الكلام السامعَ ، وألاّ تُرهق المتكلِّم . أليس كذلك يا رجل ؟ يسألني دون أن ينتظر الجواب . وعلى الفور ، يضيف متودداً ، وكأنني وَلَده الصغير : واليوم ، بعد أن أن تمتَّعْتُ بحياتي وعملي ، ومشيتُ باريس طولاً وعُرْضاً ، لَمْ يبْقَ لي همّ إلاّ أنتَ . ويصير يتمَعّنُ في أركاني وسماتي ، وكأنه يبحث عني في أعماقي ، ومن ثم يقول : أحب أن تكون مثلي على مايرام ، وبخاصة من الناحية الجنسية ، لأن الحالة النقدية عندك زفت ، دوماً ، كما تقول . وعند هذه النقطة ، يسكت ، وكأنه أزاح عن كاهله حملاً ثقيلاً . حِمْل نفسيّ لا طاقة له ، دائماً ، على كتمانه .

لم أكن أعرف بِمَ أجيب . كان جو الخريف الباريسي يتمتّع ، ذلك النهار ، بإضاءة لا مثيل لها . وكنتُ قَرِفاً من التحدُّث والملاسَنة . وأَحَسَّ هو أنني لستُ كما يجب ، فسَكتَ على الفور .

وصار يتطلّع ، مثلي ، بين قدميه تأثُراً . شَعَرْتُ أنه يستجيب ، بصدق ، للصمت الذي فرَضَتْه علينا الطبيعة الآسرة ، ذلك اليوم . وغرقْتُ في صمتي البائس الذي لم أكن أعرف لا معناه ، ولا جَدْواه ، وإنْ كنتُ أعيش مأساته بعمق . فليس من الضروري أن نفقد كائناً عزيزاً ، أو أن تحدث هزّات أرضية حولنا ، أو تضربنا الأعاصير ، أو ما شابه ذلك ، ليكون الأمر جديراً بالألم والخُمودات النفسية . أحياناً ، نجد أنفسنا في مأتم داخلي هائل من أجل لا شيء تقريباً . وكانت هذه هي حالتي ، آنذاك . وإلى أن تحدث المعجزة ، ويتبدد الغمام الذي يُلَوِّثُ قلبي ، ويُخرِّب تواصلي الحميم مع البشر والأشياء ، لا بد من التَصبُّر والإنكفاء .

تفارَقْنا بصمت ، ذلك اليوم . دون أن يزعج أحدنا الآخر لا بالنظر ، ولا بالكلام . كانت هزات الرؤوس تكفي لنقل العاطفة الجيّاشة التي كنا نحتقن بها . وعندما حكيتُ «لصديق الحديقة» عن هذا اللقاء اللامتوقَّع ، وعمّا دار بيننا من أسارير ، وما شابَهَ ، اكْفَهَرَّ وجهه ، وعلا الإشمئزاز شفتيه ، وبدتْ عيونه مملوءة بالظلمة والغيب ، وهو يَهُرُّ في وجهي متأففاً :

- كائن تافه! قال . وقبل أن يرى اللوم يكبر في عينَيَّ ، أضاف : ودائما تُتْحفُني بأخباره البليدة ، أخبار المزاعم والأكاذيب .

وحتى بعد أن رأى الإندهاش العميق على وجهي ، تابع دون اهتمام :

- لا ثقافة عنده . وليس له موقف واضح . ولا يهمه في الوجود إلا راحة نفسه .

لم أعد أسمع مما يقول شيئاً ، لأنني سمعته من قبل عشرات المرات . وبدأت أتأخَّر عنه وأنا أتَـلَخْـلَخ . لكأنني أحاول أن أحمي

نفسي من ذباب كلماته التي كنت أراها تتطاير حولي . وفجأة ، وقفْتُ في مكاني مثل حمار يَحْرُن بالرغم من العصا . فوقف ، هو الآخر ، مثلي . وتطلّع بعجب إليّ ، وهو يسمعني أقول :

– لكنه على الأقل يعمل ، ويعيش من عمله . حسبتُ أنني هكذا أُخَفِّف من حدة توتراته ، وأُطفيء سَوْرة غضبه اللامفهوم . إلا أنه قال بحدّة :

– حتى البغال تعمل ، ومن عملها تعيش . هذا الشأن الحيواني المحدود في الحياة لا يهمنا في شيء . وبعد أن استعاد نَفَسَه ، قال : الوجود أعْقَد من ذلك بكثير . ومصير الكائن يتطَلّب جهوداً خارقة لئلاّ يتحوّل إلى عَدَم . وأضاف وهو يهزّ سبابته في وجهي محذِّراً : أخْطَرُ الكائنات ، هو الكائنُ اللاواعي بشقائه ، لأنه يَجُرُّكَ معه إلى الهاوية .

-٣٩-

في بداية فصل الشتاء ، والبَرْد صاقع ، والجو حزين ، كانت مقهى «دانْتونْ» تغصُّ بالجالسين . والواقفون منهم على «الكونتوارْ» أكثر . قلتُ أفعل مثلهم ، ودخلتُ . كنتُ سعيداً بهذه البادرة الإنسية التي جعلَتْني أنْحَشِر بين جُلَساء طاولتين صغيرتين . أحسستُ ، بفعل هذا الإقتراب الحميميّ منهم ، بحرارة الوجود التي كنتُ أفتقدها بعمق . ومثلهم طلبتُ «شوكولا شو» . وبدأتُ أنتظر . أنتظر ما لا يمكن انتظاره . ما لا أعرفه ، أصلاً . هذا اليوم ، قبل أن أعود إلى «دانتون» ، مشيتُ ساعات في حديقة اللوكْسُمْبورْغ ، وحيداً . قعدت لفترة طويلة أمام أجران المياه الوسخة . وعلى ضفاف البُحيرة الإصطناعية الصغيرة تنَزَّهْتُ . مررت أمام تماثيلي المفضل : الراعي الحزين (لستُ أدري لِمَ أتصوّره راعياً ، وحزيناً ، أيضاً . وهو بالتأكيد غير ذلك) الذي لا يكف عن العزف على نايه ، وقد فَقَد ثيابه ، وصار عريه الكامل هو العلامة الفارقة له .

هكذا كنت اراه ، وأُسميه ، وأحدده ، واستمتع بالنظر إليه ، دون أن أتساءل : إنْ كنتُ على خطإ أو على صواب . وما يهمّني من هذه الإعتبارات النافلة التي لا جدوى حتى من التحقق منها ،

وقد وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه ؟ قضيتُ الأسابيع الأخيرة أمشي . وأقف . وأتمعّن في الأوراق . أوراق الأشجار في الخريف التي تغدو قاسية وحزينة . لكأنها تبدّل أثواب بهجتها قبل أن تودّع أمهاتها ، ألأشجار ، في هدوء . ما يذهَلني في أوراق أشجار الخريف هو طَيْفُ ألوانها . بعد لونها الواحد ذي الخُضْرة الداكنة ، تصير متعددة المَرائي والطُيوف . وتتكامل ، يوماً بعد يوم ، لُوَيْناتها حتى تمتلىء العَيْن بآلاف الإرتسامات الضوئيه اللامعة ، فتبدو الحديقة للمتأمل وكأنها تشتعل ناراً . كيفما نظرتَ إليها ، تَرَ تَدَرُّجات ألوانها التي لا تُحَدُّ . ألوان يملؤها الشَفَقُ والقَتام : الآجري ، والعَسَليّ ، والعَلَفيّ ، والخمري ، والرمادي ، واللَّهَبيّ ، والعُصْفُريّ ، والكَدَريّ ، والأخضر ، والبرتقالي ، والدَوْحيّ ، والترابيّ ، ولون الصُوّان في الجزيرة ، والكُسْكُسي ، وغير ذلك من اللُوَيْنات الهائلة الروعة . وأنا .

أُغْمِضُ عينيَّ لأرى بشكل أفضل . وقبل أن أذهب بعيداً في تأمُّلاتي ، يضع فتى المقهى أمامي الشوكولا الساخنة ، وينصرف . أفتحُ عينيَّ متطلِّعاً في لون السائل الذي كان بخاره الأصفر الذهبيّ يَفور . وأحسُّ أنني أنتعش في ذلك النوء الرطب والمَبْلول . ويبدو لي وكأن البرد بدأ يبتعد بفعل أنفاس المحيطين بي ، وبتأْثير الأبخرة الصغيرة التي صَعَدَتْ تَتَلَوّى أمامي بهدوء . وأصير أُحرك السكر في السائل . وأنتظر . ولا يطول انتظاري . فجأة ، يلتصق بي م . خياط ، جالساً في الفُرْجَة الضيقة بيني وبين الآخرين . أدهشني هذا اللقاء القريب ، وقد رأيته البارحة . بدأت أخشى أن يكون تعوَّد ، هو الآخر ، على ملاقاتي ، وحتى دون موعد . و . . .وقبل أن أذهب بعيداً في خواطري ، ارتسَمَتْ تكشيرته الملتبسة على شفتيه ، وهو يقول ، متلَمِّظاً :

- جنس حيوانيّ ، يارجل .

- جنس؟

أسأله بقلق ، وكأنه قَشٌّ من أمامي نساء الكون ، ولم يعد ثمة ما يكفيني منهنّ . فيقول شارحاً بصوت خافت ، وبكلمات تثير الهوى والإحتداد :

- امرأة شقية يارجل . التقيتها في المقهى . وسحَبَتْني كالساحرة معها . دخلنا شقتها الصغيرة في الطابق السادس . وعلى الفور ، بدأ النضال .

- على الفور؟

سألته مستغرباً وحاسداً .

- على الفور نَهَبَتْني ، قال . وتابع : أكلَتْني أكلاً . لم تَرَ مثل هذا ، أبداً (أشار إلى قضيبه ، ولكن بحياء) .

واستفاض في عرض أحواله الجنسية ، وهو يشرح أفكاره بحركات إيضاحية وبصوت خافت :

- لكأنها قَبضَتْ على نبع الحياة ، عندما قبضَتْ عليه . ورأيته يتَلَحْوَس مثل قطٍّ سعيد ، وهو يقول ، من جديد : صارت تتغلغَل في أحشائي ، وأنا لا أعرِف ماذا أفعل . ياستّار! وبعد أن استعاد أنفاسه المتلاحقة ، قال مُرْتَغِباً : هي التي كانت تركبني . ولا تتوقف عن الطلبات : أخرجْه من هنا ، وحطّه هنا . وهنا حطّه من جديد . أدفعه أكثر . والآن ، لامِسْني برأسه فقط . وهات خصيتَيْكَ ألعقْهما . . و . . .

- كفَّ عن الهذر ، أرجوك . اسمعني . . .

قلتُ ، وأنا أكاد أن أطير من التشتُّت والابتداد . كنتُ أريد أن أجد فاصلاً صغيراً بين الكلام والكلام ، لأتنَفَّس بهدوء . لكنه ، لم

يكن يستجيب . فوجدتني أضع كفي على فمه ، آمِراً :

- إخْرَس!

لكنه أصر على إلقاء كلمته الأخيرة ، وكأنه يختتم بها مغامرته اللانهائية المتعة ، إذْ قال من بين أصابعي :

- يارجل! حتى في حَلَبْ لم أصادف مثل هذه المرأة . وحدّق في عينيّ بزَهْوٍ ذكوري غامض ، وهو يسألني ، كعادته : أنت تعرف الحلبيات ؟

أوه! كان ينتعش عندما يتكلم عن الجنس ، مثل نَبْتٍ يابس بَلّلته بالماء . لكأنه كان محروماً منه طيلة حياته . وأكثر من مرّة كان يصرِّح لي بحميمية : يا أخي! نحن جئنا إلى هذه البلاد من أجل شيئين : الجنس والفِلْس . وكان يضيف متطلّعاً إلى وجهي المثلّثيّ القوام ، والغامض السِحْنَة ، وهو يقول : ولا أدري ما جاء بك أنتَ . فأنت غاطس في الورق والمهاترات . في البدء كنتُ أجد ذلك مثيراً ، ومُبْهِجاً حتى . وكثيراً ما كنتُ استزيده ليحكي لي على هواه من حكايا النساء اللواتي عرفهنّ ، أو تخيّلهنّ . لا فرق عندي . ما كان يهمني هو المَسْعى للوصول إلى تحريك الرغبة وإشباعها ، ولو وَهْماً . عرفتُ ذلك في طفولتي وصباي . أبي ، أيضاً ، كان يحكي كل شيء بطريقة جنسية لا مَراء فيها . يقول ، مثلاً : أفخاذ هذه المرأة تحرك الحجر . والبيت الذي لا نساء فيه قَبْر . ومتعة الحياة التَفَخُّذ . و . . . وحتى عندما يروي حكايات الصيد في الحَماد ، يكون العمود الفقري لما يروي هو الجنس . الجنس مُتخيَّلاً ، ومُمارَساً . مُسْتَخْلَصاً من الحاضر ، ومُسْتعاداً من التاريخ . مَرْوِيّاً ، بالخصوص ، من تاريخه الشخصي المُكَدَّس بالوقائع والإثارات .

وعندما التقيتُ «أبو عَرّوج» ، بعد سنوات من الصحراء ، كنتُ

أقع بفعل حكاياته ، من جديد ، في طفولتي الطيبة التي ولَّتْ . حتى لأكاد أسمع صوت أبي وهو يحدو العيس جنسياً . أبي الذي كان يحسب أن الرمل الساخن هو نداء جسد الأرض المشتاقة للذكورة . وكان يردد على مسامعي ، طفلاً ، أمثولة العرب الشهيرة التي تُمَجِّد التواصل والحياة (وكلكم تعرفونها ، ولا بد . ولكن لا بأس من تكرارها) : أربع لا يشبعن من أربعة : أرض من مطر ، وعين من نظر ، وأذن من خبر ، وأنثى من ذَكَر . وكنتُ أَلْبُد تحت إبطه خانساً وأنا أحب أن أسمع المزيد . لكن هذا الكائن الذي لا يتقن إلاّ «فنّ الخياطة» ، على حد قوله ، من أين امتلأت أمعاؤه بمفرزات الشهوة والجنس؟

عند أبي لم يكن الجنس ، أو اللغة الجنسية مجازاً ، بل كانت حياته البسيطة القاسية معْجونة بالجنس . لماذا؟ لأن الجنس في الصحراء هو المتعة الوحيدة التي في متناول اليدين والقدمين . وهو جنس مَتْعوب عليه . يُمْتع الكائن ، ويستحق الراحة بعده بأي شكل حصل ، وعلى أي طريقة مُورِس . ولأن الفكر ، في الصحراء ، لا يذهب ، أبداً ، أبعد مما تذهب القدم ، كما يقول أبي (وربما كانت هذه هي حال الفكر حتى في الأمكنة الأخرى) فهو لا مجال عنده للميتافيزيقا(أبي) ، أو للتَهْويل ، إنه يحيا في جوهر الحياة ، وهي في حالتها الأولى الشديدة البدائية . ماذا تريدون أن أقول لكم أكثر من ذلك؟ كان الجنس بالنسبة له يعني مشقة جديدة تضاف إلى مشقات الحياة الأخرى . وعليه أن يحاول حلَّها ، بأي شكل . كان يقول : الشهوة عذاب ، وأعذب منها تحقيقها .

يومها ، كنتُ أحسب أن الحرْمان الذي يُمَيِّز حياة الصحراء القاسية هو المعنيّ بهذه الملاحظات . فهو (الحرمان) الذي يجعل

الوجود في الصحراء النقيضَ الكاملَ لكل أمان . لأن الوجود العاري فيها يتطلب البحث الماكر والمستمر عن أسبابه : (أسباب الوجود الأولية) . لكنني سأكتشف أن كل شيء في الصحراء جدير بأن يكون مخيفاً ، وغير أمين ، حتى ولو كان ممتعاً . وبالخصوص عندما يكون كذلك .

العلاقة المباشرة بين الكائن والطبيعة ، وبينه وبين بقية الكائنات ، دون وسيط هي التي تحدد مسار حياته وخطورتها . وفيما بعد ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، سأدرك أن عدم تحقيق الرغبة مفهوم لا وجود له في فكر الصحراء الطبيعي الذي يقوم على إشباع الحاجات الأولية بطرائق مباشرة ، وشديدة البساطة . إذْ كثيراً ما يكتفي الصحاريون بالقدر المُعْطى لهم من الحياة . وأن «عملية تراكم الثروة والثقافة والمعرفة» التي تسود في المجتمعات الحضرية المُتَراصف بعضها فوق بعض ، هي التي تعيق ، في أغلب الأحيان ، انْبِساط الكائن ، أو تدمر رغبته ، أو تمنع ، على الأقل ، تحقيقها بسبب كثرة العوائق الأخلاقية والطبقية التي تفرضها على الناس . هذه العملية الجحيمية ، المانعة للمتعة الطبيعية المباشرة بين الناس في المدن ، وبخاصة ، فيما يتعلق منها بالرغبة الجنسية وإشباعها ، تكاد تكون معدومة في المجتمع البدوي الذي يعيش أُفقيّاً .

كنتُ أفكّر بمثل هذه الإلتماعات وأنا أنظر إلى الناس عَبْرَ «م .خياط»الذي غدا شفّافاً ، متجاوزاً وجهه الأسمر اللّحيف ، وعينيه المختبئتين بألوان الزمرد المندوف . لم يكن يعرف ما يدور في رأسي . وأنّى له أن يعرف ذلك وهاهوذا يتهيّأ ليروي لي حكاية جديدة ، لا تُصدَّق . وقبل أن يبدأ الكلام قلتُ ، مُسابِقاً ، لأصُدَّه عن الحديث : في نهاية كل أسبوع التقيه في «غابة بولونيا» ، يقود قطيع كلابه وهو

يمشي بهدوء : الرجل الهامَّة ، ذو الجسد المحشوّ بالدهن والدخان . لكأنه عاش حياته فقط من أجل الكلاب التي يسوقها بحنان . كلابه المختلفة الهيئات والألوان . لكل كلب منها سِمَة وقوام . وفي كل مرة أراه وهو يمشي وراء قطيعه متَبَخْتِراً ، وكأنه يسوق أمامه مصير الكون . لا! لا يمكن لأحد على وجه الأرض أن يبدو أكثر سعادة منه عندما تنطُّ لتلحس وجهه وشفتيه . راعي الكلاب السارح في الغابة هو الذي ، يا صديقي ، يشغل بالي ، الآن .

بعد أن استعدتُ نَفَسي الذي خَبَا من التسرع في الكلام ، وبي نوع من الأسى الغامض على مَنْ لَمْ أكن أعرف حتى اسمه ، وقد انْقطعَ ، نهائياً ، عن المجيء إلى الغابة ، وجدتني أقول بحزن ظاهر : كان يبدو لي قويًا . وكنتُ أحسب أنه سيعيش قروناً طويلة قبل أن يختفي عن الأنظار . لَمْ أكن أعرف أنه ، بخُيلائه ، وتَجَمْهُره حول كلابه ، كان يمارس تحَدّيه الأخير للوجود ، قبل أن يعلن استسلامه النهائيّ .

قلت ذلك ، كله ، دون أن أشغل نفْسي بالخياط ، إنْ كان يفهم ، أولا يفهم . إنْ كان يسمع ما أقول ، أو لا يسمع . وسكتُّ . سكتُّ مرتاحاً مثل مَنْ يبلغ ذروة المتعة . لا أدري لِمَ حكيت للخياط هذه الحكاية . لكنني رأيته يَنْبَهِتُ من الإستماع إلى كلماتي التي اعتبَرَها ، ولا بد ، خرافة . وكأني استثَرْتُ شهيته للحديث ، رأيته يَتَلَمْلَم . يُمَسِّد على أنفه وما تحت عينيه . وبكَفَّيْه يمسح كامل وجهه وهو يَتشاهَد . لكأنه أراد أن ينفض عن نفسه غبار صمته الذي طال ، مع أنه لم يتوقف إلا دقائق معدودة عن الكلام . حالته هذه أدهشتْني ، وأثارت الفضول عندي . ولمّا رآني في حالة من الغبطة بسبب حركاته الغريبة ، صار يزيد منها ، فبدأ يَلْحَس

شفتيْه بلسانه ، وهويضرب جبهته بيده اليمنى ، وكأنه يريد أن يستخرج من أنفاق نفسه ما هو أكثر إدهاشاً من المعتاد . وفجأة ، نَطَق :

- هذه المرة ، سأموت . وبعد أن استقرت الجملة في عينيَّ ، ورأى فعلها في قلبي ، أضاف مؤكِّداً :

- أعرف أنني سأموت هذه المرة بين ساقيها .

ووجدتني أتساءل بقوة ، مدفوعاً بعاطفة غبية من السهل إثارتها عندي بمجرد ذكر الموت ، حتى أنني لم أسمع سببه . وكأن «أُخُوَّة الغرباء المُهَمَّشين» في باريس التي أخترعناها للهزء من أحوالنا ، كانت شيئاً حقيقياً ، وتلزمني أن أقدم له كل ما أستطيع ، وجدتني أصرخ في وجهه :

- لا! لا تفعل ذلك أرجوك .

- هي التي ستقتلني . قال بهدوء بعث البرد في أوصالي . فتساءلت بغباء جديد :

- هي؟

- أنا مدمَّر ، يارجل! دمَّرَتْني بنت الكلب من كثر الاجتماع (يقصد الجِماع . فهو يتفاخر بقلب الكلمات) .

ولأنني أدركت أنه لا يمكن لي أن أفهم شيئاً ، قبل أن يُفرِغ ما بدَلْوه من الآسِنات ، قلتُ له مواسياً ومُحرِّضاً ، وأنا أعيد عليه كلمته الجديدة المفضلة :

- مدمَّر! لماذا؟

- المرأة السمينة ، الشُقَيْراء ، التي تتحرك بهدوء ناظرة بين ساقَيْها ، ومتفرِّسَة فيما حولها باهتمام ، وكأنها أضاعت عضواً من أعضائها . . .

- هي؟ قاطعته بلا سبب . دون أن أعرف مَنْ تكون .
- هي بالضبط . تعرفها؟
- لا ، أعرف أختها (قلت مستهزئاً) . وما فعلَتْ لكَ؟
- قل ماذا لم تفعل لي . لقد استولتْ عليَّ بطريقة مخيفة . لكأنها دابة منذورة للجنس (لا أدري من أين لَقَطَ هذه العبارة ، اليوم) .
- هي الأخرى تريدك أن تأتيها من الخلف؟ ألم تحكِ لي البارحة عنها؟
- لا . هذه غيرها .
- غيرها؟!

كدتُ أهجم عليه من الغيرة والإنفعال ، لكنني تمالكْتُ نفسي ، منتظراً بقية الحكاية .

- هذه لا تريده إلاّ في هذه الناحية . وكلما سَحَبْتُه منها ، هجمَتْ عليه ، والتَقَطَتْه ، وأعادته إلى ذلك الموضع . وبعد لحظة من الصمت ، قال : أعوذ بالله .

كنتُ استدير مبتعداً عنه ، باحثاً عن راعي الكلاب الذي خَلَّفْتُه في الغابة . أنا الآخر كنتُ راعياً . لكنني كنتُ أرعى الجِمال والأغنام ، الِكباش الشُقْر ، والتُيوس السود بقرونها العَكْفاء الجارحة مثل السيوف . لي مُهرة دَهْماء أركبها عصراً ، أحوش بها السارحات بلا تعب أو أُفول . يتبعني كلبي الصغير :«سِمْر» ذو الوبر الأسود الناعم ، والعيون المشتعلة بالوجد .

صامتاً ، صرتُ استعيد نُتَفاً من حياتي ، وشيئاً من كلمات «صديق الحديقة» المريب ، وهو يَتَحَذْلَق حولي ، ويَتَرَقْرَق ، قائلاً : عندما نحوّل رغباتنا إلى أوهام لا يمكن تحقيقها ، فإننا نخدع الطبيعة

والناس ، ونجعل الحياة عقيمة . وعندما نحوِّل أوهامنا إلى رغبات ، ونُحاول أن نحققها ، بشكل من الأشكال ، فإننا نستثير مخيلتنا ، ونساهم في إغناء الوجود . وأفهم من ذلك : أن الكذب ليس شرّاً ، كله . وأنْ لا قيمة له إلاّ إذا كان قابلاً للتحقيق .

-٤٠-

ونحن متلاصقَان على المقعد الخشبي القاسي الذي نجلس عليه ، عادة ، بين الأشجار ، بدأْتُ أحكي «لصديق الحديقة» بعض ذكرياتي الأولى والأخيرة . ذكرياتي هنا ، وهناك . حالات قديمة وحديثة عشتها ، وأثَّرَتْ بي كثيراً . صوتي الذي استرَقَّ يَتَطَوَّح مُلَوَّعاً مع نسيم الغروب ، وهو يهز رأسه مستمعاً بانتباه زائد ، ومُسْتَمْتعاً . ذكريات غدت ، اليوم ، شيئاً آخر ، ولكن . . .

أحكي .

أحكي بتَرَيُّث ، ومَهْمَهَة . لكأنني أريد أن أعيش تلك اللحظات ، مرة أخرى ، وأنا أرويها . أحكي له بلامبالاة ، وكأنني أحكي لِلاأحد . لكأنني أهذي . هنا ، صارت الكلمات هي ، نفسها ، الوقائع الجهنمية التي عشتها ، هناك . لا أدري ، ولا يشغل بالي ، إنْ كان يحس بأحاسيسي المفَعمَة بالمَرارة والوجد ، أم أنه كان في سَهْوَة عن مثل تلك المشاعر . وفي الحقيقة ، لم يعد ، يهمُّني الأمر ، كثيراً . كنتُ بحاجة لأن أحكي . وهو ما قمتُ به دون تردد أو تزييف .

وأحسُّ بأُذنه تُلامس فمي ، وبأنفاسه تتردد ، حولي ، مثل أمواج في بداية عنفوانها ، وأنا أتكلّمُ : يحُلُّ المساء ، هادئاً ، على

دمشق ، وأنا ممتليء بالإضطراب . خاتِلاً في مدخل العمارة المهيب ، أتصيَّد الفرص والعابرين ، بانتظار أن تصل البتول . قضيتُ أشهرًا ، وأكاد أقول سنوات ، وأنا أتَفَنَّن من أجل أن أفوز بلمسة منها . لكن العوائق اللامتناهية كانت دائماً لي ، ولا أقول لنا ، بالمرصاد .

لماذا لي أنا وحدي؟ لأنني كنت أعي مفعول الطاقة الجنسية في كياني بقوة . وأخضع بلا مقاومة لتأثيرها المباشر . هي؟ لا أعرف إنْ كانت تشعر بما أشعر أنا به . وإن كانت . . . فهي قد قاوَمَتْ كثيراً . أوقامَتْ ، بالأحرى ، بتحريف ما تشعر به ، وتَزْييفه . كيف؟ لأنها لم تكن تُبدي رغبة جنسية عندما نلتقي . أو هي تكتمها بقوة هائلة . ولا تُظهِرُ شغفاً بمثل هذه الأمور . همُّها الوحيد كان محصوراً في أمر آخر ، أخجل من ذكره الآن : الزواج . ماذا كان بإمكاني أن أفعل ، آنذاك ، غير أن أكذب؟ أن أُمَنِّيها بأمر ، وأن أخطط للوصول إلى أمر آخر . رغبتي الملتهبة كانت تبرر لي كل شيء بما في ذلك الكذب . و«الكذب» في هذه الحال مشروع ، أو هكذا أحسسته أنا ، دون أن أستطيع تعليل الأمر منطقياً .

وأتابع بنوع من الملامة الذاتية المستترة ، حكاياتي الكثيرة التي نثَرْتُ بعضها ، من قبل . وهي ، كلها ، تحيل إلى المجابهة العنيفة بين حاجات الكائن الأساسية وبين المفاهيم الإجتماعية التي هدفها الرئيسي رَدْع الكائن في الحياة . والحاجة ، تلتهم الأخلاق ، كما يلتهم الثور الجائع التِبْن . إنها وحش كاسر لا يعيقه شيء ، لا الصدق ، ولا الكذب ، ولا . . . كما سيؤكِّد لي «صديق الحديقة» ، قائلاً : الكذب في ظرف مثل هذا ، يكاد أن يكون فعلاً ثورياً . قبل أن يضيف : أنا واثق من ذلك . بلى! أتذكّر جيداً ما قاله لي عندما حكيتُ له عن بعض ما عانيته في حياتي الدمشقية الأولى ، كما

يسميها ، ويعني بها : الحياة الخاملة فكرًا وسلوكاً . وأنا الآن أُوافقه على رأيه هذا .

في ذلك اللقاء أدهشني وهو يحكي ، بعنفوان آسر ، ناقِداً تصَرُّفي ، واعتباراتي ، وكأنه لم يسمع مما حكيتُ إلاّ كلمات مختارة :

- تقول إنك التجأتَ إلى الكذب؟ عجباً! أيّ معنى لهذه المقولة السخيفة في مجتمع مقموع وكذاب بجمله؟ وكيف يخطر لكَ على بال أن تُجَرِّم نفسكَ ، وأن تُعَنِّفَها ، على ما فعلته ؟ وأنت ، في الواقع ، لَمْ تفعَلْه إلاّ مرغماً . هذا إذا كان ما ترويه صحيحاً .

وأضاف وهو ينظر إليَّ برحمة وتعاطف :

- أنت الكائن الجائع للقوت والجنس والمعرفة ، هل بإمكانكَ أن تنتهك المحرَّمات؟ ألا تعرف أن المحرَّمات ، والمحظورات ، لا ينتهكها إلاّ القادرون على إتيان فعل خطير كهذا . وأنت لست منهم . ويتابع بشفقة واضحة : إني لأعجب من أين يجيئك هذا الإحساس القاتل بالإثم لمجرد أنكَ حاولتَ إغواء فتاة ، أو راوَدْتَها عن نفسها؟ ولنَقُل إنكَ لامَسْتَها ، ولامَسَتْكَ ، أو إنكَ فعلتَ ما هو أكثر من ذلك .

وبعد أن سكت برهة ، وكأنه يبحث عن حجة إضافية ، تابع :

- أنا واثق من أنها هي التي كانت تلعب بقلبك وعقلك . تُهَيِّجك ، وتنصرف عنكَ دون أن تساعدك على بلوغ المأرب السخيف (لستُ أدري لِمَ اعتبره سخيفاً؟) . وأتصوّر أنك ولا بد(أضاف وكأنه في جسدي) كنتَ تلجأ إلى يدك العارية من أجل إتمام ما بَدَأْتَه معها . هي المذنبة ، إذن .

أكّدَ بقوة أذهلَتْني ، وكأنه هو الذي انْضَحَكَ عليه ، لا أنا .

وأكمل :

- أما أنت فلم تكن سوى طُعْم بسيط ، لا يثير شهيَّتَها ، فَلَمْ تَطْعَمْه . بَلْ عافَتْهُ بصلافة . فأَكَلْتَه أنتَ . أكلْتَ نفسكَ بلا شهية ، وبلا متعة ، أيضاً .

وتطلَّع في وجهي بقرف وهو يحتَجُّ بقوة حتى خِلْته يكاد أن يبصق عليَّ ، وهو يُؤنِّبني :

- وفوق ذلك تأسَف؟!

لم أكن أعرف كيف أرد . كنتُ في عالم آخر . عالم بعيد عن العالم الذي يسبح هو فيه . وخطر لي أن الحياة لا مقياس محدداً لها . وأنها ذات مستويات لا تحصى . ولها من العَتَبات بقدر ما للفكرالحر والخلاّق من مستويات . بقيتُ صامتاً . أفْرُك يديَّ ببعضهما ، وقلبي ممتليء بالسواد . أندم ، حتى أكاد أموت من الندم ، لأنني لم أكن على وعي كافٍ في أماسي دمشق البعيدة تلك . لم أكن . . . الآن ، أحس بعمق الكارثة : كارثة البلادة الإنسانية التي كانت تملأ قلبي . كل ما حولي يدفعني إلى التخلّص منها ، ولا أفعل! ولكن ، أي نَدَم جدير بذلك الخُسْران اللانهائيّ؟ أيّ شيء يمكن أن يُعَوِّض ذلك الأسف العميق ، غير الإنقلاب التام على الذات ومنجزاتها؟

لقد كنتُ ، في الحقيقة ، ضحيّة غفلة تاريخية لا علاج لها . ولم يكن لي منْفَذ منها ، إلاّ بتغيير المناخات السرية ، وتبديل الإرتكاسات العميقة ، والتخلّص من الروابط اليومية المبتذلة التي تلتصق بنفوسنا وأجسادنا كالعَلَق الذي يَنْدَحِس تحت الجلد . ولا يمكن تحقيق ذلك ، كما سأدرك فيما بعد ، إلا بالبعد عن البؤرة الإجتماعية الموبوءة . ولكن ، قبل ذلك ، قبل البعد الذي سيكون بالضرورة متأخراً عن الرغبة ، كان لا بد لي من تذَوُّق طعم الحياة ،

ولو على مضض ، وبلا بذخ . وهو ما فعلتُه ، في النهاية .

والتقينا . كانت الرغبة جاهزة . أحسستُ بها تدفعني للإقتراب منه ، من أفكاره . تُزَيِّن لي الإصغاء العميق إلى ما يهذر به بلا إنقطاع . تُهَيِّئني لمتابعة الحوارات الكثيرة ، والشديدة الجِدَّة ، بالنسبة إليَّ . وتجعلني أشعر ، بشكل تلقائيّ تقريباً ، بمتعة لا حدود لها . بسببه ، بسبب توتراته وأحكامه النهائية ، الواضحة ، الجذرية ، بدأتُ أدخل في متاهة التَهَدُّجات والأفكار . أدخلها بتصميم واعتزاز فريد بالذات . كنتُ أسلخ جلدي ، ومكانه ألبس جلداً آخر . مَنْ قال إن الفكر لا يمكن الإمساك به ، وهاأنذا ألبسه كالثوب الجديد في أعياد الجزيرة الغارقة في التاريخ؟ أَلْبَسُهُ ، وبه أتباهى مثل طفل يتيم يلبس قماشًا بَرّاقًا . وهو ما يجعلني أتهادى غبطة وسعادة .

مع ذلك ، وجدتُني أحاول أن أبرر سلوكي القديم حتى بعد أن اقتنَعْتُ ببلادته . وبالفعل ، أحسستني أريد أن أدافع عنه ، مع أنه لم يعد يهمني . لكأن إرثي النفسي منغرس في قلبي ، ولا بد للتَخلُّص منه من عمل جراحي باتر . ولم أجد على لساني سوى كلمات لم أتوصّل حتى إلى إتمام معانيها :

- الواقع ، أنني . . .

من فمي لقَطَ الكلام ، وكأن بدايته تكفيه لفهم نهايته ، فقال متوتِّراً :

- الواقع لا يهمّنا إلا عندما نستعمله كأداة لتجاوزه . نحن لا مَوْضوعيّون بامتياز . وهدفنا أن نظل كذلك .

وبعد أن تلاقَتْ نظراتنا ، خَطْفاً ، انتَقلَ ببَصَره الغائم إلى الأفق ، باحثاً عن ريح الغروب التي تهبُّ في الأعالي ، حيث

الأشجار ترفُّ بأجنحتها الورقية في فضاء الخريف الباريسي الجميل . وكأنه أدرك القليل والكثير من تقلُّباتي ، قال بهدوء ، وقد تَبَيَّنَ له إلى أي حدّ أنا غارق في تُرَّهاتي ، وخوفي :

- لا تَخَفْ من «العقول المجتمعة» فهي ، في الحقيقة ، «عُجول مجتمعة» حول كَوْم من العَلَف . وبعد أن سكت قليلاً أضاف : ومهما فعلتَ ستكون ضدكَ . وحتى لو تنازَلْتَ عمّا هو أساسيّ في فكرك وحياتك في سبيل إرضائها ، فلن ترضى . لماذا؟ تساءل ، وأجاب : لأن الخلاف بيننا وبينها عميق . وهو أكثر جذرية مما تعتقد . وفي تصوّري ، أكمل بهدوء آسر ذلك المساء في اللوكسمبورغ : كلما أمعنْتَ في التنازل ، احتقروك أكثر ، وتجاهلوك !

ودون أن يستريح ، أضاف :

- آلية الحياة العربية التي نحياها ، اليوم ، لا ترحم أحداً ، ولا تَرأَفُ بكائن لا يُدافع عن نفسه . والأفضل لنا أن نكون محتَقرين منهم ، حقاً ، ولكن دون تنازلات ، من أن نكون محتَرمين ، زيفاً ، بتنازلات عواقبها ، دائماً ، وَخيمة .

وبعد أن مشينا مئات الأمتار صامِتَيْن في ذلك الغروب المبلل بالندى والألوان ، قال ، وكأنه يحذِّرني من الوقوع فيما لا يجب أن أقع فيه ، بعد الآن :

-الذاتية المطلقة هي محركنا الأساسيّ . وعلينا أن نفعل ما توحي لنا به ، وبتصميم ، حتى ولو أوْصلنا ذلك إلى الجحيم . وسكتَ .

ولَمْ أسكت . لكأنني بعد أن تذَوَّقْتُ متعة الكلام صرت أريد أن أزيد .

وأروح أحكي : . . .كانتْ أنفاسها تَتَلاحق مثل غُزْلان الحَماد ،

وقد رأت بنادق الصيادين . غزلان حُمْر ، وشهْل ، بأجساد لا مثيل لتكوينها ، شديدة اليقظة والإنتباه . ومنذ أن تحسّ بمن يراقبُها ، تصير تَقْفُز في الفضاء ، وكأنها تطير . ويقف أبي دون أن يطلق النار وهو يقول مُسبِّحاً : «سبحان الخالق» . ويضيف بلا أسف : «نجوع هذا المساء ولا نقتل الظباء» . ويلومُه عَشيرُه المتهيِّء للإطلاق دوماً : «من أين سكنت الرحمة قلبك هذا اليوم»؟ ويقول أبي : «رأيت عيون الولد ترتجف من التأثر ، وربما من الخوف» . ويضيف بهدوء : «يخْلفُني الله» .

كانت أنفاسها تتلاحق بقوة . ولها لُهاث مسعور . وأرى أبي يجثو على القاع . ومن حِزامه الصوفيّ العتيق يَسْتَلُّ حربته ، ويبدأ الحفر . من ورائه ، أسمع صوت عَشيره ، يتساءل : مالكَ تَنْبُش القاع ، يارجل ؟ ويتهدّج صوت أبي وهو يقول : الكَمَأ ياأبو النَشْمي . وأمام دهشة العَشير ، يضيف : سنتعشى كَمَأً هذا المساء . الكمأ ألَذُّ من كبد الغزال . ولكي يواسيه ، وربما يواسي نفسه ، أيضاً ، يضيف : الرحمة زينة . والولد صغير . والغُزْلان هَجَّتْ .

ولأن الآخر بدأ يستسيغ خسارته ، أخيراً ، وقد صارت لا مجال لتلافيها ، قال باستسلام : الرأي رأيك ، يا أبو خليل ، لكن الجوع . . . ! ويصمت ، دون أن يتم الكلام الذي بدأه . ويضجُّ أبي ، مُتَهَوِّلاً : الجوع! خسيء الجوع . القاع مَلْيانة خيرات . ورأيت صاحبه يجْثو على ركبتَيْه ، ومثله ، يصير ينبش التراب الأحمر بحربته ، مُسْتَخْرِجاً أكباد الكَمَأ من أعماق الأرض . كَمَأُ سُهوب الذُرو المتورّم من شدة النضج .

وأسمعُ أبي يتَهَدْهَد بحِسّه العالي ، وهو يقول : عندما انْخَلَقت الكائنات ، انْخَلَق كل واحد منها ومعه سلاح يدافع به عن حياته .

إسمع . . ! أضاف ، وهو يهزُّ سبابته في وجه الآخر ، في ذلك المساء ، مساء الحَماد الغارق في صمت أزليّ لم أرَ مثله إلا في أعالي جبال «الألْب» التائهة في الغيم . حيث صحراء الثلوج شديدة الشبه بـ صحراء الرمال ، إسمع! تابعَ أبي شارحاً لرفيق دَرْبه : والغزال أعطاه الله السرعة لينجو بها من الوحوش الكاسرة ، ومنا .

وهذه الدمشقية كيف ستنجو؟ ومَنّ ينقذها مني؟ وهاهي ذي وَصَلَتْ ، أخيراً . وتقابلنا في الظلام . تقابَلْنا صامتَيْن . أنفاسنا تتحرّق شوقاً للقاء المسائي الذي أكل من أعمارنا أشهُراً . كانت تطأطيء رأسها وكأنها أتَتْ فعلاً منكراً . وأحسب أنني سمعتها تُتَمْتم : ما ضرورة هذا اللقاء ؟ وتضيف بسرعة خاطفة : هأنذا جئتُ . وأحس بي ألْهَثُ كالعِجْل المكسور . أريد أن أقول لها شيئاً جميلاً ، أو قبيحاً ، ما همّ ، يكفي أن أقول . لكنني أصبتُ بالخرس الأكيد . اختفى صوتي تماماً . وبدأتُ أرتجف بشدة . الرَجْفُ ينطلق من أسفل بطني . يَرْقى ، بخلجات غامضة وحسيّة ، إلى ظهري . ومن ثم إلى أكتافي . وأصير أرتعش ، كلّي . وأسناني تصطكُّ بشدة ، وكأنني أقفُ عارياً تحت حَالول الجزيرة ذي البَرْد القاسي والصقيع .

وبحذر شديد أتَقارَبُ منها مرتجفاً . أريد أن أحكي لها عن انفعالي الآسر ، وامتناني لحضورها ، وقد أنتظرتُها طويلاً . وأحسُّها تَتَلايَن أمامي وكأنها امرأة من عجين . وقبل أن أمسها تميل ، وتنحني ، وتسوع . ويأخذني الخوف : إمسكْها قبل أن تسقط في الموت . أخاطب نفسي بلا صوت . وأحيطها بذراعي . وأشعر بها تَتَسايَل بين يديَّ . تكاد أن تَذوب . وقبل أن أردّها إليَّ ، أراها تتمدد

على الدرج فارجة أطرافها ، وبها إغماء . وأقَعُ عليها . أريد أن أُقيمها . وتتَمسَّك بي مغمضة العينين مثل كفيف ركبه الشيطان ، وهي تردد : لا . لا ! لُعابها اللزج يرطِّب شفتيها . وفُخذاها تنفرجان بإغراء . وصوتها اللذيذ الخارج من أعماقها يُكرِّر : الـ لا ، إلى ما لانهاية .

وأحس بيدي تذهب ، عفْواً ، إلى فرجها . وبدلاً من أن تَلُمَّ فخذيها عن أصابعي ، تعطيهما لي بنشوة . وتحتَويني . واحتويها . لكأنها تريد أن تُكَفِّر عن تمسُّكها العنيد برذيلة الكَبْت . أو كأنها صارت ترغب ، الآن ، في أن تهبني المتعة التي حبَسَتْها عني عشرات السنين . آه! كان لملمسها اللَّدن نكهة الجنة . أي سحر ينبجس من خلايا الجسد المستثار عندما يهبنا نفسه ، طالباً منا أن نُطْفيء حُرْقته التي لا تنطفيء؟

كنتُ أحكي ، وكان ينظر في أنحائي منبهراً .أحسستُ به يتمتع كثيراً بسماع حكاياتي . لكأنه هو الذي عاشها لا أنا فقط . وأدهشني صمته المُلْتَذّ وهو يبصبص في عيني وشفتيّ ، دون أن يقول شيئاً . أحسستُ بسعادة مريبة لأنني أسيطر ، لأول مرة ، على عقله ، فرحتُ أبحث عن مغامرات أخرى أقصُّها عليه ، لأُطيل فترة اهتمامه بي . هكذا وجدتني أحكي له عن بعض ما مَرّ عليَّ هنا ، مُجْتزِءاً الوقائع والملابسات ، قائلاً بصوت ملتبس : و . . . خلال صعودي الدرج الضيِّق وراءها(لم أكن مضطراً لتوصيفها) ، توقفتُ ، أكثر من مرة . وتوقفَتْ . توَقَّفَتْ لتتأكَّد من أنني لازلتُ ألحق بها كالكلب الأليف . لم تكن خائفة من أحد ، ولا تأنيب ضمير يعذِّبها . لا شيء في الجوار ، أو المحيط ، يمكن أن يثنيها عن إتمام رغبتها ، وبالطريقة التي تراها مناسبة لي ولها . ولها ، قبل كل شيء .

لكأن اختـلاف الأمكنة لا يترافق باختـلاف الأمـزجـة ، فحسب ، بل باختـلاف الوعي ، أيضـا ، أفكر ، وأنا أتابع الصعود بتردد وخوف . أنا الرجل أخاف ، وهي تتهزهز صاعدة بمرح ، وكأنها ذاهبـة إلى الجنة . وأتابع : وأنا أرقى وراءها ، كنتُ ، أسـتـعـيـد «الدمشقية» المرتجفة وهي تقاوم خوفها الكاسح بقوة الرغبة . تكاد أن تسقط من التوتر والحياء والشبق . وعندما حاولتُ أن أرفع ثوبها كادتْ تخرُّ مغشياً عليها . ولقد كان لذلك الرعب الفاحش متعة لا مثيل لها . وعندما التحَمْنا فوق الخشب العاري ، كان الحرير هو الذي يَلُفُّنا . كنا في بحبوحة الجنة التي سأعرف ، فيما بعد ، أنها كانت بحبوحة الشباب ، لا أكثر ولا أقل . ووجدتني أحقد عليها (على هذه) قبل أن أمسّها . وأكاد أُقرر أنني لن أمسّها أبداً . ولربما كان سبب ذلك هو الفرح الباهر الذي بدأتْ تتظاهر به ، أو الذي صار يخترق ملامحها بالرغم منها . ومنذ أن تلج الباب تبدأ بالتعرّي . لكأنني جئتُ إلى هنا فقط من أجل أن أنيكها ، وأروح . و . . .

كنتُ أريد أن أتابع ، أن أصل إلى شرح مشاعر كثيرة وغريبة أخرى بدأت تملأ نفسي حول المرأتين . إلا أنه أوقفني في مكاني ، وهو يقول ، بأسف وتذمّر :

- لكأنك طفل إنساني لا يكبر . وبرغم تقدمه في العمر ، لا يصل أبداً إلى مرحلة نضج عاطفيّ ، أو معرفيّ . وبعد لحظات من الصمت المريب ، أضاف :

- وأخشى أن تظل بحاجة إلى مُعَلِّم حتى عندما تواجه موتكَ الحقيقيّ .

- لكنني لم أرتكب خطأ فيما نقلتُه إليك بشأنهما . قلتُ .

وبدلاً من أن يعتبر ذلك بمثابة موقف متَوازن ، إنتفَضَ غاضباً وهو يقول مستاء :

- كنتُ أُفضّل أن ترتكب مثل هذا الخطأ ، وأنْ تَعيه ، لأنه قد يمنعكَ من أن تعيد حماقاتك التي تظن أنها «حِكَمٌ وأماثيل» ، وهي اعتبارات شخصية بلا قيمة .

- لكن . . .

ودون أن يهتم باعتراضي ، تابع :

- مايذهلني هو إصرارك على الإستمرار في حماقة التجاهل ، تجاهل الأساسي في الحياة ، وفي التجربة الإنسانية ، حيث لا معرفة دونهما ، ولا تَطوُّر . إسمع! لو أستعدنا حكاياتك الغرامية ، لأعتبرنا ، على العكس مما تتصوَّر ، أن الدمشقية متمردة وشجاعة لأنها تصرفَتْ على النقيض ، تماماً ، من بيئتها . أما الباريسية فهي مبتذلة وضحلة ، وتصرفَتْ في بيئتها بشكل يكاد يكون طبيعياً .

ولمّا رآني مذهولاً ، أو قريباً من هذه الحال ، بمجرد سماعي لما يقول ، تابع دون إهتمام بمشاعري :

- كلامكَ الذي تروي به الحادثتين ، مُحَمَّل بأحكام القيمة التي لم تعد ذات قيمة . ولنقُلْ تسهيلاً للفهم : هو مُحَمَّل بالمزايا والسيِّئات ، وبالمشاعر المُلْتَبسَة التي لا تَضرُّ بأيّ من المرأتَيْن تحديداً . إنه يُلْقي الضوء على السلطة الإجتماعية المُمارَسة على كل منهما ، ويُشَرِّحها . وكان الأجدر بكَ ، فيما يتعلق بالدمشقية ، أن توجِّه لَوْمكَ ، لو كنت تقدر ، إليها ، إلى السلطة العربية التي جَعَلَتْنا بُلَهاء ومضطربي المشاعر والفهم . نتحمَّل الكبت برضى ، إنْ لَمْ يكن باعتزاز لأنه ، حسب ما علمونا ، يعني العفَّة . وهو كذب خالص واستِخْواء (ولم يقلْ واسْتِخْراء . وقد فهمتُ أنا هذا) .

وبعد لحظات من الصمت المقصود ، وكأنه يريد أن يترك لي وقتاً كافياً لكي أتَمَثَّل ما قال ، أكملَ :

- التمرد يحتاج إلى قواعد ثابتة وعميقة الجذور يتبناها الآخرون بقوة ، ويمنعون كل خروج عليها . ومنها ، من هذه القواعد ، أو القيود ، ينطلق الفرد في مجابهة عاصفة ، وحقيقية ، ليحقق رغبته وأهواءه ، بالرغم منهم . كما هي الحال عند «الدمشقية» .

وبعد أن تلمّس بعض أنحائه ، وكأن براغيث التمرد بدأت تنهشه ، استدار نحوي ليصير في قلب عينيّ ، قبل أن يتابع :

- . . . ففي لحظة ما من حياته ، لا يعود الفرد يتحمَّلها ، لا يعود يتحمّل تلك القيود والقواعد ، فينتفض .

وبعد أن نظر إلى القاع وكأنها تلهمه أقواله ، أكملَ بحزم :

- الفرد ، الفرد الواعي أقصد ، يمكنه أن يتمرّد ، إذن ، على أي وضع لم يعد يُرْضيه . ولكي يفعل ذلك فهو بحاجة إلى شجاعة خارقة ، وإلى نقطة إرتكاز ثابتة ومتينة ، كالحب أو الحرية ، أو العدالة ، مثلاً . إذْ لا تمرُّدَ في المطلق . مِنْ هذه النقطة ، أو مِنْ تلك ، سينطلق ، مثل الدمشقية المقموعة جنسياً ، إذا استطاع ، إلى أفق أرحب ، وأكثر تسامحاً ، إذا شئنا .

سكت قليلاً ، وقد أدرك ، ولا بد ، أنني لم أكن أربط بين ما قاله للتو ، وما حكيته له قبل قليل . وبالفعل بقيتُ صامتاً ، وأنا أحس أنني لم أعد أقوى على تحديد مكاني . لكنه ، قبل أن أبلع ريقي الذي نشف ، تابع بهدوء أكثر :

- الدمشقية لكي تمشي بالقرب من رجل مجهول تلزمها شجاعة بلا حدود . فكيف بها عندما تخاطر لتدخل فوهة بناية غريبة عند المساء ، وتستَلْقي على دَرَجها القاسي فارجة فخذيها

بمتعة ، وهي تعرف أنه في أية لحظة يمكن أن يدخل أحد ما؟ وأكثر من ذلك ، أن تسمح لكَ برفع ثوبها ولْمس فرجها المختبيء في أعماق ذاتها منذ قُرون .

ورأيت الشـرر ينطلق من عـينيـه ، أو يكاد . لكأنه أدرك ، هو الآخر ، خسارته التي هي جزء ، أو صارت كذلك ، من خسارتي . وسرعان ما تجاوز هذا الخاطر الذي مر كالبرق في رأسه ، ورأسي ، ليقول :

- إنها لثورة حقيقية ما فعلته تلك المرأة التي قَبِلَتْ أن تُلاقيكَ في مجتمع خانق ، كالمجتمع الدمشقيّ . أما هذه الباريسية التي لم تفعل شيئاً يناقض أي شيء في محيطها فلا مزية لها . هل فهمت؟

وبعد أن نظر في عينيَّ مليًا ، سألني :

- أرأيت في جانب أي كائن عظيم مررتَ دون أن تدرك من خصائصه شيئاً؟ وأحسستُ أنه يكبح جماح نفسه لئلاْ يقول : عليكَ اللعنة !

-٤١-

سـائراً وحـدي ، تلحُّ عليَّ الأسـئلة ، ولا أتمالك نفـسي عن طرحـهـا . الآن ، صـرت أدرك ، على الأقل : أن الجنس ليس شـأناً شخصياً بسيطاً ، وإنما هو موضوع إجتماعي معقَّد وخطير . وأن الحب مسألة فردية محضة . ولا يمكن الحصول عليه لا بالقوة ، ولا بالمال ، وإنما بطريقة أخرى كنتُ أجهلها ، تماماً . أما الحرية . . .! ولكن هل يساهم هذا ، كله ، في إنارة طريقي الذي لا زال مُعْتِماً؟ لا أتصوّر . لأن ما نخلّفه وراءنا لا يعود ينفعنا في شيء عندما نلج نَفَقاً جديداً . وبتغيُّر الحياة ، تتَغَيَّر حتى أحلام الكائن ، لا هيئته ، فحسب .

وحينما سألْتَقي فيه ، بعد زمن طويل من وصولي إلى باريس ، وهي قلب أوربا التي سحرَتْني قبل أن أراها ، حينما سألتقي بمقولة «شومسكي» الإحتجاجية : «ماذا اخترعت أوربا؟ يتساءل ، ويجيب : النازية والستالينية والرأسمالية . ولا ينسى أن يضيف إليها : وكذلك الدادائية والسوريالية والبنيوية ، وكلها ماتت ، قبل أن نموت نحن معاصروها» . في ذلك اليوم ، بتأثير تلك المقولة الكاسحة ، سأشعر بأن خللاً كبيراً كان يملأ نفسي ، وقد ابتعد خطره ، الآن : خطر الإستلاب بشيء كنتُ أظنه أكبر مني بما لا يُقاس . لكنني سأعرف أنه لم يكن إلاّ على قَدّي ، تماماً . وكان

يمكن لي ، في أية لحظة ، أن أعْفُصَ كالحمار المَنْخوس ، لأرميه عن ظهري ، وأتخلّص منه . لكنني كنتُ مُكَتَّفاً كالخروف . ولم أكن أملك الوعي الضروريّ الذي يسمح لي بتمييز الوُجود عن المفهوم . وأتساءل ، اليوم : هل هذا هو معنى أنه كان أكبر مني؟ .

عندما قررت الرحيل لم أخاطر بحياتي لأسكت ، أو لأُماليء ، أو لأُسْتَوْعَب (هذا ما توصلتُ إليه أخيراً) . فعلتُ ذلك من أجل أن أكون أكثر جذرية ، وأشدّ تطرُّفاً . ولكن ، عن أي شيء كنتُ أبحث؟ عن الحرية؟ عن الجنس؟ عن الحب؟ عن لاشيء ؟ هنا ، صرتُ أحسُّني مقهوراً بشكل آخر جديد ، لاعلاقة له بالقهر القديم . القهر الذي يمكن أن أُسمّيه : عسكرياً . وهو ، كما يتهيّأ لي ، الآن ، أبسط أنواع القُهورات الإنسانية ، وإنْ كان أوحشها . إنه «شيء» فيزيائي مقيت . لكنه محدود ، وواضح على الأقل ، إذا ما قسْناه بغيره من ضروب القهر الخفية المستترة الماكرة المتكررة كل آن ، وإلى الأبد . والتي لا خلاص للكائن منها إلا بالهرب ، أوالجنون ، أوالموت ، أو«القُبول اللاطبيعي» بها .

ومن أشكالها ، مثلاً (وأنتم تعرفونها أفضل مني) : القهر المُمارَس على أمرأة سيئة الحظ من قَرينها ، أو على مستخدم لا يتورّع سيده عن تقريعه لأتفه الأسباب ، أوتَتْفيه معلِّم لطلابه ، أو تسلّط أب على أبنائه ، أو . . . الأشكال العديدة الأخرى التي تذكرونها ، جيدًا ، والتي يمكن أن ترافقنا مدى الحياة . لكنني ، برغم إِدْراكاتي ، هذه (إنْ صَحَّتْ ، وحتى إنْ لَمْ تصح) ، صرتُ أفضِّل اللجوء إلى التنَفُّس ببطء ، وابتلاع مشاعري العدائية تجاه الآخرين ، وحماية نفسي من التهوُّر والإحْتِدام ، بانتظار ما لا أعرف كيف أصفه ، بعد .

ولأول مرة ، أيضاً (بتأثيرها ، بتأثير هذه الإدراكات؟) ، بدأتْ مواجهتي مع المحيط تَتَّصف بالتميُّز والتَحَدُّد . وشيئاً فشيئاً ، غدت تخصُّني . أو أنها صارتْ فردية بامتياز . فبعد أن تَسَرَّبَتْ ، في «دمشق» ، بتأثير الخضَمّ الإجتماعي الأعمى ، من الذاتي إلى الموضوعي ، أو حاولَت الإنتقال من هذا إلى ذاك ، أو أنني أنا الذي عشتُ ذلك الوهم الذي لم يكن جميلاً في أول حياتي ، بدَأَتْ (تلك المواجهة) تسلك ، الآن ، الإتجاه المعاكس لإتجاه نُمُوِّها الأولي . هذه المرة ، إنحازتْ مشاعري ، بشكل صريح إلى الذاتي بعد أن تَبَيَّنَ لي أن الموضوعي سحاب فارغ بلا مطر . وهو ، أصلاً ، تمَّ أختلاقه من أجل اِختراق مقاومة الكائن ، ودَمْجه في القطيع . من قبل ، كنتُ أحسب أن عَكَر الحياة سيصفو ، وحده ، أو بشكل تلقائي ، وبخاصة ، مع مرور الوقت . وهو ما يبدو لي ، اليوم ، وَهْماً . إذْ لا بد لنا من جهد إضافيّ وفعّال لكي نصل إلى حالة الصفاء المؤمَّلَة .

مُفكِّراً بهذا ، وغيره ، كنتُ أمشي صامتاً . أذرع الحديقة بالقرب من البحيرة الصغيرة المحاطة بالأزهار والورود ، مستعيداً بعض أقواله المؤلمة ، أو التي أحسستُها هكذا ، والتي رددها على مسامعي ، يوماً بعد يوم ، في هذه الحديقة المباركة التي آزَرَتْني لكي أصمُد . ومنحَتْني قُدْرة لامتناهية على الإصغاء . وكأن أشجارها وأزهارها وحصى أرضها صارت امتداداً طبيعياً لحواسي ، تَحمَّلَتْ ، هي الأخرى معي ، الكثير من توتراته وأقاويله .

واليوم ، لم يعد أمامي إلاّ المشي ، والتوَهُّجات . أمشي محتقناً بالكثير من المشاعر ، ومَمْسوساً بنوع من الخَبَل والإنتشاء . أمشي ويداي ترتجفان على غير عادتي . أنفي مبلول بعَرَق العصر الباريسيّ

الساخن . وبي نوع من الإضطراب الذي لم أكن أُدرك لا مداه ، ولا أسباب انْبِجاسه ، في تلك الساعة من النهار . مع ذلك ، تابَعْتُ السَيْر ، وحيداً ، وأنا أُدَمْدِم بأغنيتي القديمة : أغنية الرعاة الآيبين مساء إلى المَراح ، يلاحقهم عواء الذئاب التي ظلّتْ جاثمة في الفلاة . ذئاب الحَماد التي لا تنام على جوع ، تماماً ، مثل ذئاب كلماته التي لا ترحم ، والتي تبدو لي ، مع ذلك ، ضرورية لئلاّ تَلْتَهِمني ثعالب البلادة والخمول !

كنتُ ، غالباً ، ما أعود إلى مأْوايَ سعيداً ، وهانئاً ، بعد فترة اللقاء به في الحديقة ، مهما كان العنف اللغوي الذي يبادرني به ، وأيا كانت الأصداء النفسية الموجعة التي تنبعث من جروحي السرية المليئة بالقيح . كنتُ أحس أن الأشجار الصامتة هي التي تتلَقّى بدلاً مني أنواء الأحاديث العاصفة واللامبهجة . وهي التي تتَشَرَّب السموم التي تبثُّها الحكايات . إذْ لا حكاية بلا سمّ . لكنني منذ فترة قصيرة بدأتُ أشعر بالإحتقان لأنني لم أكن أستطيع التعبير عن رأْيي كما أحب . وكان هو بشُروحه المتزمتة ، أحياناً ، والمُغالية أحياناً أخرى ، يصادر لا حَقّ التفكير ، فحسب ، وإنما حتى الحَقّ بالكلام . إلاّ أنني صمَّمْتُ ، هذه المرة ، على ألاّ أتنازل عن حقّي في التفكير والنقد والتعبير ، بعد الآن ، حتى ولو جاء ذلك متأخراً . ولكن ، متى يجيء؟

لعلّه يعرف كل ذلك ، ويفعل كل ما يفعله ، ويقوله ، قصداً . وإلاّ لِمَ تراه أوقفني ، ذلك اليوم ، في عرض الطريق ، ناظراً في وجهي بوحشية (أو أنني أحسستُ الأمر على هذا الشكل) ، قبل أن يقول لي والعين في العين : لاحظتُ حالة مريبة عندكَ ، حالة ، لستُ راضياً عنها برغم معرفتي العميقة نسبياً لكَ . مع ذلك ،

أحسَسْتُ أن عليَّ أن أقول لكَ ما أفكِّر فيه بصدق وصراحة كما أحسُّه . وبعد أن تركَ لي المجال لأتنفَّس عميقاً ، أضاف بحذر بعد فترة قصيرة من الصمت المفْتَعَل : لاحظْتُ أنك لا تُحسن إغلاق الدائرة ! وسمعتُني أقول بتحفُّز وإنكسار ، إنكسار لا أعرف لِمَ أصابني من كلام مبتسر وغامض مثل هذا : إغلاق ماذا ؟ تساءلتُ بنوع من الرهبة ، دون أن أذهب بعيداً بتفكيري ، وكأن الكلمات حُجُب لا يمكن اختراقها . وهو ما صار يؤلمني كثيراً .

ودون أن يأْبَه بتساؤلي ، أضاف : أنت تظل تمشي في خط مستقيم ، أو تفعل ، وتتفاعل على هذا الشكل . والخط المستقيم هو العدم . لأنه بلا نهاية . وأهمية «الحكاية» ، أو «التاريخ» ، أو«العشق» ، أو «الحب» ، أو «الكُرْه» أو أي شيء آخر ، حتى ولو كانت حياتنا هي موضوعه ، وبالأخص إذا كانت الحال كذلك ، تكمن في «النهاية» . في أن هذا ، كله ، ينتهي في لحظة ما . كدتُ أحتَجّ من جديد ، لكنه تابع : كلنا نبدأ صغاراً ، وفي الطريق نكبر . ونتغيَّر . ونموت . أو «نغلق دوائرنا» . لكن الخط المستقيم الذي تنتهجه أنت لا نهاية له . لكنكَ . . . ! قلتُ له . ولم يدعني أكمل ، لكأن كلامي من نافل القول ، إذْ سمعتُ صوته المتهدّج يَقْرع رأسي من جديد : أنتَ تسير على الخط ، نفسه ، دوماً . وليس ذلك بالأمر الهيِّن . لكن السَيْر المطلق لا غاية له سوى الحركة المستمرة الخالية من المعنى . إنه الفناء الأكثر رعباً . وإذا ما أرَدْتَ أن تعطيه «معنى» ، فما عليكَ إلاّ أن تُدَوِّره ، وتُحْنيه ، وتغلقه ، حتى ولو اخترق قلبكَ .

أحسَسْتُني ضحية مرعوبة . ضحية الكسل الفكري الذي يجعلنا نقبل كل ما يُقال ، دون أن نتعب أنفسنا في البحث عن

نقيضه . ولكل أمر نقيض ، على حد قوله . نقيض ، قد يكون هو « الشيء» الحقيقي الذي نبحث عنه . لكنني في دمشق تعلَّمْتُ سلوكًا آخر . والآن ، لا بد لي من وقت طويل ، وجهد كبير ، لكي أكفي نفسي بنفسي . ومهما يكن الأمر ، فقد ذُهِلْتُ ، وأنا أستمع إليه ، وهو يُتَفِّه حياتي بهذا الشكل ، وإلى هذا الحد الذي لم يكن متوقَّعاً مني . كنتُ أحسب أنني بوصولي إلى باريس صرت محميّاً من التفاهة والإبتذال . وأن المدن يمكن أن تغدق علينا بعض نعيم أفكارها ونبوغها . ولكن ، هاهو ذا يحاول أن يقنعني بالعكس . أو أنني ، مرة أخرى ، فهمتُ الكلام على هذا النحو ، واكتفيتُ بهذا الفهم ، بدلاً من أن أتعمّق في موضوع الكلام ، وغايته .

بعد فترة من الصمت المشوب بالرهبة ، عاد إلى الحديث ، قبل أن أستطيع أنا ربط الأقوال بأسبابها : المكان الذي نحتلّه في الحياة ، لا نحتلّه صدفة ، ولا بشكل مجاني . إنه ثمرة حياتنا ، وحصيلة تاريخنا الشخصي ، بكامل عناصرهما وموضوعيتهما . وفكرتُ أنا : لكأنني أستجدي مكاني . عجباً! وتابَعَ ، يومها ، بعد أن ابتعد عن عينيَّ مُلاحِقاً ظلال الأشجار العملاقة التي بدت ساكنة في ذلك الأصيل البَاريسي الذاهب نحو الأُفول : ولذا ، لا أحدَ منا يتخلّى عن مكانه ، أو مقامه إذا أحببتَ ، عَفْواً . وهو ما يشرح لنا الهَزّات الإنسانية العظمى المرافقة للثورات ، والثورات المضادة ، في التاريخ . وأكاد أقول ، وإنْ بدا القول غريباً : إنهما متعادلتان من حيث قوة الحدث وصدمته ، وإن إختلفَتْ نتائجهما .

وفجأة ، صار يحرِّضُني : وإذا أردتَ أن يكون لكَ مكان في هذا العالم ، أقصد في الحياة ، فما عليكَ إلا أن تحقِّق ثورتكَ الشخصية ، والتي لا أحد غيركَ يدرك ضرورتها ، ويعرف أساليب تحقيقها .

واستدار على عقبيه ليصير في مواجهتي . وكأنه رأى على وجهي ما لا تُحَبَّذُ رؤيتُه ، وأدركَ ما يدور في ذهني ، قال بحَسْم : إياك والإستيعاب . وسكتَ . سكتَ طويلاً . وكأن الكلمات أصابته في الباطنة . وقبل أن يدير ظهره ، ويختفي ، قال : إنْ فعلتَ هذا (يقصد إنْ كنت قابلاً للاستيعاب من قبلهم ، ورضيتَ به) ستتَفَتَّتُ بُنْيتك كما يَتَفَتَّت التراب بالماء . وستنْفَرِط كُبَّة غَزْلكَ النفسي كماتَنْفَرِط كُبَّة الصوف الملْفوف عندما نَجُرُّ أول الخيط فيها .

وبعد أن تَنَكَّب عني قليلاً ، عاد إليَّ وهو يقول : سيسحبون منكَ إحساسك العاتي بالرفض (هذا إذا أبقوا لكَ شيئاً منه) ، ويجعلونك كائناً مبتذلاً بلا إحساس . وقبل أن يسكت نهائياً ، قال : والآن ، أجدُني مضطراً لأسألك آسفاً : أي الحالَيْن تفضّل ؟ أي الحالين أفضّل ! قلتُ في نفسي باكياً ، وأنا أمشي لصقه بلا صوت .

ولأول مرة ، أحسستُ أن الوضع أقسى مما أتصوّر ، وأكثر تعقيداً . وبدا لي أن الخِيار المطروح أمامي ليس أكثر من عذاب بلا نهاية : إما الخضوع الأبديّ لهم ، أو الموت بعيداً عن الأرض التي أحب .

أردتُ أن أقول له أشياء كثيرة أخرى تكوّنَتْ في نفسي . وبدأت ترهقني . لكنني رأيته يتعامى ، ويتمادى ، وكأننا لا زلنا في بدايات لقاءاتناالأولى . لكأن الزمن الذي مر عليَّ لم يمر عليه . لكأن الحياة لا تعني الشيء نفسه بالنسبة للكائنات . وخطر لي أن أقول له : لابد أنكَ تدرك ، إذا كنتَ كبيراً فعلاً ، أن من حق الآخرين أن يكبروا . لكنني ترددتُ كثيراً ، وأنا ألوكُ هذه العبارة في فمي ، محاذراً أن أقولها له ، قبل أن نَتَفارقَ ، ذلك المساء ، في اللوكسمبورغ .

-٤٢-

عدتُ إلى الحديقة هذا النهار، أيضاً، أبحث عنه. وكذلك فعلت في الأيام، والأسابيع، والأشهُر، الماضية. وأكاد أقول منذ فترة طويلة. لكنه اختفى. لكأنه ذابَ، أو ابتلَعَتْه الأرض. وكنتُ أحسبُ أنه، مثل راعي الكلاب، لن يزول. وقفتُ في جانب التمثال العاري طويلاً، دون أن يأتي أحد يمسك بي من زندي ويسحبني إلى مقهى الحديقة القريب. مشيتُ بجانب البركة المحاطة بالناس والزهور. ورأيت الأطفال يلقون فوق مائها بسفنهم الجميلة، التي هي نماذج مصغَّرَة لسُفُن أجدادهم الغابرين، ولا أحد يحاورهم بصوت صغير على قدِّهم، مثلما كان يفعل. سُفُن مصنوعة ببراعة، يرسلونها إلى البعيد، وينتظرونها أن تعود مملوءة بحُمول متخيَّلَة تفتح شهيتهم للحياة.

حُمول الذهب والفضة والأفاويه التي كان أجدادهم المستعمرون الأوائل يجيئون بها من أقاصي الأرض. أجدادهم الذين عبروا المحيطات بحثاً عن المعادن الثمينة، والأملاح، والعبيد. والذين منذ ١٤٩٢ عام سقوط الأندلس (المواكب، بمحض الصدفة الكونية، لإكتشاف «أمريكا»؟!) صاروا يُراكِمون الثروة والمعرفة والفنون والعلوم، ناهِبين كل ما يُتاح لهم نَهْبُه من أركان

الكوكب الأرضي الأربعة . نَهَبوا كل شيء رأوه ، وأبادوا كل مَنْ وَقَف في طريقهم ، دون تأنيب ضمير .

سريعاً ، تجاوزتُ الصغار وسفنهم الورقية البائسة ، وذهبتُ إلى الطرف الآخر القريب من المونْبارْناسْ ، علني أصادفه هناك . ولكن ، لا! لا أحد في الوجه . ولا أرى . . . وأحسستُ أنني سأعود اليوم ، كذلك ، خائباً دون أن أراه ، مثل الأيام الخاوية الأخرى التي بدأت تتراكَم في حياتي كما الحصى في الفلاة . وفجأة ألمح من بعيد زَوْلاً قادماً ، يمشي بهدوء ولا مبالاة . رأسه مرفوع إلى أعلى ، وكأن الأرض التي يدوسها صارت في السماء . يداه في جَيْبَيْه . وهامته منحرفة قليلاً إلى اليمين . هيكله ناحل ورقيق . ويكاد يطير إنْ نَفَخْت عليه . وعندما حاذاني تبَسَّم لي بلا حماس . وهمَّ أن يتابع طريقه ، وكأنه لا يراني . أو يراني ، ولا يعرفني . ومنذ أن تبَيَّنْتُه ، هتفْتُ به بفرح غامر ، وأنا أتهَيَّأ لاحتضانه ، لأنني أحسستُ في تلك اللحظة وكأنه أُرْسِل لإنقاذي من هواجسي واضطراباتي :

- محمد! الخياط الأكبر . ناكح الجميلات . وشاغل المواديل (وهي كلمة كان م .خياط ، يرددها كثيراً ويعني بها النساء الموديل ، أو عارضات الأزياء) .

- لا! لا تقل هذا . قال بحرج ، وكأنه يأسف على ماضيه الذي لم يدُمْ طويلاً .

ولكن أي ماض ، ولأي كائن على وجه الأرض ، دامَ أكثر مما دام ماضيه؟ الماضي هو اللغة التي نذكره بها ، أو نحكيه بموجبها ، ولا شيء آخر ، كما يقول «الحدائقيّ» . ولّما بقيتُ صامتاً ومذْهولاً ، تابع بأسف :

- لا تذَكِّرْني بما فاتَ . لا تجرح قلبي . لم يعد الأمر كما كان .

وبعد لحظات من الصمت المتأنّي ، أضاف : يا رجل! لكأن العالم كله صار في جهة ، ونحن (يقصد هو) صرنا في جهة أخرى . ماهذه المهزلة الإنسانية (ويقصد المأساة) التي وقعنا فيها . وسكَتَ .

- مهزلة؟

سألته بتعاطف كبير ، وكأنني أُحاذر أن أرُشّ الملح على جروحه . فَهَبَّ قائماً ، مع أنه كان واقفاً بطوله . هَبَّ ، وكأنه يريد أن يقفز من فوقي . وكان طويلاً ورفيعاً كالرمح . وقال ، وهو يرفع يديه عالياً في الفضاء :

- الأسْوَد . وسَكَتَ ، من جديد . وبعد دقائق طويلة ، أعاد الكلمة نفسها ، دون إضافة : الأسود .

- الأسْوَد؟

تساءلتُ بصوت خافت حتى لا أعكّر المزاج الصوفيّ الذي كان يتلَبّسُه ، آنذاك . كنتُ أحسُّه يريد أن يَشُقَّ هُدومه ، ويخرج إلى الناس عارياً ، وهو يصيح فيهم بحرقة وانْفعال : الأسْوَد ، الأسْوَد . ولا أحد يرد عليه ، أو يَأْبَه به . كان قد أقْفَل على نفسه جلده ، وأغمض عن الرؤيا عينيه الخضراويْن اللتَيْن كانتا ، ذات يوم ، جميلتَيْن . وأصبح لسانه ناشفاً كلسان العجل الذي شرب ، للتوّ ، ماءً مالحاً . وكنتُ لا أزال أقف مذهولاً بجواره ، منتظراً أن أفهم ما يقول .

- كنتَ طليقًا كالريح ، وصرتَ شبه أخرس؟ ما ذا دهاك؟

سألته بنوع من الأخوّة الصادقة ، وأنا لم أعد أُريد أن يشرح لي ما لم يكن يقوى على شرحه ، أصلاً . لكنه تَعالى على الصمت وبدأ يتعَثَّر في كلماته :

- لا تحسُبْ عليَّ تدهوري . فكري راح مني . أراه يمشي الآن

في الجميلية بحلب . يَتَنَزَّه في الحديقة الكبرى التي تعرفها ، ولا بد . المَنْشية ! هل رأيتها؟ ولما بقيتُ صامتاً أنتظر التلَعْثُم الآتي ، قال :

- صَكَّهُ الحصان ، ومات . صَكّه بين عينيه فتناثر مخه على الأرض .

- اللعنة!

صرختُ وأنا ألفُظُ الكلام بصعوبة ، متسائلاً :

- صديقنا الأفريقي؟ الذي كان سائساً لأحصنة الشرطة في الحي اللاتيني ، وقَدَّمْتَه لي حين وصلتُ؟ كَمْ كان رقيقاً ، ومسالماً ، وأنيقاً؟ لقد قال لي يومها إنه كان محامياً في بلاده وشرَّدتْه السلطة الغاشمة ، فلجأ إلى هنا ليعيش (كدتُ أقول ليموت) .

- هكذا كان يقول . وكنتُ أحبّهُ .

قال ، بعجالة لا مسوِّغ لها . وهَمَّ أن يمشي بذهول كما جاء . فأوْقَفْتُه :

- لا . لا تذهب الآن . أريد أن أراك قليلاً . أن نتحدث عن الأصدقاء الآخرين . محمد! صرتُ أنا أيضاً أخاف . أخاف .

- تخاف؟

تساءل ، وهو يَحْرُن في مكانه ، وكأن مهمة خفية كانت تنتظره ، وهاهي ذي تعلن له عن نفسها . لقد أحسّ فجأة لا بالخطر ، ولكن بالواجب : واجب حمايتي . وملأ ذلك الإحساس قلبي بالمودّة التي لم أشعر بها منذ زمن طويل . توقف صامتًا قبالتي ، وعيناه تتراقصان بلا نور في محجَرَيْهما . لقد بدا وكأنه يشرف على الموت . كان جائعاً إلى حد الإنهيار! فكرتُ . آنذاك ، لم يكن قد غرق نهائياً ، بعد ، في لجَّة التشرُّد والبؤس . لم يكن قد

وصل إلى الحال التي سألقاه فيها بعد سنين. كان لا زال قادراً على حماية نفسه، مؤقتاً، من الإنحدار إلى الحضيض. إلى حضيض الحياة الباريسية التي لا ترحم.

هنا، في باريس، كل شيء يمكن أن يسير على ضوء أخضر، ولكن... وهذه الـ ولكن، هي التي تعقِّد الأمور، وتجعل من الحياة، أحياناً، شريحة من الجحيم. لماذا؟ لأن الوضع الإنسانيّ هنا، عندما يسوء، لاتعود له علاقة بوضعنا الذي عرفناه، ولا حتى بذاك الذي فَرَرْنا منه. هنا، من السهل أن يُسْحَق الكائن وهو صاح، مفتوح العينين، يرى، ويحس، ويشعر. ولكنه لا يقدر أن يوقفً عجلة الإنهيار. لأن السرعة التي ينحدر بها الإنسان من أعلى إلى أسفل لا تدع له مجالاً لفعل شيء، حتى ولا للإحتجاج. ومَنْ تراه يستطيع أن يحتجّ، وعلى مَنْ، بعد أن يكون قد أصبح في خانة المُعْدَمين؟

وفجأة، عبرت في ذهني تلك اللحظات التي كانت تثير في نفوسنا الضحك، برغم مأساويتها، عندما كنا نَتَناقَل فيها، منذ سنين، وكنا قد وصلنا إلى باريس حديثاً، نتناقلِ قول أحد أصدقائنا القدامى الذي انهار، وجُنَّ، ومات وحيداً، وهو يردد: «باري تو مهْ كْرازْ»، أو ما معناه: باريس! أنتِ تسحقينني. وعند هذه النقطة من التفكير، صِرْتُ أتطلّع إليه بعين أُخرى، لا مجاملة، ولا مُحايِدة، وإنما مُتقَصِّيَة. وبدأْتُ أرى أشياء وأشياء. كل مَا أُريد أن أعرفه عنه كان مقروءاً على وجهه. اللعنة! سحَبْتُه من يده، دون أن أقول شيئاً، واتجهنا إلى أقرب مطعم.

- إلى أين تأخذني؟ سألني محتَجّاً بنوع من القَرَف الذي يكاد أن يكون، في حالته، تَرَفاً.

- أحب أن نجلس قليلاً ، نأكل ، ونتحدث .

أعدتُ عليه رغبتي من جديد . لكنه حرَن في مكانه ، وشَهَلَ هامته ، وصار يتطلّع إلى الغيم . وقفتُ إلى جانبه صامتاً ، وأنا أُفكِّر : لسنا بحاجة إلى نكبات إضافية لتكون مصائرنا مفجعة ! كما قال «الحدائقيّ» . رأى الإصرار في عينيَّ ، فأمال برأسه إلى اليمين ، كعادته ، ليتجنَّب نظرتي المواجهة . وكنتُ مصمماً على ألاّ أتخلّى عنه . كنتُ أحب أن أعرف الكثير عنه ، وعنهم . عن أصدقائنا الغائبين . أو الذين تغيَّبوا . أو مَنْ غيَّبَتْهم الحياة جارفة إيّاهم في أمواج ظروفها الغامضة .

كنتُ أحب أن أعرف كل شيء عن كل شيء ، حتى ولو صار ماضياً ، وفات . وبالخصوص لأنه صار كذلك . لقد فرَّقَتْنا الظروف القاسية ، لكنها لن تمنعني عن السؤال عَمَّن أحببْتُ ، ورافقتُ ، ذات يوم ، من الأصدقاء ، والأعداء . فـ هُمْ كل حياتي ، كما يقول «الحدائقيّ» الذي أختفى ، هو الآخر . لكأنني منذ أن انقطَعْتُ عنهم ، دارت الأرض بي دورات لاحَصْر لها ، لدرجة أنني لم أعد أدري كيف أُحدد موقعي . ولا كيف أتوازن على قدميَّ . أقصد : عقلي وقلبي . لقد صرتُ متأكداً أنني دون ذلك الماضي الذي ولّى لن أعرف للحاضر طَعْماً .

صافناً لصقه ، صرتُ أتذكّر الحدائقيّ ، وهو يوبّخني عندما حكيتُ لَه ، ذات يوم ، عن خطأ ارتكبتُه . . . وقبل أن أكمل الكلام ، هزّني من زندي وهو يقول : وأي ضير في ذلك؟ ألا تعرف أن كل تصوُّر ، أو فعل ، يحمل الوجهين معاً ، أقصد : الخطأ والصواب؟ الأحمق ، وحده ، يريد أن يكون دائماً على صواب ، حتى ولو أخطأ . يومها تلَبَّسَتْني قشعريرة عميقة ، لأنني فهمتُ أن

الصواب ليس مقدَّساً ، ولا هو مطلوب باستمرار . لكن «م . خياط» الواقف في العراء أمامي ، والذي لا يكاد يتحرك حتى ولو حَطَّتْ ذبابة فوق مُقْلَتَيْه ، هو الذي يشغلني ، الآن . فبادَرْتُه :

- لَكَمْ أحب أن نجلس قليـلاً ، ياصـديقي . أن نتـحـدَّث ، وأن . . . ولم أكمل الكلام لأنه مشى صامتاً . فلحقْتُه .

- أصبر قليلاً أرجوك .

لم يرد . ولم يتوقف . ظلَّ يمشي مصعِّراً خده ، مثل أسد جريح لم يعد يقوى لا على صيد الفرائس ، فحسب ، وإنما حتى على حماية نفسه ، منها . لقد صار ، الآن ، هو نفسه ، فريسة . وفريسة سهلة . لكنني لم أيأس . على العكس ، أستفضتُ في الكلام . وبدأت العاطفة القديمة تملؤني بالحنان . فقلتُ بصوت بدا غريباً حتى عليَّ :

- أنا مشتاق لرؤيتك ، ولسماع كلماتك ، ولـ . . .

من النعومة التي تجلَّتْ في سحنته ، هذه المرة ، ومن طريقة مشيه ، واعتدال رقبته ، عرفتُ أنني فزْتُ بموافقته . فأسرعتُ باتجاه المكان . وتهيَّأْتُ للجلوس والمسامرة ، ولو قليلاً . في الطريق إليه ، إلى المكان الذي سنجلس فيه ، ذلك المساء ، أحسستُ بشكل مفاجيء ، بالإحباط . ولقد انتابَني ذلك الإحساس ، ولا بد ، بتأثير ما رأيتُ ، على وجه رفيقي من تقلُّبات ، وضغائن ، وأحاسيس ، واختمارات . بتأثير ذلك ، كله ، أحسستُ بشكل فجائعيّ : أننا ، ربما ، كنا على خطإ عندما غامرنا بحياتنا من أجل «لاشيء» ، تقريباً . إلى مَنْ ألْجأُ ، الآن ، وقدغدتْ نفسي حزينة وكريهة . وتسلَّط إحساس الخطأ القديم على روحي . إلى منْ ألجأ؟ وصلنا ، أخيراً .

- أرأيتَ كم كان الطريق قصيراً! قلتُ لـ م . خياط .

لكنه ظل صامتاً كما كان عندما بدأنا المشي . جلستُ بَشوشاً ، وتطلَّعْتُ إلى وجهه آملاً أن تنفرج الأسارير . و . . . وجلس هو قبالتي عابِساً . ومنذ أن جلسنا ، بدأتُ أتَلَمّظ ، مُتهيِّئاً لسماع الأخبار التي افتقدتها منذ فترة طويلة بعد انقطاعي عنهم ، وانقطاعهم عني ، لأسباب كثيرة لا أعرف عنها شيئاً . هل يعرف هو؟ سأحاول . في البدء ، ظلّ قانِطاً وحزيناً . ولَمْ يَلْمس أياً من المآكل والمشاريب التي طلبتُها . وبعد أن بدأتُ بالثرثرة العفوية ، محاولاً أن أفتح شهيته للكلام ، شرب قليلاً ، والتَقَم بعض نثرات الطعام ، وخَمَد . لكأنه نسي الأكل بسبب البؤس المُدْقع الذي يرتع فيه . فَكَّرْتُ . ولمّا أحس بتململي الجَوّاني الصاخب ، ابتَسم وهو يقول ، وكأنه يريد أن يُراضيني :

- البارحة رأيتها . وسكتَ . وأصَخْتُ السَمْع أنتظر بقية الحديث . وبعد أن تنهَّد ، أكمل : الباريسية السمينة التي كنا نسميها البقرة الهولندية ، رأيتها تمشي وحيدة ، تصارع المارة والعابرين . لكأنما أصابها العفريت .

وبعد أن حطَّ نفسه في عينيَّ ، أوضح : عفريت الحكاية التي كنتَ تحكيها لنا ، وتدّعي أن والدك هو الذي حكاها لكَ ، وهي من اختراعه . وفيما بعد ، عرفنا من المصريّ الصغير أنه عفريت ألف ليلة وليلة . وسكتَ ، من جديد .

- ما هَمّ أن يختلس أبي العفريت . أبي ، هو الآخر ، عفريت من عفاريت «ألف ليلة وليلة» . المهم كيف صارت؟

- في البداية كنا نحسدك عليها ، وحتى قبل أن تمسها . أما الآن فقد صرنا نحسدكَ أكثر لأنك لم تعد . . . وسَكتَ . وبعد

فترة ، قال : ولكَ أن تتصوّر الحال التي ترَدَّتْ تلك البقرة إليها .

وسَكَتَ ، مُنْهَكاً ، من جديد . لكأن الكلمات القليلة أضنَتْهُ . سكتَ وهو يتطلّع إلى الفضاء الرحب خارج المحل الصغير الذي كنا نجلس فيه . وبدأتُ أتمتم ، مستغيثاً بالجنّ ، ألا يسكت عني . لأنني كنتُ أعرف أنني قد لا ألقاه ، مرة أخرى ، حيّاً . فصرتُ أُشاغلُه بالحكي والسؤال . وصار ، هو ، يهزُّ رأسه دون أن تتغيَّر ملامحه ، أو يهتَزُّ له شعور . وفجأة ، خطر لي «صديق الحديق» ، فقلتُ :

- كنتُ أحب أن أسمع أخبار أصدقائنا القُدامى الذين عشنا ، أنت وأنا ، معهم فترة طويلة عند وصولنا إلى هنا .

ولما ظل ساكتاً وكأنه ينتظر مني المزيد . ذكرتُ أسماء بعضهم : أبو الزوز ، جوزيف الذي من القصاع ، من قصّاع دمشق ، وأبو العرب محمدين ، الصعيدي ، من صعيد مصر ، وملك الخَرّاطين ، الزحلاوي ، الذي من زحلة (وكنتُ أضيف : الذي من . . .) لأستثير شهيته للكلام ، لأنه ، هو الذي كان يوصفهم ، قديماً ، بهذه الصفات . وتابعتُ تعداد الآخرين بنفس القَدْر من المحبة والشغف . عددتُ أسماء الآخرين الذين وَلّوا كما كان أبي يقول عن رفاق دربه الذين يغيبون ، أو يموتون . سألته عنهم : عن دين الكاميروني ، وعن مَنْدابا من أفريقيا الوسطى ، وعن آليدو الكوبي من هافانا ، وعن . . .وعن آخرين ، ولكن لا أخريات! وأنا أعدد أصدقائي القدامى ، اكتشفتُ أنني لم أذكر أية صديقة . أين هنَّ البنات ، إذن؟ وأتبيّن أنهن بلا وجود في ذاكرة الصداقة عندي . وآسف كثيراً لذلك .

وأدرك أنني في ذلك الطور من الوجود لم تكن لي سلطة على الحياة ، غير سلطة الخضوع الأعمى لتربيتي وتُرابي ، كما سينبِّهني

إلى ذلك «صديق الحديقة» . وأتذكَّر بهذه المناسبة قوله الذي هَزَّ مشاعري : من الشَغَف يولَد الإستثْنائيّ ! هَزَّني لأنني لم أعرف استثناء ، أبداً ، في حياتي ، وبالتالي لم أذق شَغَفًا . واليوم ، لا يمكن لي أن أُزَيِّف تاريخي الشخصيّ ، وهو كل ما بقي بين يدي من ذلك الماضي الأثير . وهَمَمْتُ أن أتابع ذكرأسماء الآخرين . . . فأوقفني بيده النحيلة ، وهو يقول :

- أعرف أنك تبحث عن . . .

وسَكَتَ . وبقيتُ ساكتاً ، قاعِداً في مواجهته بلا حراك ، وكأن أفعى دخلَتْ في ثيابي ، وأخشى من لَسْعها إنْ أنا تحرَّكْتُ . وبانتظار أن يروق ، صرْتُ استعيد أرواح طفولتي الشقية وصباي : أبو عَرّوجْ الذي علَّمني ما لَم أعلم . وأبي وثعالبه المرتجفة من الخوف معجونة بحكاياته التي اختلسها من الحكاية الأم ، كما يقول ، ويقصد : الدنيا . والمرأة الدمشقية التي كانت تتغلَّب على رعبها من أجل أن توافيني . لم أكن أعرف ، يومها ، أن ذلك المسلك الرهيب ، كان ضريبة الشغف بالحياة ، كما سيقول«صديق الحديقة» . وهل كانت هي تعرف ذلك؟ تعرفه ، منذ البدء ، برغم جهلي له؟ بلى! لأنها كانت تجيء ، ولم تكن مُجْبَرَة على المجيء . ومنْ كان سيجبرها؟ كانت تجيء في صَهَد الشمس الدمشقية الحارقة ، والأجساد تَنُزُّ عرقاً وأحاسيس . ومنذ أن تلج الباب ترتمي عليَّ برغم حرارة القيظ اللامحتملة في دمشق . ترتمي وهي تتنازع مع ثيابها الخفيفة التي تكفيها نَفْخَة من ريح لتطير عن جسدها المستثار . وتضمُّني ، وأضمُّها ، وتَضُمُّ فُرْجتُها كبيري . وأكاد أصرخ : آه!

أستعيد أموراً كثيرة أخرى ، ومعارفَ ، ذابتْ ، وذابوا ، في زخم الحياة كالسماد الذي تَرُشُّه بالماء . ذلكَ ، كله ، كان لعبة من ألعاب

خَيال الوجود النَشط ، إذن؟ لا! ومع ذلك : لا شيء يبقى كما كان . ولا شيء يُفْنى . كل شيء يتحَوّل ! القاعدة الأولى التي علَّمني إيّاها استاذ الكيمياء القصير : «جان» الذي يسكن شارع «فرْدوسا» في «الحسَكَهْ» . أراه الآن لابساً بيجامته المخططة ، واقفاً في العصر الصغير على باب البناء الواطيء ذي الطابق الواحد . غليونه يتدَلَّل بين شفتيه . وخصيتاه تلوحان بين ساقيه القصيرَيْن ، وهو يسألني بنوع من التلذّذ والعطاف : وَلَكْ ابني ، مُخ الفاضي ، حفظتَ درْسَك ؟ نعم استاذ ! أجيب . أجيب بصوت متواطيء ، دون أن أتوقَّف عن السير . وسريعاً ، أبتعد عنه ماشياً بحَماس في هامش الطريق . أتابع بمتعة كبرى حركة الحي الصغير الساحر ، لاحقاً بنات شارع فرْدوسا الجميلات (أو اللواتي كنتُ أراهنّ كذلك) : آديل ، ونَجْمة ، وهنرييت ، وغَرْنوكهْ ، وجورجيت ، والأخريات ، محاطاً بأصدقائي الذين سيذوبون كالسكر في الماء ، كما يقول «جلال الدين الرومي» .

ولأنه بقيَ ساكتاً ، ظَلَلْتُ أنا ، الآخر ، أتابع تَخَرُّصاتي ، وبي همـوم : كل شيء يتحوَّل . . . إلاّ أنا ! أقول لنفسي لائماً إياها . أكاد أضربها . . لكن م . خياط ، قام ، فجأة ، واقفاً ، وكأنه أحسَّ أنني ابتعدتُ عنه كثيراً في تلك اللحظات القصيرة التي غرقتُ فيها في تَفاكيري ، فتشبَّثْتُ به :

- لا! أقعد قليلاً أرجوك .

لم يستجب على الفور . وأمام إلحاحي بدأ يَتَقاعَد بهدوء وهو يتأفَّف :

- أعرف أنك تريد أن تسألني عنه . عن صديقكَ المجنون .

كنت منذ البدء أريد هذا لكنني لم أجرؤ على طلبه منه خشية

أن ينفر فيطير . فهَززْتُ رأسي بنوع من اللامبالاة حتى لا استثير حساسيَّتَه كثيراً ، فقال :

- أظن أنه تبَخَّر ، ذاب ، اختفى ، صديقك العزيز . وإذا أردت أن تعرف الحقيقة . . .

ولم أسأله شيئاً لأنني لم أكن أنتظر منه أن يدرك حقائق الأشياء . وكان ذلك خطأ من جهتي ، وحماقة لا تُغْتَفَر . فتابعت الإصغاء ، منتظراً أن يقول لي حقيقته التي لا يهمني شكلها ، ولا الصيغة التي سينقلها بها إليَّ . المهمُّ أن يقولها . كنتُ فقط أريد أن أعرف . أن أعرف ما كنتُ أحدسه ، من قبل ، وكأنني أقرؤه مكتوباً على الريح . فتابع بنوع من الشماتة واللؤم :

- آخر مرة رأيتُه فيها ، كان يمشي وحيداً . يذرع الحديقة من الطرف إلى الطرف ، ويعود . يحكي لنفسه بصوت مسموع مثل مَنْ أصابَتْه كارثة . واقتربْتُ منه لأسمع ما يقول . وسكتَ . ولم أتمالكْ نفسي ، فسألته :

- ماذا سمعتَ؟

لم يجب . كان يبتعد في خيالاته التي كنتُ أحسها كاذبة ، إنْ لم تكن وهمية . ولكن أنّى لي أن أفرِّق بين الحقيقة والوهم عنده؟ وفجأة ، بدأ يتكلم بتَقْتير ، بعد أن ارتاح إلى إصغائي العميق إليه . وأسعدني ما بدر عنه من كلمات ، إلى أن قال :

- . . . وسمعته يحكي بتوتر واضطراب (يقصد صديق الحديقة) وكأنه يحاول أن يجد طريقه اللامسلوك في الحياة (صار يَتَفاصَح كالماضي)! واقتربتُ منه أكثر ، لأسمعه بشكل أفضل . كان يحكي ، وهو يهزّ رأسه وكتفَيْه ، قائلاً : يكفي! مَلَّ قلبي من تعليم هذا البَليد .

وسكت الخياط ، وكأن أحداً قَرَضَ لسانه بمِقْراض . وبدأتُ أغلي في أعماقي . كنت أشعر أن للكلام بقية . وخفتُ إن استعجلْتُها ألاّ تأتي أبداً . لكنني لم أتمالك نفسي من السؤال العنيف :

- ماذا؟

صرختُ بقوة وأنا أريد أن أبكي .

- لا . لا . ربما لا يعنيكَ أنتَ . ربما يتكلَّم عن أحد آخر .

- ولكن ، مَنْ هم الآخرون؟ وأين هم الآن؟ و . . .وكأنني نخَزْته بإبْرة لامرئية ، نهض الخيّاط بحَسْم . وسار بأنفة غريبة ، مبتعداً عني ، وهو يقول :

- لا تهتم يارجل! الحياة جَمعَتْنا ، وهي التي فرَّقَتْنا .

من طريقته في الحركة والكلام ، أحسستُ أنني لن أراه ، بعد الآن . وسريعاً ، ذاب في بحر باريس . وبقيتُ جاثماً في مكاني ، في عتمة المحل الصغير ، وحيداً ، وأنا أُردد الكلمات التي انْبَثَقَتْ كالدم في رأسي : لو وضعتم الشمس بين يديّ . . . ! وقبل أن أتمَّ الكلام (وهل كان ذلك ضرورياً؟) حَفَزْتُ واقفاً . ومشيتُ

تمَّتْ .

٢٠١٠/٢٠٠٥

خليل النعيمي

Khalil Al Neimi

طبيب جراح ، وروائي عربي سوري ، ورَحّالة .

نشأ في «بادية الشام» ، في القسم الشمالي من الصحراء العربية الكبرى . عائلته من البدو الرُحل . معها عاش طفولته وصباه مُتَرَحِّلاً في سهوب البادية .

درس الطب والفلسفة في «دمشق» . حاز على «الدكتوراه» في الطب ، وعلى «ليسانس» في الفلسفة ، من جامعتها العريقة (حيث الدراسة في جميع الفروع باللغة العربية ، بما في ذلك الطب ، والهندسة ، والعلوم الأخرى ، وهو ما يعتبر اليوم كنزاً ثقافياً ولغوياً هائلاً) .

في «باريس» تخصص في الجراحة ، وتابع ، في الوقت نفسه ، دراسته في الفلسفة ، حيث حاز على «ماجستير» في الفلسفة المقارنة ، وعلى «شهادة الإختصاص» في الجراحة ، من «السوربون» . وهو «عضو الجمعية الجراحية الفرنسية» ، و«جراح المستشفيات» في فرنسا .

يقيم في «باريس» ، ويعمل جراحاً متخصصاً في جراحة الكبد وجهاز الهضم .

إضافة إلى ذلك ، هو رَحّالَة متمرّس . زار بلداناً عديدة في القارات الأربع ، وكتب عنها . ومن البلدان التي زارها : الهند ، الصين ، التشيلي ، الأرجنتين ، البرازيل ، كوبا ، مالي ، السينيغال ، موريتانيا . وفي آسيا الصغرى ، زار مدن «طريق الحرير» وعلى رأسها : سمرقند ، وبخارى ، وخيوا (مدينة الخوارزمي ، مؤسس علم اللوغاريتم ، المشتقّ من إسمه) ، وطاشْقَنْد . وكذلك السهوب الصحراوية العظمى الممتدة بين نهرَيْ «سيحون» ، و«جيحون» ، التاريخيين ، في «أوزبكستان» الحالية . هذا عدا عن العالم العربي ، وأوروبا ، والأناضول .

SI VOUS METTIEZ LE SOLEIL ENTRE MES MAINS

رواية
NOVEL

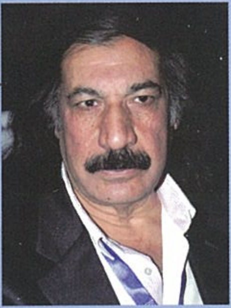

لو وضعتم الشمس بين يديّ

• واستدار على عقبيه تاركًا فضاء باريس الجميل، ليصير في مواجهتي، وكأنّه رأى على وجهي ما لا تُحبّذ رؤيتُه، وأدرك ما يدور في نفسي. قال بحسم: «إيّاك والاستيعاب». وسكت. سكت طويلاً. وكأنّ الكلمات أصابته في الباطنة، وقبل أن يدير ظهره ويختفي، قال: «إن فعلت هذا (يقصد إن كنت قابلا للاستيعاب من قبلهم، ورضيت به) ستتفتّتُ بنيتُك كما يتفتّتُ التراب بالماء، وستنفرط كبّة غزْلكَ النفسيّ كما تنفرط كبّةُ الصوف الملفوف عندما نجرّ أوّل الخيط فيها».
وبعد أن تنكّب عنّي قليلاً، عاد إليّ وهو يقول: «سيسحبون منكَ إحساسك العاتي بالرفض (هذا إذا أبقوا لك شيئًا منه)، ويجعلونك كائنًا مبتذلاً بلا إحساس». وقبل أن يسكت نهائيًا، أضاف: «والآن، أجدني مضطرًا لأسألك آسفًا: أيّ الحالين تفضّل؟» «أيّ الحالين أفضل؟!» قلت في نفسي باكيًا، وأنا أمشي لصقه بلا صوت.
ولأوّل مرّة، أحسست أنّ الوضع أقسى ممّا أتصوّر وأكثر تعقيدًا، وبدا لي أنّ الخيار المطروح أمامي ليس أكثر من عذاب بلا نهاية: «إمّا الخضوع الأبديّ لهم، أو الموت بعيدًا عن الأرض الّتي أحبّ».

• من الرواية

ISBN 978-614-419-010-4

9 786144 190104